



للمعهد العالمي للفكر الإسلامي

مشروع العلاقات الدولية الإسلامية ٩

العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي
الجزء التاسع

الدولة العباسية

من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط

نادية محمد مصطفى

المشرف العام ورئيس الفريق

الباحثون

مصطفى محمود منجود
نادية محمود مصطفى
نصر محمد عارف
ودودة عبد الرحمن بدران

أحمد عبد الونيس شتا
سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل
عبد العزيز صقر
علا عبد العزيز أبو زيد

المشرف العام ورئيس الفريق

١ - أ. د. نادية محمود مصطفى

أستاذ العلاقات الدولية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

الباحثون

٢ - أ. د. أحمد عبد الونيـس شتا

أستاذ مساعد القانون الدولي العام

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٣ - أ. د. سيف الدين عبد الفتاح اسماعيل

أستاذ مساعد النظرية السياسية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٤ - د. عبد العزيز صقر

دكتوراه فى العلوم السياسية

جامعة الاسكندرية

٥ - أ. د. علا عبد العزيز أبو زيد

أستاذ مساعد العلوم السياسية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٦ - أ. د. مصطفى محمود منجود

أستاذ مساعد الفكر السياسى

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٧ - أ. د. نادية محمود مصطفى

أستاذ العلاقات الدولية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٨ - د. نصر محمد عسار

مدرس العلوم السياسية

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

٩ - أ. د. ودودة عبد الرحمن بدران

أستاذ العلاقات الدولية ووكيل

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

المستشارون

١٠ - أ. د. حورية توفيق مجاهد

أستاذ الفكر السياسى ورئيس قسم العلوم

السياسية الأسبق كلية الاقتصاد

والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

١١ - أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ التاريخ - كلية الآداب

جامعة القاهرة

١٢ - أ. د. عبد الحميد أبو سليمان

أستاذ العلاقات الدولية ورئيس

الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا

١٣ - أ. د. على جمعه محمد

أستاذ أصول الفقه - كلية الدراسات العربية

والإسلامية - جامعة الأزهر

المساعدون

١٤ - أ. إبراهيم البيومى غانم

١٥ - أ. إحسان سيد عبد العظيم

١٦ - أ. أحمد عبد السلام

١٧ - أ. تهنى عبـلـان

١٨ - أ. حامد عبد الماجد قويسى

١٩ - أ. طارق السعيد

٢٠ - أ. عبد السلام نوير

٢١ - أ. مجدى محمد عيسى

٢٢ - أ. محمد عاشور مهدى

٢٣ - أ. محى الدين محمد قاسم

٢٤ - أ. فوزى خليل

٢٥ - أ. ناهد عرنـوس

٢٦ - أ. هاشم طـه

٢٧ - أ. هبة رؤوف عزت

٢٨ - أ. هشام جعفر

تم ترتيب الأسماء حسب ترتيب الحروف الهجائية .

الدولة العثمانية
من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط

١٣٢٦ - ١٣٥٦ هـ / ١٩٠٨ - ١٩٤٨ م

الطبعة الأولى
(١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م)

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد تعبر عن
آراء واجتهادات مؤلفيها

الدولة العباسية

من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط

(١٣٢ - ٦٥٦ هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨ م)

د. علاء عبد العزيز أبو زيد

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
القاهرة

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

(مشروع العلاقات الدولية فى الإسلام : ٩)

© ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

جميع الحقوق محفوظة

المعهد العالمى للفكر الإسلامى

٢٦ ب - ش الجزيرة الوسطى - الزمالك - القاهرة - ج.م.ع.

بيانات الفهرسة أثناء النشر - مكتبة المعهد بالقاهرة .

أبو زيد ، علا عبد العزيز .

الدولة العباسية : (١٣٢ - ٦٥٦ هـ ؛ ٧٥٠ - ١٢٥٨ م) : نحو

القوة والهيمنة ... حتى السقوط / علا عبد العزيز أبو زيد . -

ط١ . - القاهرة : المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، ١٩٩٦

ص . سم . - (مشروع العلاقات الدولية فى الإسلام : ٩)

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية .

تدمك . - ٤٧ - ٥٢٢٤ - ٩٧٧ .

١ - الدولة العباسية - العلاقات الخارجية . .

أ - العنوان . ب - (السلسلة)

رقم التصنيف ٣٢٧ .

رقم الإيداع ٧٢٢٧ / ١٩٩٦ .

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
الفصل الأول : العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٤٧هـ / ٧٥٠-٨٦١م) :	
استمرار تسيد المركز في مواجهة الأطراف غير الإسلامية مع بداية	
اللامركزية ، والتعددية في دار الإسلام .	١٥
مقدمة	١٧
المبحث الأول : تسيد المشرق الإسلامي في ظل استراتيجية جديدة للتعامل	
الدولي .	١٨
المبحث الثاني : سياسات الفتح وأنماط التحالفات في ظل اللامركزية والتعددية	
في المغرب الإسلامي .	٣٨
خاتمة	٥٨
الفصل الثاني : العصر العباسي الثاني (٢٤٧-٤٧٧هـ / ٨٦١-١٠٥٥م) :	
انتهاء دور الدولة العباسية كقوة مركزية في التعامل الدولي ، وبدء	
صعود الدولة الفاطمية في المشرق ، والدولة الأموية في المغرب ،	
مع تكرر نمط اللامركزية والتعددية في دار الإسلام .	٦١
مقدمة	٦٣
المبحث الأول : ضعف مركز خلافة العباسية ، وفقدانها القدرة على المبادرة	
الدولية ، وإرادة الهجوم .	٦٧
المبحث الثاني : الدور الفاطمي ، والدور الأموي ، بديلا للدور العباسي ، وعلاقات	
القوى الإسلامية - المسيحية .	٨٩
خاتمة :	١٠٥

الفصل الثالث : العصر العباسي الثالث (٤٧٧-٦٥٦هـ / ١٠٥٥-١٠٩٧م) :

من الهجمة الصليبية إلى الهجمة المغولية ، وسقوط الدولة

العباسية ١٠٨

مقدمة ١١٠

المبحث الأول : بعث إسلامي جديد (٤٧٧-٤٩١هـ / ١٠٥٥-١٠٩٧م) ١١٢

المبحث الثاني : المد الصليبي في المشرق ، يوازله المد المرابطي في المغرب

(٤٩١-٥٢٢هـ / ١٠٩٧-١١٢٨م) ١٢٦

المبحث الثالث : من افتتاح عهد صلاح الدين ، إلى موته

(٥٢٢ - ٥٨٩هـ / ١١٢٨-١١٩٣م) ١٣٣

المبحث الرابع : مراكز جديدة للصمود الإسلامي على الساحة الدولية

(٥٨٩-٦٥٦هـ / ١١٩٣-١٢٥٨م) ١٤١

الخاتمة ١٤٨

المراجع ١٤٩

مقدمة

لم تكن معركة الزاب ١٢٢هـ - ٧٥٠ م والتي انتصر فيها العباسيون على الأمويين ففوضوا على دولتهم إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي وحسب ولكنها كانت ذات نتائج حاسمة بالنسبة للنظام الدولي المعروف يومئذ . فالدولة الأموية - كما رأينا - استطاعت ان تجعل من الدولة الإسلامية أحد الأقطاب الهامة - إن لم تكن القطب الهام الأوحده - المتحكم في مقدرات النظام الدولي المعروف وقتئذ . فكانت سياسة العالم تصنع بحق في مركز الخلافة الإسلامية ، وانتقال السلطة في الدولة الإسلامية تلك من الأمويين إلى العباسيين يعتبر نقطة تحول رئيسية في تاريخ النظام الدولي لأنه لم يكن مجرد انتقال للسلطة من بيت إلى بيت ملكي آخر على غرار انتقال السلطة من البيت السفيفاني إلى البيت المرواني أيام الدولة الأموية وفي أطوارها ، ولكنه كان بمثابة تحول جذري في استراتيجية التعامل الخارجي للدولة الإسلامية بما يترتب على ذلك من تغيرات حاسمة في شكل العلاقات الدولية . فسيطرة العباسيين على مقدرات الدولة الإسلامية كانت مقدمة لتغير شامل وجذري كنا قد شهدنا ارهاصاته في الدولة الأموية بداية من سليمان بن عبد الملك ، ثم خبرنا التردد في تبنيه والتذبذب بين اقراره ورفضه عند بعض من جاء بعده من خلفاء وحتى سقوط الدولة الأموية . هذا التوجه هو التحول عن سياسة التوسع والفتوحات العسكرية كأساس أوحده للتعامل مع الأطراف غير الإسلامية .

جاء العباسيون اذن ليحسموا الأمر في هذا الصدد وليقضوا على أي شك أو تردد بخصوصه فاتخذوا من الاجراءات الحاسمة والخطوات الواضحة ما يثبت تخليهم عن القتال كأداة أولى من أدوات ادارتهم تعاملهم الخارجي ، فنلاحظ منذ عهد المنصور ارهاصات سياسة خارجية تهدف إلى التعايش مع الأطراف الدولية الاخرى ولا تجعل من بين أهدافها الرئيسية القضاء على هذه الأطراف خاصة الدولة البيزنطية ، ولقد ترسخت هذه السياسة بصورة شبه أكيدة بوصولنا إلى عهد الرشيد (١) .

١ - نادية حسني صقر ، السلم في العلاقات العباسية البيزنطية في العصر العباسي الأول (مكة المكرمة : المكتبة الفهصلية ١٩٨٥) ص ٧ .

هويس ، دراسة لسقوط للاثين دولة اسلامية ، م س ذ ، ص ١٢٥ .

عثمان ، الحدود الإسلامية ، م س ذ ، ج ١ ، ص ٣٨١ .

محمود شاكر ، التاريخ الاسلامي - الدولة العباسية ج ١ (بيروت : المكتب الاسلامي ، ١٩٨٥) ص ٦ .

ويرجع بعض المحللين تراجع الدولة العباسية عن سياسة الفتح والتوسع إلى استغراق الدولة في المشاكل الداخلية المتعاضمة لدولة مترامية الأطراف^(٢) . ورغم أقرارنا بثبوت التأثير السلبي للبيئة الداخلية المضطربة على التعامل الخارجى الفعال ، واستعراضنا لتاريخ التعامل الخارجى للدولة الأموية خير شاهد على هذا ، إلا أننا فى دراستنا أيضا لهذا التاريخ خبرنا عودة سريعة إلى سياسة التوسع دائما بعد كل مرة تنقضى فيها الأحداث الداخلية المعوقة للتحرك الخارجى العسكرى . ولكننا عندما نراجع بدقة الأحداث التى أعقبت أنتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين سيتضح لنا بما لا يدع مجالا للشك ان توقف الفتوحات فى الدولة العباسية لم يكن حدثا عارضا وليدا للصراع الداخلى يزول بزوال الحدث الداخلى ولكنه سيصبح سياسة ثابتة للدولة التى سوف تسعى سعيا حثيثا ومنظما نحو تبنى سياسة سلمية فى تعاملها الدولى . فالقتال فى الدولة العباسية لم يعد يستخدم كأداة للتعامل الخارجى إلا فى حالات الضرورة التى تمثلت أساسا خلال العصر العباسى الأول فى حالات رد الهجوم وحالات التأديب والردع عند الشعور بانتهاك هيبة الدولة الإسلامية ، والتى سوف تقتصر فى العصور العباسية المتأخرة - عصور الضعف - على حالات الدفاع فقط بل سوف تفشل فى أحيان كثيرة فى استخدام أداة القتال حتى فى حالات الضرورة القصوى تلك .

والواقع ان تراجع استخدام الدولة العباسية للقتال كأداة هجوم وقصره على كونه أداة دفاع جاء استجابة لعوامل طبيعية أقتنع العباسيون بها وبعدم جدوى تجاهلها . ولعل على رأس هذه العوامل حقيقة بلوغ الدولة الإسلامية لأقصى اتساع جغرافى يمكن ان تصل اليه ، فالدولة مثل الكائن الحى لا يمكن أن تستمر فى النمو إلى مالا نهاية ، ولقد وصلت الدولة فى عهد الأمويين إلى حدودها الجغرافية الطبيعية ، فالملاحظ ان الجبال كانت تمثل دائما الحد الطبيعى الذى لا يستطيع المسلمون تخطيه، فكل معاركهم العظيمة كسبوها فى السهول والوديان والصحارى وكل هزائمهم الحاسمة كانت على سفوح الجبال ، فجبال طوروس مثلت مناطق ارتدادهم فى الشرق أمام البيزنطيين ، وجبال البرنبيه كانت الحد الذى ردهم عن التوغل فى أوروبا فى مواجهة الفرنجة فى الغرب^(٣) . والحقيقة أن وطأة هذا العامل على عملية الفتح والتوسع كانت قد بدأت بوادرها تظهر حتى فترة العصر الأموى خاصة فى العقود الثلاثة الأخيرة منه ولا يستثنى من هذا حتى عصر هشام الذى شهد بعض التحركات القتالية

٢ - هويس ، دراسة لسقوط للاميين دولة ، م س ذ ، ص ١٢٠ - ١٢٦

شاكر ، التاريخ الاسلامى - الدولة العباسية ، م س ذ ، ج ١ ص ٦

٣ - Hodgson , The Venture of Islam , op. cit , vol 1

- Glubb , op. cit , p

حيث لم تعد الغزوات تعدو مجرد كونها تحركات روتينية تفشل دائما في أن تضيف الجديد من الأراضي إلى الدولة لأنها كانت في كل مرة تترد أما أمام الجبال في الشرق أو أمام الجبال في الغرب .

أما العامل الثانى الذى لم يكن من الممكن للدولة العباسية أن تتجاهله وهى ترسم سياستها الخارجية والذى دفعها إلى إعادة النظر فى تبنى سياسة هجومية توسعية هو تدمير الجند من الغزو المستمر واتخاذهم من التحركات ما يفصح عن رغبتهم فى الاستقرار والراحة والدعة ، وهو فى الواقع العامل الذى شهدنا أرهاصاته فى أواخر عهد الدولة الأموية . ولما كان الجيش هو عماد نجاح أى توجه عسكري للدولة فإن عدم رغبة الجيش فى هذا التوجه الهجومى الذى يجعل من القتال نمطا مستمرا للحياة وليس تحركا وقتيا تفرضه حالات ضرورة لابد وأن ينعكس بالسلب على درجة تحمسه . ومن ثم - نجاحه فى انجاز المهام العسكرية المناطة به ، واستجابة الدولة العباسية لهذه الحقيقة الثابتة أمام عينيها دفعتها بالضرورة إلى إعادة النظر فى استراتيجية الهجوم كأساس لتعاملها الدولى .

ولقد أظهرت الدولة العباسية قناعتها وأعتزامها اجراء تحولات جذرية فى استراتيجية تعاملها الخارجى ابتعادا عن قاعدة الهجوم خير وسيلة للدفاع واقتربا من مفهوم التعايش مع الأطراف الدولية الأخرى فى اتخاذها مجموعة من الخطوات ذات الدلالة . ولعل أهم وأوضح الخطوات الدالة هى سياسة الحدود التى تبنتها الدولة العباسية . ففي حين كان الأمويون لايهتمون بتأمين الحدود كوسيلة لحماية الدولة مقتنعين بأن الفتوحات المستمرة والهجوم المتواصل هو خير وسيلة لحماية الدولة والدفاع عن حدودها ، فإن الدولة العباسية اهتمت بمنطقة الحدود وبتحصين ثغورها باعتبار أن هذا أفضل وسيلة للدفاع عن كيان الدولة ^(٤) فالحدود كما فهمها الأمويون كانت نقطة للوثوب والانطلاق للغزو ، ولذلك هم لم يهتموا بالثغور إلا بوصفها محطات لراحة الجند وإعادة شخذهمهم وتموينهم ، أما الحدود بالنسبة للعباسيين فكانت نهايات وفواصل تفصل الدولة الإسلامية عن القوى غير الإسلامية وتحتمى الدولة داخلها ، ولقد وضع هذا بصفة خاصة مع هارون الرشيد الذى تأكد فى عصره تخطى الدولة عن الهجوم كوسيلة للدفاع ، حيث وضع سياسة واضحة للثغور تدعمها وتقويها وتؤمن الدولة داخلها ^(٥) .

٤ - نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ٧

نايف عبدالجبار سهيل ، السياسة الخارجية للدولة العباسية فى العصر العباسي الأول ، رسالة ماجستير - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة - ١٩٨٥ ، ص ١٩ - ٢٠ .

٥ - عثمان ، الحدود الإسلامية ، م س ذ - ج ٣ ، ص ٢٢ - ٢٤ .

أما الخطوة العملية الثانية التي تجلى فيها مدى تخلى العباسيين عن سياسة الفتح والتوسع كوسيلة لحماية الدولة وتأمينها فكان قيام الخليفة العباسي الثاني والمؤسس الحقيقي للدولة العباسية المنصور بالله ٧٥٤ - ٧٧٥ باختطاط عاصمة جديدة للدولة العباسية هي بغداد . والواقع أن قرار الخلفاء العباسيين التخلي عن دمشق - معقل الأمويين - كعاصمة لهم هو قرار منطقي ، ولكن قرار المنصور بناء عاصمة للدولة مجددا بعد أن كان السفاح قد استقر بالفعل في أماكن أخرى ، ثم اختيار المنصور الدقيق لموقع المدينة العاصمة وانتقائه لأسمها الرسمي كانت كلها دلالات هامة على التوجه الجديد للدولة الوليدة . فالاسم الرسمي لبغداد هو "مدينة السلام" وهو اسم دلالة على التوجه الخارجى للدولة والقائم على التعايش مع أقطاب النظام الدولى الأخرى غير خافية . ولقد أقر المنصور عند اعتزازه بنائها في الموقع الذى استقر رأيه عليه بعد مشاورات عدة مع مختصين ، وفي إعلان صريح عن هدفه من بنائها ، بأنها ستكون المركز التجارى للعالم كله ^(٦) ولقد أختير موقعها بعناية لوقوعها في منطقة زراعية وفيرة المياه أولا ولكونها ملتقى في الطرق والمواصلات والتجارة بين الغرب والشرق ثانيا ، وفي اجتماع هاتين الخصيصتين معنى رغبة الدولة العباسية الابتعاد عن اقتصاد الحرب الذى كان يحكم الدولة الأموية عندما كان معظم دخل بيت المال يأتي من موارد مرتبطة بأعمال الغزو مثل الجزية والخراج والغنائم .

فاعتزام العباسيين التخلي عن سياسية الفتوحات كان لابد وأن يواكبه تحرك سريع نحو أحداث تغير جذري في الهيكل الاقتصادي للدولة الإسلامية يضمن موارد جديدة لبيت المال بعيدا عن أعمال الحرب ، فكانت الزراعة والتجارة هما المصدران الجديان اللذان لجأت اليهما الدولة العباسية لاقامة اقتصاد سلم محل اقتصاد الحرب ^(٧) ولقد كانت هذه الرغبة وراء اختيار الموقع الجديد للعاصمة الجديدة للعباسيين ، فرغم تدهور الوضع السياسى للعراق أثناء فترة الدولة الأموية وتراجع مكانته السياسية أمام سطوة بلاد الشام ثم تضائل دوره العسكرى لعدم ثقة المركز في ولاء سكانه ، إلا أن هذا التدهور في وضع العراق السياسى والعسكرى كان يقابله تنام واضح في موارده الزراعية أحدث طفرة في اقتصاده كان لها أثر بالغ في التمهيد لانتقال مركز السلطة اليه ، ثم ان موقع بغداد على نهر دجلة مكنها من أن تكون مركز التحكم في زراعة سواد العراق كله ، ولقد جعلها موقعها هذا أيضا ملتقى الطرق التجارية العالمية البرية والبحرية على حد سواء ، الأول عبر جبال فارس والثاني عبر الخليج الفارسي وشرق البحر المتوسط ثم دجلة والفرات ^(٨) .

٦ - نقلا من : G. Lewis , op.cit , P .82 .

٧ - Ibid , pp 82 - 83 .

٨ - Hodgson , cip . at , vol 1 , p387 .

وتكثيف الدولة العباسية اهتمامها بتنمية التجارة كان يتطلب بالطبع تشجيع علاقات جوار سلمية تضمن توفر قدر معقول من الأمن على طول الطرق التجارية وتحقق كذلك الاستقرار الداخلى فى الدولة الإسلامية منبع التجارة ومصيبها^(٩). وفى ظل هذا الهدف نستطيع أن نفهم سياسة الحدود التى تبنتها الدولة العباسية والتى تقوم على تحصين الثغور لضمان أمن الدولة الداخلى وانتشار الحاميات على طول الطرق التجارية مما ساعد على رواج التجارة مع تنامى التوجه السلمى للدولة الإسلامية خاصة مع الأمم الشرقية فى الصين والهند وتركستان وكذلك مع افريقيا ، كما ذكرنا فى خاتمتنا للدولة الأموية .

ولقد بلغ من انشغال الدولة العباسية بأمر التجارة العالمية أن أضحت المشاريع الكبيرة التى تخطط لها مشاريع تجارية وليست مشاريع حربية من قبيل بحث الحليفة هارون الرشيد فى مشروع شق قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر لتسهيل التجارة وتقصير المسافات^(١٠) . ولقد انعكس تغير هيكل البناء الاقتصادى للدولة العباسية على شكل التركيبة الاجتماعية لها حيث أضحت الطبقة العليا فى الدولة العباسية هى طبقة التجار فحلت محل طبقة الجند المحاربين التى كانت تحتل قمة الهرم الاجتماعى فى عهد الدولة الأموية فى إشارة واضحة أخرى إلى تولى الدولة العباسية عن تبنى سياسات الهجوم والفتح وإحلالها التعايش والاستقرار كأهداف لها بدلاً من التوسع على حساب الأنظمة الأخرى فى المحيط الدولى^(١١) .

ثم إن المحللين يقفون أيضاً عند دلالة نقل العباسيين لعاصمتهم بعيداً عن حوض البحر المتوسط وأكثر اقتراباً من قلب آسيا فى التأكيد على أن فى هذا إشارة إلى رغبة العباسيين ترك عالم البحر المتوسط البيئة الطبيعية للدولة البيزنطية دولة الغزو والحرب والفتوحات ، إلى العالم الآسيوى الذى تشتهر أممه بفنون التجارة ، وإن تقلص اهتمامهم بالبحر المتوسط عالم الفتح والغزو سيؤدى إلى اعتبار شواطئه نهايات يجب تدعيمها لحماية الدولة . أما نشاطهم التوسعى ان كان يمكن أن نطلق عليه هذا فسيكون فى العالم الآسيوى ملتقى طرق التجارة العالمية حيث سينصرف اهتمام الدولة العباسية إلى النشاط التجارى فى الخليج العربى وبحار الهند وستكون حملاتها

- Lewis , op. cit , at , pp 87 , 88 .

- ٩

- Hodgson , cip . at , vol 1 , pp 233 , 301 .

- ١٠

عثمان ، الحدود الإسلامية ، م س ذ ج ٢ - ص ٢٢٩ .

- Glubb , op.cit , p 264 .

- ١١

- Lewis , op.cit , p 92 .

هناك هي بالاساس تعبير عن رغبة فى دعم الأمن اللازم لطرق التجارة حتى تزدهر (١٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض المؤرخين يرفضون هذا التحليل الرامى إلى حدوث تغير فى التوجه الخارجى للدولة العباسية بالقياس على الدولة الأموية وهم يستدلون على هذا بأن الدولة الأموية فى نهايات عهدها كانت قد عجزت عن حماية حدودها وفقدت زمام المبادرة فى الساحة الدولية للدولة البيزنطية ، وإن الدولة العباسية الفتية هى التى أعادت هذا الدور للدولة الإسلامية مرة أخرى عندما استأنفت المواجهة الصراعية مع الروم البيزنطيين خلال العصر العباسى الأول مؤكدين أن تخليها عن هذا فى العصرين العباسيين الثانى والثالث إنما جاء لظروف خارجة عن إرادتها متمثلة فى انتقال زمام أمر دولة الخلافة إلى يد الجند الأتراك (١٣) .

وبغض النظر عن صواب أو خطأ مقولة إن تمكن الجند الأتراك من أمر الدولة العباسية والذي انعكس على قدراتها على التفاعل الخارجى الفعال هو أمر خارج عن إرادة الدولة العباسية ، فإن ما يهمنا هنا هو التأكيد على أنه لاختلاف حول الحقائق التاريخية الثابتة التى توضح أن الدولة الأموية فقدت زمام المبادرة على الساحة الدولية فى نهايات عهدها وإن الدولة العباسية الوليدة استعادت زمام المبادرة هذا فى يدها فى عصرها الذهبى الأول ، ولكن هذا لا يغير مما نرمى إليه وهو أن الهدف الاستراتيجى الأعلى للسياسة الخارجية العباسية قد اختلف تماما عن الهدف الذى وضعته الدولة الأموية نصب أعينها فالدولة الأموية رغم عدم قدرتها على الوقوف موقف الند من الدولة البيزنطية فى أواخر عهدها ، إلا أن ولادة أمرها وحتى آخرهم ظلوا مترددين فى تبنى التخلي عن سياسة الفتح والتوسع والهجوم كأساس لتعاملهم الدولى رغم افتقارهم القدرة الفعلية على المضى فى هذه السياسة ، فى حين أن الدولة العباسية بعد ست سنوات فقط من قيامها بدأت تتخذ خطوات حثيثة توضح نيتها جعل التخلي عن قاعدة الهجوم خير وسيلة للدفاع هو سياستها المعلنة رغم أنجازها العديد من الخطوات الهجومية التكتيكية التى ماكانت تتخذها فى الواقع إلا لدعم السلام الذى إرادته أن يعم النظام الدولى حتى تزدهر التجارة .

نخلص من هذا إلى أن الخصيصة الأساسية للتحرك الخارجى للدولة العباسية كانت هى التخلي عن السياسة التوسعية على حساب أطراف النظام الدولى الأخرى والتوجه نحو علاقات دولية أكثر سلمية ، وهذا التحول الجذرى فى إدارة الدولة

١٢ - عثمان ، الحدود الإسلامية ، م س ذ ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

سهيل ، السياسة الخارجية ، م س ذ ، ص ١ - ٦ .

١٣ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ١٦٧ .

الإسلامية لعلاقاتها الدولية جاء استجابة منطقية لعوامل طبيعية ولتغيرات داخلية ماكان في استطاعة الدولة العباسية أن تتجاهلها والا كانت كالسابع ضد التيار يحكم على نفسه بالموت مهما طال جهاده للأمواج العاتية .

فالدولة العباسية اذاما أخذنا في الاعتبار الظروف التي ولدت فيها، قد سلكنا أفضل السبل المؤدية إلى بقاء الدولة الإسلامية بوصفها الوعاء الذي يحفظ الأمة ويحفظ الشريعة الإسلامية ، بل وساهمت بطريققتها في نشر الإسلام في ربوع لم يصلها قبلا عندما حملته التجار والدعاة المسلمون معهم إلى الأمم التي كانوا يتاجرون معها والتي استقر الكثيرون منهم فيها

ولقد نجح التوجه الخارجى للدولة العباسية الوليدة في الاحتفاظ لها بمركز التسيد والعلو في النظام الدولى كأكبر دولة تجارية في العالم القديم وقبل هذا وأهم منه أنها نجحت في التمكين للإسلام في أنحاء الأرض التي وطأتها أقدام التجار المسلمين طالما كانت الدولة العباسية قوية تفرض سياسة التعايش السلمى من منطلق قوة ، ولكن لما أصاب الضعف الدولة العباسية واكبتها الصراعات فى الداخل وسيطر الجند المشاغبين على مقدراتها نظرت الأطراف الدولية إلى منطلق السلم الذى أستخدمت اليه الدولة العباسية على أنه خضوع فتتمروا هم وتقهقرت الدولة العباسية إلى موقف المدافع غير القادر وغير المتمكن فكملت إليها الضربات من قوى فى النظام الدولى الموجودة على الساحة بالفعل أو الصاعدة بين الحين والآخر حتى سقطت فى النهاية لقوة حربية هائلة قادمة من الشرق هى قوة المغول كانت ضربتهم هى القاضية بعد الضربات المتوالية التى كملت لها على مدار أربعة قرون بعد عهد ازدهار وقوة قصير لم يستغرق أكثر من قرن من الزمان .

ومن هنا فان ادعاء بعض المحللين أن الدولة العباسية انما سقطت لتخليها عن سياسة الفتح والتوسع هو ادعاء لاتسند له الرؤية الموسع للتاريخ الإسلامى ، فالدولة العباسية مثلها فى ذلك مثل الدولة الأموية دالت لأنها انقسمت على نفسها وهان أمرها على ابنائها فهانت على الدول والقوى الأخرى ، فقدرتها على أن تفرض قناعتها بضرورة قيام نظام دولى متحضر يقوم على التعاون التجارى السلمى جعلتها تتسيد هذا النظام فى عصرها الذهبى الأول ، وفقدانها القدرة على الاحتفاظ بقوتها نتيجة ظروفها الداخلية فى عصرها الثانى والثالث جعلها تهون فى عالم يسوده منطق القوة بالأساس ثم تزول لتثبت مرة أخرى درس التاريخ للمسلمين وهو أن دولتهم تهدمها عداءات ابنائها بعضهم لبعض قبل أن تهزمهم عداءات مناوئتهم فى النظام الدولى .

وسوف تنقسم دراستنا للدولة العباسية إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : العصر العباسي الأول ١٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٧٥٠ - ٨٦١ م .

استمرار تسيد المركز في مواجهة الأطراف غير الإسلامية مع بداية
اللامركزية والتعددية في دار الإسلام .

الفصل الثاني : العصر العباسي الثاني ٢٤٧ - ٤٤٧ هـ / ٨٦١ - ١٠٥٥ م .

انتهاء دور الدولة العباسية في التعامل الدولي كقوة مركزية وصعود
الدولة الفاطمية للقيام بهذا الدور ، مع تكريس نمط اللامركزية والتعددية
في دار الإسلام .

الفصل الثالث : العصر العباسي الثالث ٤٤٧ - ٦٥٠ هـ / ١٠٥٥ - ١٢٥٦ م .

من الهجمة الصليبية إلى الهجمة المغولية - سقوط الدولة العباسية .

الفصل الأول

العصر العباسي الأول ١٣٢ - ٢٤٧هـ / ٧٥٠ - ٨٦١م
استمرار تسيد المركز في مواجهة الأطراف غير الإسلامية مع
بداية اللامركزية والتعددية في دار الإسلام

الفصل الأول

العصر العباسي الأول ١٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٧٥٠ - ٨٦١ م
استمرار تسيد المركز في مواجهة الأطراف غير الإسلامية مع
بداية اللامركزية والتعددية في دار الإسلام

مقدمة

رغم أن التخلي عن سياسة التوسع والضم كان هو السمة العامة المميزة للتعامل الدولي للدولة العباسية منذ قيامها عام ١٣٢ - ٧٥٠ وحتى سقوطها في بغداد عام ٦٥٦ / ١٢٥٨ ، إلا أن العصر العباسي الأول تميز من بين العصور العباسية المتأخرة بتطبيق الدولة لهذه السياسة من منطلق القوة وليس من منطلق الضعف ، فالدولة العباسية في العصر العباسي الأول كانت دولة قوية بكل المقاييس فبذور الضعف والتفكك التي برزت كلها خلال العصر العباسي الأول لم تثمر إلا في العصور العباسية المتأخرة .

وعندما تبني المنصور التوجه نحو سياسة التعايش السلمي ، عندما استمر خلفاؤه على نهجه ، وعندما ترسخ توجهه مع الرشيد فإن هذا الخيار كانت تمليه ارادة حرة لاتستجيب لواقع البنية الدولية وحسب ولكنها كانت حساسة أيضا للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية داخل المجتمع الاسلامي وعندما تتبنى الدولة سياسة تعايش سلمي مع جيرانها من منطلق القوة فانها تجني كل الثمرات الايجابية لمناخ السلم والتعاون مع الاحتفاظ بحقوقها في استخدام قدرتها على الردع ازاء أى انتهاك لهذه الايجابيات من قبل أى من أعضاء النظام الدولي أو ازاء أى تعد على وجودها أو على أمنها أو أمن مواطنيها ، هذا كان حال الدولة العباسية في العصر العباسي الأول .

ولكن اذا كانت الدولة العباسية قد تخلت عن سياسة الفتح والهجوم ، فانها لم تستطع أن تُمضي هذه السياسة الخارجية إلا في المشرق الإسلامي حيث شهدت هذه الدولة الفتية منذ سني ولادتها الاولى ظاهرة انفصال واستقلال ولاياتها في المغرب الاسلامي ، هذه الدويلات الإسلامية - على عكس الدولة العباسية - اتبعت سياسة فتح وتوسع نشطة بإزاء الأطراف الدولية غير الإسلامية الموجودة في هذا الجزء من العالم ، الدولة الرومانية المقدسة وامراء الاقطاع والمدن الساحلية الأوروبية .

وهكذا بعد قرون عدة كان فيها النظام الدولي نظاما ثنائى الأقطاب تتنازعه أولا الامبراطوريتان الفارسية والبيزنطية ثم الإسلامية والبيزنطية فانه مع مولد الدولة

العباسية وظهور الحركات الانفصالية والاستقلالية وبروز أوروبا المشتتة التي كان يصعب اعتبارها كيانا سياسيا ، فان النظام الدولي تحول ربما لأول مرة إلى نظام متعدد الاقطاب ، يسوده أكثر من قطب اسلامي وأكثر من قطب مسيحي . ولقد ولد هذا انماطا من التحالفات والتوازنات بين هذه القوى جديدة بالدراسة للآثار التي تركتها على شكل النظام الدولي، كما أنه لم يعد من الممكن الحديث عن سياسة تعامل دولي "للدولة الإسلامية" فبعد انقسام تلك الدولة إلى مجموعة من الدول ، لم تعد دولة الخلافة العباسية هي وحدها الدولة الإسلامية ، فالمركزية في الدولة الأموية والتي كانت تعنى ان المركز يرسم السياسة لتتبعها جميع الولايات لأن سياسة الدولة انتهت إلى حالة من اللامركزية السياسية مع الدولة العباسية بحيث أصبح من الممكن الحديث عن أكثر من توجه إسلامي للتعامل الخارجي بقدر ما كان يمكن الحديث عن أكثر من توجه مسيحي للتعامل الخارجي بعد انقسام الامبراطورية المسيحية إلى الامبراطورية الرومانية الغربية والامبراطورية الرومانية الشرقية ، ومن ثم تناولنا لسياسات التعامل الخارجي للدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول يتم في مبحثين :

المبحث الأول : تسيد المشرق الاسلامي في ظل استراتيجية جديدة للتعامل الدولي .

المبحث الثاني : سياسات الفتح وأنماط التحالفات في ظل اللامركزية والتعددية في المغرب الإسلامي .

المبحث الأول

تسيد المشرق الإسلامي في ظل استراتيجية جديدة للتعامل الدولي

مقدمة :

رغم أن المشرق الإسلامي سيشهد طوال العصر العباسي الأول تسيدا للطرف الإسلامي في النظام الدولي ، إلا أن هذا الموقع المتسيد خبر ثلاث مراحل متميزة ، ساهم في تشكيلها جميعا عوامل داخلية كان لها أكبر الأثر في تحديد شكل التوجه الخارجي . أما المراحل الثلاث فهي مرحلة توطيد أركان الدولة العباسية الناهضة ، وهي المرحلة التي ساهمت في وضع حجر الأساس للمرحلة التالية والتي كان سمتها الرئيسية النشاط العسكري غير المسبوق على الجبهة العباسية / البيزنطية والتي استمرت منذ بداية عهد الخليفة المهدي وحتى نهاية عهد الخليفة المعتصم وتعد بحق

مرحلة المجد العسكري العباسي ، ثم كانت المرحلة الثالثة التي شهدت هدوءاً ملحوظاً وشبه توقف للنشاط الحربي على الجبهة البيزنطية . أما العوامل الداخلية التي خبرتها الدولة العباسية في المشرق الإسلامي في هذه المرحلة فآثرت على تعاملها الخارجي فتراوحت بين الصراع على السلطة الخلافية ، والفتن الداخلية وبدايات تمرد ومحاولات استقلال الولايات النائية وأيضاً التكوين الجديد لجيش الدولة الجديدة الوليدة . ولقد آثرت هذه العوامل بالسلب دائماً على القدرة على التعامل الخارجي الفعال للدولة العباسية ، وإن كان الأثر السلبي قد تزايد في المرحلتين الأولى والأخيرة مقارنة بالمرحلة الثانية، حيث هي مرحلة جنى الثمار والتي تكون فتوة الدولة وقوتها عاملاً محيداً إلى حد كبير -للآثار السلبية للعوامل الداخلية المناوئة .

المطلب الأول : التمهيد للمواجهة الندية مع الدولة البيزنطية بالانشغال ببناء الدولة العباسية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً :

كان التخلي عن قاعدة الهجوم خير وسيلة للدفاع والسعي الحثيث نحو تثبيت الحدود هو السمة الأساسية التي ميزت سياسات التعامل الخارجي للعباسيين عن سياسات سابقهم من الأمويين . ولكن معالم هذا التغير الاستراتيجي الجذري لم تتضح بصورة حاسمة في عهد الخليفة العباسي الأول السفاح ١٣٢ - ١٣٦ هـ فترة خلافة السفاح تعتبر امتداداً للفترة الأخيرة من الدولة الأموية التي شهدت ارهاصات تحول في السياسة العسكرية الإسلامية من الهجوم إلى الدفاع تراجعاً أمام نزعة هجومية توسعية للروم البيزنطيين في كل من البر والبحر . ولقد رأينا كيف أن سياسة التراجع الإسلامي تلك كانت نتاجاً بالأساس لبيئة داخلية متناحرة ، ولقد استمر الوضع على ما هو عليه طوال فترة السفاح حيث انشغل بتوطيد أركان الدولة ضد المناهضين لها عن الغزو الخارجي ، فاستمرت من ثم سياسة الدفاع ضد عدو خارجي شرس ونشط (١٤) . ولقد انتهز الروم الفرصة التي أتاحها ظروف هذه الفترة من تاريخ الدولة العباسية الوليدة ، كما حدث وقت تمكين الأمويين لأنفسهم فاغاروا على الحدود ودمروا خط حصون الفرات وهددوا الثغور الإسلامية تهديداً خطيراً ودخلوا عام ٧٥١/١٣٣ قاليقلا والحدث وأوقعوا بالمسلمين هناك ثم استولوا على المصيصة وتركوا الحصون خراب . ولقد استمر هذا الوضع ست سنوات حتى استطاع العباسيون التمكن من الجبهة الداخلية وبدأوا ينظرون إلى الخارج (١٥) ويبدو مدى ادراك الروم

١٤ - عثمان ، الحدود الإسلامية ، م س ذ ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

لادبة حسني صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ١٨ .

١٥ - لادبة حسني صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ١٨ نقلاً عن ابن الأثير - الكامل في التاريخ - ج ٤ ص ٣٤١ والبلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٢ .

البيزنطيين للأثر السلبي الواضح للبيئة الداخلية المضطربة على التعامل الخارجى الفعال من الخطاب الذى أرسله امبراطور الروم لأهل ملطية يدعوهم للاستسلام له حيث نبه فى معرض الفت فى عضدهم - إلى ضرورة عدم اعتمادهم تماما على وصول مدد اليهم من الخليفة ذلك أنه منشغل تماما بأمور دولته الداخلية (١٦) .

ولانكاد نسمع طوال فترة السفاح عن أى نشاط خارجى عسكرى اللهم الا غزوة على بلاد الترك عام ١٣٣ غنم فيها المسلمون ثم ارتدوا إلى قواعدهم ، إلا أنها لم تكن للفتح بل للغنيمة ، ونستطيع أن نعزى الغزو على هذه الجبهة رغم اضطراب أمور الدولة الداخلية فى هذه الفترة إلى الاستقرار النسبى الذى كانت تتمتع به خراسان مركز الدعوة العباسية والتي كانت بمثابة القاعدة التى تخرج منها حملات الجبهة الشرقية ، أما الغزوة الأخرى التى أرسلها فى عهده فكانت عام ١٣٦ ، وكان الغرض منها تأمين الحدود مع الدولة البيزنطية بالاساس ولكنها لم تكلل بالنجاح .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه بداية من عصر السفاح نستطيع أن نرصد تغييرا فى التكوين العرقى للجيش حيث يلاحظ فى عهده تقلص واضح فى الاعتماد على الجند الشاميين والعراقيين على حد سواء مع اعلاء واضح للجند الخراسانية (١٧) . وأهمية هذه الملاحظة ترجع إلى أنها توضح كيف تقدم العنصر الفارسى ليكون قوام الجيش العباسى وهذا سيولد صراعات خطيرة بين الفرس والعرب فى الجيش سيكون لها آثار وخيمة على تماسك القوة العسكرية للدولة ، والأخطر من ذلك أنه سيضطر الخلفاء العباسيين إلى الاستعانة بعنصر ثالث يلعب دور المحاييد وهم الأتراك والدين سيكون مقدمهم وبالا على مصير الدولة العباسية كما سنرى .

ورغم انحسار الفتح فى زمن السفاح ، إلا أن الباحث لا يستطيع أن يرصد من التحركات أو السياسات ما ينم عن عزم الدولة العباسية تبنى استراتيجية للتعامل الدولى مخالفة لما كان سائدا ، أما الخطوات العملية الحقيقية تجاه هذا التحول ، الذى أصبح معه القتال أداة دفاع تستخدم فى حالات الضرورة وليس أداة هجوم فنحن نلاحظها مع الخليفة العباسى المنصور (١٨) ومخطئ من يظن ان تحول العباسيين عن استراتيجية الهجوم انما كان يعنى توقف الحروب بين الدولة العباسية وأطراف النظام الدولى الأخرى ، فالمتتبع لأحداث العصر العباسى الأول يلحظ اشتعال الحرب على أكثر من جبهة فى المشرق الاسلامى ، ولكن هذا الصدام العسكرى لم يكن يهدف إلى

١٦ - نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات الدولية ، م س ذ ، ص ١٨٣ .

١٧ - Hodgson , op.cit , vol .1 , p 284 .

١٨ - نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات الدولية ، م س ذ ، ص ٧ .

هشام ، الحدود الإسلامية ، م س ذ ، ج ١ ، ص ٨١ .

فتح أراض جديدة للدولة كما كان الحال فى عهد الفتوحات الكبرى فى زمن الراشدين ثم الأمويين ، فالغاية من القتال فى العصر العباسى الأول كانت اما الدفاع عن الحدود إذا حدث تعد عليها أو الانتقام أو التأديب لعدوان يقع على الأراضى الإسلامية أو الحصول على الغنائم ثم العودة إلى قواعد الانطلاق ، وحتى فى حالات الهجوم القليلة كان الأمر لا يتعدى مجرد كونه حملة وقائية تهدف إلى تأكيد قوة المسلمين وقذف هيبته فى قلوب أطراف النظام الدولى الآخرين (١٩) .

ولقد تطلبت الحروب على جبهات متعددة جيشا كبيرا العدد والعدة . ولقد تنبه خلفاء العصر العباسى الأول لهذه الحقيقة فلم يألوا جهدا فى بناء الجيوش الجرارة التى تمكنهم من حماية حدود الدولة الإسلامية وفرض هيمنتها فى النظام الدولى . فنجد جيش الرشيد فى خلافة أبيه المهدي قد وصل عدده إلى ستة وتسعين ألفا ، ولقد كان هذا الجيش القوى عنصرا فى تأكيد السياسة الخارجية الجديدة للدولة العباسية حيث مكن الدولة من أن تنحى منحى السلم فى علاقاتها الدولية وهى مدعومة بقوة مادية ضخمة تتيح لها القدرة على أن تظل الدولة القطب فى النظام الدولى .

ولقد كان الفاعل الدولى الرئيسى الذى تتعامل معه الدولة العباسية فى المشرق الإسلامى هو الدولة البيزنطية . ويجمع معظم الباحثين على أن اسقاط الدولة البيزنطية وفتح حاضرتها القسطنطينية لم يعد أحد الأهداف الاستراتيجية العليا للدولة العباسية خلافا لما كان عليه الحال مع الدولة الأموية ، فغزوات العباسيين على الجبهة البيزنطية كانت إما وقائية أو دفاعية وإما تأديبية ترمى إلى اظهار أن اليد الطولى فى النظام الدولى مازالت لهم (٢٠) . ولعل أقوى دليل يسوقونه لاثبات مدى صحة ما يصلون إليه هو وصول الجيوش الإسلامية غير مرة حتى مشارف القسطنطينية أثناء العصر العباسى الأول وبدلا من أن تتقدم فى محاولة لاسقاطها ترتد وتترك الأراضى مكتفية بفرض الجزية وأخذ الغنائم والاسرى كما سنرى بعد قليل .

ولقد كان على المنصور ١٣٦ - ١٥٨ / ٧٥٤ - ٧٧٥ المؤسس الحقيقى للدولة العباسية أن يواجه المشكلة البيزنطية الموروثة دون حل من أيام الأمويين بصورة حاسمة وأن يحدد بصورة جادة طبيعة المسار الذى ستتخذه علاقات الدولة العباسية معها خاصة وأن البيزنطيين كانوا قد عاودوا الهجوم على ثغر فلسطين عام ١٢٨ - ٧٥٥ فاستولوا عليه وحطموا حصونه مستغلين انشغال الدولة العباسية بتمرد عبدالله

١٩ - نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات الدولية ، م س ذ ، ص ٧ - ٨ ، ١٧ .

فاروق عمر ، العباسيون الأوائل (بغداد : دار الارشاد ١٩٧٠) ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

٢٠ - نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ١٧ .

حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، العصر العباسى الأول (القاهرة مكتبة النهضة العربية - ١٩٦٤ - ط ٧)

ج ٢ - ص ٢٤٠ .

بن على عم السفاح والذي كان قد خرج على رأس جيش لمحاربة الروم بأمر من ابن أخيه الخليفة السفاح - كما ذكرنا - فلما علم بوفاته وهو في طريقه لملاقاة الروم وأن البيعة انعقدت للمنصور ترك المواجهة وعاد ليطالب لنفسه بالخلافة (٢١) . وكانت هذه الواقعة مقدمة هامة لغيرها من الوقائع المماثلة التي سنراها تحدث في العصر العباسي الأول لتظهر كيف أن التناحر على المنصب الخلافي بين أبناء البيت الحاكم يضحى أحيانا أهم من مصلحة الأمة عامة والمتمثلة في المواجهة الجادة الرادعة لعدو معتدى .

ورغم أن المسلمين استطاعوا أن يستعيدوا ملطية ويعيدوا بناء قلاعها في العام التالي ١٢٩هـ - ٧٥٦م إلا أن هذه المواجهة العدائية مع البيزنطيين والتي حدثت مبكرا في عهد المنصور وعقد أول فرصة سنحت لهم فاعتنموها دفعت المنصور إلى التفكير الجدى في ضرورة رسم سياسة فعالة في مواجهة البيزنطيين خاصة في مناطق الحدود التي ما فتئوا يهاجمونها في أوقات حرجة جدا في تاريخ الدولة العباسية . ولقد تركزت خطة المنصور في العمل على تحصين الثغور القائمة وإعادة بناء وترميم ما بها من حصون وقلاع ، وكان من أهم الثغور التي دعمت ثغور ملطية والمصيصة وهي من أهم الثغور الجزرية التي كانت مهمتها طرسوس واطنه ، ثم انه اعاد اعمار المصيصة عام ١٤١ وكذلك قاليقلا ، ثم عمل على شحن مناطق الثغور بالجند والمرابطين واستخدم في ذلك كل وسائل الجذب والاغراء للجند والمدنيين على حد سواء ومنها زيادة العطاء والمعونات واقطاع اراضي الثغور لمن يربط بها ويقتننها (٢٢) . ولقد اثبتت سياسته تلك التي تستهدف تحصين الثغور وشحنها بالسلاح والمقاتلة والمرابطين نجاحا واضحا حيث وفرت حماية جيدة لحدود الدولة الإسلامية أثناء انشغاله حتى عام ١٤٦ / ٧٦٣ باخماد الفتن الداخلية التي أثارها ولدا عبدالله بن الحسين بن على في الحجاز والبصرة وكذا القلاقل الداخلية في خراسان ونيسابور والمرسى من قبل سكانها المحليين ، وتجدر الإشارة هنا إلى أنه طوال هذه الفترة غير المستقرة من حكم المنصور والتي استمرت حوالي سبع سنوات منذ بداية حكمه لم تشر مصادرها لاي صائفه وجهها إلى أرض الروم ، وفي هذا تأكيد مرة أخرى لمدى تأثير البيئة الداخلية على التعامل الخارجى .

٢١ - نادية حسنى صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ١٨ .

رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

Shachan , op.cit , vol . 2 , p 12 .

٢٢ - نادية حسنى صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ١٨ - ١٩ .

رمضان ، الصراع بين العرب والمسلمين ، م س ذ ، ص ١٧٢ .

حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ .

- Shachan , op.cit , vol . 2 , p .12 - 13 .

ولكن إذا كانت سياسة المنصور الرامية إلى تحصين الحدود قد نجحت مع الدولة البيزنطية بوصفها دولة تستخدم الجيوش النظامية فى مواجهة خصومها ، فإن هذه السياسة لم تتجفع فى مواجهة القبائل التى تسكن مناطق الحدود وتنتهز أى فرصة لاثارة القلاقل بما يحقق مصالحها ، ولقد رأينا ذلك أيام الدولة الأموية وسيظهر أيضا مع الدولة العباسية حيث ستجد قبائل الخزر حليفة الروم البيزنطيين منذ أيام الدولة الأموية تشغل الجبهة الإسلامية الشمالية عند كل فرصة مما وجه نظر المنصور إلى ضرورة تحصين ثغور الدولة الإسلامية على هذه الجبهة أيضا (٢٣) .

ولجابهة هذه المتطلبات الدفاعية المتنامية على الحدود كان لابد للمنصور أن يبحث عن موارد بشرية جديدة لدعم الجيش العباسى . فالخرسانية لم يكن من الممكن أن يقوموا وحدهم بإنجاز كل هذه المهام على كل الجبهات ، وفقدان الثقة فى الجند الشاميين والعراقيين كان قد تنامى بعد مؤازرتهم لعبدالله بن على فى منازعته المنصور على الخلافة ، ولذا كان توجه المنصور نحو تجنيد الجنود من الأقاليم الشرقية فيما وراء النهر ، على الأقل فى المهام العسكرية المحدودة مع استمرار تأكيد الاعتماد على الخراسانية (لإنجاز) المهام الكبرى (٢٤) .

المطلب الثانى : تصعيد الدولة العباسية للمواجهات العسكرية على الجبهة البيزنطية لحفظ هيبتها وتأكيد تسيدها على النظام الدولى :

وبتولى المهدي الخلافة بعد وفاة أبيه المنصور ١٥٨ - ٧٨٥/١٦٩ بدأت مرحلة من أنشط مراحل الصدام العسكرى بين الدولة البيزنطية والدولة العباسية ، فكما بذل عبدالملك بن مروان معظم سنى خلافته فى تحقيق الاستقرار الداخلى وبناء الدولة سياسيا واقتصاديا وإداريا فانشغل بذلك عن الغزو فى الخارج ولكنه مهد بما قام به من الداخل لمرحلة نشاط خارجى واسع فى عهد ابنه الوليد. فإن جهاد المنصور كان من نفس طبيعة جهاد عبدالملك بن مروان ، حيث ترك المنصور بيئة داخلية مستقرة وخزانة مليئة وولياً للعهد رباه تربية عسكرية وولاه قيادة الجيش منذ صباه . فلما جاء المهدي إلى الخلافة بدأ سياسة مواجهة عسكرية نشطة على الجبهة البيزنطية ، فخلال عهد المنصور الذى كانت تنقطع فيه الصوائف لسنوات متتالية ، فإن الفصول الخاصة بعهد المهدي فى كتب التاريخ الأولية مليئة بأخبار غزواته وصوائفه وشواتيه والتى

- Shachan , op.cit , vol . 2 , p 15 .

- ٢٣

- Shachan , op.cit , vol . 2 , p 13 - 15 .

- ٢٤

حسن احمد محمود ، أحمد ابراهيم الشريف ، العالم الاسلامى فى العصر العباسى (القاهرة - دار الفكر العربى ، ط ٥ - ١٩٨٠) ص ١٥٦ .

كانت كثيرا ما يقودها بنفسه أو يُؤمّر عليها ابنه وولى عهده هارون الرشيد (٢٥) ليحيى بصورة من الصور التقليد الاموى الذى يجعل من الخليفة القائد الأعلى للجيش ، وهو التقليد الذى سيختفى فى عصور الضعف العباسى حيث سينفصل الجيش عن الخليفة ويصبح ولاؤه الأول والآخر لأميره وقائده العسكرى المباشر .

ورغم هذا التصعيد الخطير لأمر المواجهة على الجبهة البيزنطية زمن المهدي فان المراجعة الدقيقة لتفاصيل مجريات الأحداث التى كانت تقود إلى هذه المواجهات الصدامية لتكشف بوضوح عن استمرار السياسة التى استنتها المنصور ، فالحملات فى معظمها - رغم قوتها وحسن استعدادها - كانت رد فعل لهجوم سابق من الروم البيزنطيين الذين كانوا قد اتخذوا جانب الهجوم تحت قيادة الامبراطور ليو الرابع الذى كان كثيرا ما يبادر بالهجوم على مناطق الثغور الإسلامية (٢٦) .

ثم ان الغايات المستهدفة من هذه الغارات لم تتغير أيضا فحفظ هيبة الدولة الإسلامية وحدودها والقاء الخوف منها فى قلوب الأطراف الدولية الأخرى كان هدفا واضحا لهذه الحملات . يتضح هذا من الاهتمام بأن تكون الحملة ضخمة العدد هائلة العدة ومن الحرص على اتباعها سياسات تخريب وتحريق فى أرض الروم حتى أنهم كانوا ليصورون المهدي فى كنائسهم ويطلقون عليه "القتل" (٢٧) . والواقع أن هذه الحملات قد حققت نجاحا فيما يتعلق بتلك الغاية حيث امتد أثر هذه الحملات الكبرى حتى إلى الجبهة الشرقية ، فانتصارات المهدي وحملاته الضخمة وجيوشه الجرارة القت بالرهبة فى قلوب ملوك الأقاليم الواقعة على الجبهة الشرقية للدولة العباسية فلما أرسل اليهم ليدخلوا فى طاعته أجابه معظمهم دون قتال ومنهم ملوك كابول وطبرستان والسند وفرغانة وسجستان والتبت والصين والهند (٢٨) .

ورغم انتصار المسلمين فى معظم حملاتهم على الروم فترة المهدي الا أنهم لم يحاولوا أكثر من مجرد التأديب والترهيب وإثبات التسيد ولكن دون ضم أو فتح . فمثلا فى حملة ١٦٢ هـ والتى بلغ تعداد الجنود بها ثلاثين الفا وتوغلت فى أرض الروم فإنها لم تفتح حصنا واحدا واكتفت بأن خربت وارهبت ثم عادت ، ثم إن المهدي قد واجه المشكلة البيزنطية بنفس السياسة التى واجهها بها والده المنصور وهى تحصين الثغور والاستزادة منها وتجديدها واستجلاب الجنود لها وتشجيعهم على سكناها والاستقرار بها ، وتحصين الثغور لم يكن له عنده إلا معنى واحداً وهو الحرص على

٢٥ - راجع على سبيل المثال ، أحداث حملة ١٦٥ هـ فى :

رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا - م س ذ - ص ١٧٢ .

٢٦ - راجع محمود والشريف العالم الاسلامى ، م س ذ ، ص ١٥٨ .

٢٧ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا - م س ذ - ص ١٧٢ - ١٧٣ .

٢٨ - حسن ، تاريخ الإسلام - م س ذ - ج ٢ - ص ٢٤٥ .

تثبيت الحدود القائمة بينه وبين الدولة البيزنطية عن طريق حمايتها بطريقة تجعلها تمتنع على الدولة البيزنطية وبذلك تظل الدولة العباسية متماسكة أمنياً داخلها ، ولم يكن الغرض من تلك الحملات المتتالية إسقاط القسطنطينية أو إلغاء الدولة البيزنطية من على خريطة النظام الدولي وليس أدل على ذلك من أن المهدي لم يحاول أبدا استثمار انتصاراته المتكررة ليدفع بها خطوة أبعد من مجرد جلب الغنائم والأسرى وأثبتت قوة الدولة ، فالرشيد ولي عهد المهدي خرج على رأس حملة عام ١٦٥ للانتقام من الروم لنقضهم عهدهم للمسلمين الذي كانوا قد أبرموه أثر حملة ١٦٣ هـ . ولقد وصل الرشيد في مسيره إلى سواحل البوسفور وعسكر تحت أسوار القسطنطينية في وقت بلغت فيه الدولة البيزنطية الدرك الأسفل من الفوضى والاضطراب الداخلي بعد موت ليو الرابع ولي ابنه القاصر بولاية أمه الملكة ايرينا . ولاتورد المصادر أن الرشيد حاول مجرد المحاولة استغلال هذه الفرصة في محاولة للهجوم على القسطنطينية ، بل نجده على العكس من ذلك يقبل بعقد هدنة مع الملكة ايرينا بناء على طلبها - مدتها ثلاث سنوات مقابل دفع بيزنطة مالا للمسلمين مع تسليمهم أسراهم^(٢٩). ونود أن نشير هنا إلى أنه من البنود المثيرة للانتباه في هذه المعاهدة البند الذي ينص على أن يتعهد البيزنطيون بإقامة الأسواق للمسلمين على طول طريق عودتهم إلى بلادهم ايشثروا أو يبيعوا ، وفي هذا النص دليل على أن الأسلاب والغنائم لم تعد هي وحدها الهدف الأقوى للحملات العباسية الكبرى على الدولة البيزنطية بل ظهر واضحاً اهتمام العباسيين بأقامة علاقات تجارية وأن تحل المكاسب التجارية محل أسلاب الحروب^(٢٠).

ثم كان من النتائج الواضحة لحملات المهدي المستمرة على الجبهة البيزنطية إظهار الطابع الديني لحكمه حيث كان الصدام مع البيزنطيين ينزل في نفوس العامة من المسلمين منزلة الجهاد^(٣١). والواقع أن التزام المهدي الديني كان واضحاً أيضاً في سياساته الداخلية ذلك أنه من المعروف أنه رغب في نشر العدل فأقام ديوان المظالم وكان يجلس فيه بنفسه يستمع إلى شكاوى شعبه ، ثم إنه عرف عنه أيضاً مطاردته بلا هوادة للزنادقة^(٣٢). فكان حروبه على الجبهة البيزنطية هي الوجه الخارجي المقابل لالتزامه الديني في الداخل . ولقد أضحت هذا النشاط الحربي المتنامي للدولة العباسية على الجبهة البيزنطية والذي بدأه المهدي هو السمة المميزة لعهد من خلفه من بني العباس وحتى الخليفة التاسع الواثق عندما ستبدأ بوادر تحول ملحوظ نحو تهدئة التحركات العسكرية على الحدود العباسية البيزنطية ، ورغم أن الحرب المستمرة على

٢٩ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ١٧٢ .

٢٠ - Shachan , op.cit , vol . 2 , p 25 .

٣١ - نادية حسنى صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ٢٠ .

٣٢ - Shachan , op.cit , vol . 2 .

الجبهة البيزنطية كانت هي القاعدة الهامة لهذه الفترة ، الا أن الأمر لا يخلو من وجود استثناءات . فعصر الهادي على سبيل المثال - وهو الخليفة العباسي الرابع - لانجد فيه ذكر لأي نشاط عسكري ، وإذا كان هذا يرجع في جزء منه إلى قصر مدة حكمه التي لم تتعد العام (١٦٩ - ١٧٠) ، (٧٨٥ - ٧٨٦) الا ان السبب الأساسي في هذا التراجع يرجع إلى انشغاله خلال هذا العام بمحاولة اخماد تمردين في الداخل كان لكل منهما نتائج على العلاقات الإسلامية غير الإسلامية وإن ظهرت متأخرة .

أما التمرد الأول فكان حركة شيعية اتخذت من المدنية مقرا لها لمناوئة الخليفة العباسي منصبه ، ورغم أن هذه الحركة لم تشكل خطرا داهما وقت حدوثها حيث تمكن المركز من أن يقضى عليها سريعا ، الا أن أهميتها تكمن في نتائجها المستقبلية حيث أن ابن عم قائد هذه الحركة وأحد أعوانه نجح في أن يفر من المدينة ووصل إلى شمال أفريقيا ، وهناك نجح ابنه في تأسيس الدولة الإدريسية عام (١٧٢ - ٧٨٨) (٢٣) كدولة مستقلة ومناوئة للدولة العباسية ، وكفاعل دولي مستقل له دوره في النظام الدولي وله سياسته في التعامل مع الأطراف الدولية غير الإسلامية ، كما سنرى في المبحث الثاني من هذا الفصل.

أما التمرد الثاني فحدث في أرمينيا وقاده سكانها المحليون بالتحالف مع المسلمين الذين كانوا قد استقروا في هذه المنطقة في عهود سابقة وفقا للسياسة الأموية في تأمين الثغور عن طريق تشجيع المسلمين لسكناها ولقد جاء هذا التمرد كرد فعل للتوافد المستمر لمسلمين جدد يريدون الاستقرار في الثغور، وربما كان للمزايا التي يجزلها العباسيون لمن يريدون استعدادا للاستقرار في هذه المناطق ، ولقد شجع هذا التمرد قبائل الخزر على استئناف هجماتها على الدولة العباسية .

ومع ادراك الهادي لمدي خطر هذا الوضع الداخلي المتفجر في مناطق الثغور عمل على اقناع الوافدين الجدد بالتحول إلى مناطق ثغرية أقل كثافة ، وفي هذا كله إثبات لاهتمام العباسيين باستقرار منطقة الثغور بوصفها نهايات وحدود الدولة داخلها (٢٤) .

ومع تولى هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣) ، (٧٨٦ - ٨٠٩) استعمر الصدام العسكري مع البيزنطيين ، ولم ينحصر الصدام في عصره ، كما كان في عصر أسلافه ، على ممتلكات الروم البرية بل تعداها إلى ممتلكاتهم في البحر في بادرة نادرة لاهتمام العباسيين بالبحر المتوسط بعد أن كان أحد المحاور الرئيسية للصراع مع البيزنطيين في عهد الدولة الأموية . فنجد الرشيد يأمر بغزو قبرص عام ١٩٠ ويأخذ عددا هائلا من الأسرى من بينهم بعض رجال الدين (٢٥) ورغم استحواذ الجبهة

- Ibid , p .

- Ibid , vol . 2 , p 190 .

- ٢٣

- ٢٤

٢٥ - حسن، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج ٢ - ص ٢٤٧ .

البيزنطية على قدر هائل من اهتمام الرشيد إلا أنه لم يصدر عنه ما ينم عن أحيائه هدف إسقاط الدولة البيزنطية بل تؤكد مجريات الأحداث أنه كان يفضل عدم استخدام القتال كأداة من أدوات التعامل مع الدولة البيزنطية إلا في حالات الضرورة القصوى .

فمع تولى الرشيد الخلافة كانت المعاهدة التي أبرمها مع الامبراطورة إيرينا بوصفه وليا للعهد قد اشرفت على الانتهاء ، ولادراكه لمدى الخطر البيزنطى ، اتخذ مجموعة من الخطوات الدفاعية الهامة كان أولها وضع الجيش تحت إمرته المباشر ليصبح هو قائده الأعلى ليضمن ولاء الجيش له أولا وأخيرا ، ثم إنه نظر إلى إقليم الثغور وقرر دعم حصونه وتقوية قلاعها فى إشارة إلى اهتمام أكيد بتثبيت الحدود وتوفير الحماية التامة للدولة داخلها ، خاصة أنه قد لاحظ أن الثغور القائمة على الجبهة الشمالية قد فقدت طبيعتها العسكرية تماما وتحولت إلى شيء أقرب إلى المناطق التجارية الحرة بين المسلمين والبيزنطيين . فبالإضافة إلى المخاطر العسكرية الواضحة لهذا الوضع فإنه كان يكبد خزانة الدولة عبئا اقتصاديا واضحا ، فالدولة تدعم هذه الثغور دون أن تجنى من ورائها شيئا ، فالجنود لا يؤدون الضريبة المقررة على الأراضى المقطعة لهم ، ثم لم يعودوا مؤهلين للقيام بوظيفتهم العسكرية التى يحصلون على كل هذه الامتيازات كمقابل لها حيث أنهم تحولوا إلى تجار وزراع .

وفى مواجهة هذا الموقف الخطير قرر الرشيد التخلي عن خط الثغور الشمالى وان يقيم بدلا منه خط دفاع جديد عن الدولة الإسلامية يمتد بطول السهول الجنوبية لسلسلة جبال طوروس ما بين طرسوس وحلب ولقد أطلق على هذا الخط الدفاعى الجديد اسم إقليم العواصم بدلا من الثغور وجعل قاعدته مدينة منبج^(٢٦) . ولقد قرر منع استيطان الجند للحاميات فى إقليم العواصم ليمنع تحولهم إلى زراع وتجاوز مرة أخرى وأحل بدلا منه نظام الخدمة الدورية ، ثم أنه لم يزد من عطايا جنود هذا الخط الدفاعى الجديد حتى لا يصبح المال هو مصدر الجذب باستثناء واحد هو طرسوس لخطورة موقعها ولكن حتى فى حالة طرسوس فإنه لم يقطع الجنود بها أرضا زراعية^(٢٧) .

أما الخطورة التالية والهامة لاقامة خط الدفاع هذا كانت هى أن يجد له العدد الكافى من الجنود . ولقد كان عامل الوقت فى صالحه حيث اقتنع الجنود الذين كانوا موجودين فى مناطق الثغور القديمة بعدم جدوى تمسكهم بالاقامة هناك فتحولوا إلى خط الدفاع الجديد ، وهكذا بعد حوالى أربع سنوات وبحلول عام ٧٩٠/١٧٤ كان قد حقق استقرارا لنظامه الدفاعى الجديد مكنه من استئناف الصوائف على الجبهة البيزنطية منطلقة هذه المرة من منبج قاعدته الجديدة^(٢٨) . ثم إنه قام أيضا بنقل مركز

٢٦ - نادية حسنى منقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ٣ - م س ٢١ .

- Shachan , op.cit , vol . 2 , p 28 - 29 .

- Shachan , op.cit , vol . 2 , p 29 .

- Ibid , vol . 2 , p 30 .

- ٢٧

- ٢٨

اقامته إلى الرقة عام ٧٩٦/١٨٠ ليكون في موضع وسط بين الجبهة البيزنطية من جانب واقاليم ارمينية واذرييجان من جانب آخر وهي أكثر الأقاليم اضطرابا في دولته^(٣٩)، ثم أنه حرص أيضا على ادخال دم جديد إلى جيشه بعد أن لاحظ استسلام الخراسانية إلى حياة الدعة والراحة وفقدتهم من ثم الكثير من مقوماتهم كجنود ناجحين . ولقد استقدم عناصر جديدة من اشرسائه اسماهم بالقوات العباسية وجعل جنود هذه القوات موال له شخصيا، وسوف نلاحظ أن مقدم هذا العنصر الجديد إلى الجيش سوف يثير حفيظة الجند الخراسانية وسيكون أحد اسباب انفجار الحزازات في الجيش وبالتالي اثارة القلاقل في الدولة بما يؤدي إلى ضعفها^(٤٠) .

ولقد أثمرت كل هذه الاستعدادات الغايات المستهدفة منها، وهذه الغايات مرة أخرى لم يكن الفتح والتوسع في الاراضى البيزنطية ولكن فقط اضعاف القوة والقدرة على الدولة العباسية حتى لا تجترى عليها الدولة البيزنطية ، فكانت الفزوات التي يرسلها الرشيد هي فقط لاجبار الروم على الاستمرار في دفع الجزية وتبادل الأسرى . وقبل هذا أو ذاك كانت استعراضا للقوة يضع الروم في جانب التحرز من اثارة غضب جارتهم القوية . ولقد نجح الرشيد في تحقيق هدفه طوال فترة الامبراطورة ايرينا التي كانت تحمل الجزية للمسلمين صاغرة ، فلما جاء الامبراطور نقفور على عرش بيزنطة خلفا لها نقض الهدنة وأرسل إلى هارون الرشيد ينذره برد أموال الجزية التي دفعت له والا فالسيف بينهما^(٤١) . وإن دلت هذه الرسالة على شيء فإنما تدل على أن الرشيد كان محقا عندما لم يستخف بالخطر البيزنطى رغم ضعف العرش اثناء حكم ايرينا ، فبذله أربع سنوات من حكمه لتدعيم موقفه العسكرى يعنى وعيا تاما بحجم المشكلة البيزنطية . ولقد أتت مجهودات الرشيد بثمارها في الوقت المناسب حيث استطاع بفضل استعداداته الجيد ان يقف لنقفور الصلف موقف الند وليجرد عليه حملة جسارة عام ١٨٧ قادها بنفسه فأخترق آسيا الصغرى فاستولى على هرقله وهي من أهم مدنها، ورغم هذا الانتصار الكبير ورغم قوة جيشه عددا وعدة ورغم اندلاع الفتن الدينية داخل بيزنطة وانشغال نقفور بها وكذا بخطر البلغار فإن الرشيد فعل ما فعله العباسيون دوما فأرتد عن هرقله بعد أن أرغم نقفور على دفع الجزية ليثبت أن أيدي المسلمين هي العليا ولكنه لم يحاول استغلال الفرصة الذهبية لا بالهجوم على

- ٣٩ - Ibid , vol .2 , pp 30 - 31 .

- ٤٠ - Ibid , vol .2 , pp 38 - 39 .

- ٤١ - راجع نص الرسالة

نادية حسنى صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ٢١ ، نقلا عن : تاريخ ابن الوردي - ج ١ ص ٣١٢ .

انظر أيضا : حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج ٢ - ص ص ٢٤٥ - ٢٤٦

القسطنطينية رغم وجود قوة بحرية تعزز حملته البرية ، ولاحتى باقتطاع جزء من الاراضى البيزنطية والاحتفاظ بهرقلة وضمها للدولة الإسلامية^(٤٢). وعندما سارع الروم بنقض الهدنة وأوقعوا بالمسلمين فى جنوب آسيا الصغرى لم يقم الرشيد إلا بمعاودة غزوهم فى حملة كبرى اخرى عام ١٩٠ دمر فيها هرقلة ثم غزاهم فى قبرص فى نفس العام وفرض الجزية اليه كل عام^(٤٣).

ولتأكيد الأثر السلبي المعوق الذى تتركه البيئة الداخلية المضطربة والقرارات السياسية الداخلية على البيئة الخارجية ومدى القدرة على التعامل معها بفعالية نسوق قرارا اتخذه الرشيد فى نهاية عصره يعتبر من صميم قرارات السياسة الداخلية للدولة العباسية لكنه ترك اثارا وخيمة على شكل التعامل الخارجى للدولة ، هذا القرار يتعلق بولاية عهده حيث قرر تقسيم الدولة إلى قسمين وأن تكون الرى هى الحد الفاصل بين هذين القسمين وجعل الأمين الذى يلى الخلافة بعده مباشرة مسيطراً على الجزء الغربى أما المأمون الذى يلى الأمين فى الخلافة فيكون مسئولاً عن الجزء الشرقى من الدولة حتى أثناء خلافة أخيه . ثم انه قرر أن يكون لكل من القسمين استقلاله المالى والادارى والسياسى والعسكرى على أن يساعد المأمون أخاه بموارد "امبراطوريته الشرقية" المالية والعسكرية إذا استدعت الضرورة ذلك ، ويغض النظر عن نوايا الرشيد عند اتخاذه هذا القرار فأن ما ترتب عليه عملاً هو انقسام الدولة العباسية إلى معسكرين : الأول له طابع فارسى يرأسه المأمون وتتكون قواته العسكرية من أبناء الأقاليم الشرقية ، والثانى له طابع عربى ويرأسه الأمين وتتكون قواته العسكرية أساساً من الخراسانية الذين شعروا بمدى الخطر الذى يتعرض له مركزهم مع ظهور قوات عسكرية جديدة ، وسرعان ما وقع الصدام بين المعسكرين بعد وفاة الرشيد وتولى الأمين فكان أن وجهت مصادر الدولة العسكرية والمالية لهذا الصدام الداخلى حيث فضل الأمين أن يحافظ على السلام على الجبهة البيزنطية والذى كان قد توصل اليه الرشيد قبل وفاته بأجبارهم على دفع الجزية والتى استمروا فى المحافظة عليها بسبب اضطراب أمورهم الداخلية ، فنجد الأمين يوجه الفائض الضخم فى الخزانة لزيادة عطايا قواته العسكرية التى كان يستخدمها ضد قوات أخيه المأمون فى فتنة داخلية توقف أثناءها التحرك العسكرى على طول الجبهة البيزنطية تماماً^(٤٤).

ومن النتائج الهامة التى ترتبت على هذه الفتنة والتى انتصر فيها المأمون والمعسكر الشرقى بقيادة القائد العسكرى عبدالله بن طاهر أن تسلل مفهوم الولايات المستقلة إلى المشرق الإسلامى القريب من مركز الخلافة بل والذى يعتبر قلب الدولة العباسية

٤٢ - نادية حسنى منقر ، السلم فى العلاقات العباسية م س ذ ، ص ٢١ - ٢٢ .

٤٣ - حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج ٢ - ص ٢٤٦ .

٤٤ - Shachan , op.cit , vol . 2 , p 39 - 47 .

بعد أن كان مقصوراً حتى هذه اللحظة على الأقاليم النائية كالمغرب الاسلامي . ذلك أن طاهر بن الحسين قد كوفىء من قبل المأمون على خدماته العسكرية أثناء الفتنة بأن منح هو وأسرته من بعده استقلال ذاتي شبه تام على الأقاليم الشرقية على أن تكون خراسان هي قاعدة دولة الطاهريين الوليدة (٤٥) .

ومرة أخرى بانتهاء الحرب الأهلية وبضمنان المأمون استقرار الأوضاع في الأقاليم الشرقية تحت القيادة الكفاء للطاهريين بدأ يحول أنظاره نحو العالم الخارجي، وكانت خطواته التمهيدية لعودة الدولة الإسلامية للتواجد على المسرح العالمي بقوة هي خطوة هامة وحكيمة لأنها تتعلق بتنظيم الجيش الذي هو عدة الدولة في القيام بدورها على المسرح العالمي بفاعلية ، فلقد انزعج المأمون أيما انزعاج للفرقة التي تمزق الجيش العباسي والتي تولد الصراع والتنافر فهناك الخراسانية وهناك جند الشام والعراق وهناك القوات الجديدة المستقدمة من الأقاليم الشرقية ، ولقد ظهرت خلافاتهم المدمرة واضحة للعيان أثناء الحرب الأهلية ، ولذا قرر المأمون أن يقيم جيشاً متجانساً يستطيع أن يعتمد عليه في حماية الدولة والدفاع عنها فعمد إلى تقسيم الجيش إلى ثلاث فرق كل منها يختص بالحرب في جبهة معينة على أن يتكون قوام كل فرقة من مجموعة من السريات كل منها ينتمي إلى واحدة من الفرق السابق ذكرها بحيث تجمع كل فرقة الأجناس كلها فيوازنون بعضهم بعضاً ولا يعد في مقدور أي فرقة أن تقيم لنفسها امتيازات خاصة في منطقة عملياتها، وسنرى أن هذه السياسة الرامية إلى إقامة جيش متوازن يسهل قيادته سيتم اتباعها أيضاً في بعض الأحيان في الأندلس حيث سيؤدي الصراع بين العرب والبربر من جانب والقيسية واليمينية من جانب آخر إلى تمزق الجيش وانصرافه عن مهامه في مواجهة الأخطار الخارجية (٤٦) .

وإذا كان المأمون قد جعل من نفسه القائد الأعلى للجيش إلا أنه جعل القيادة المباشرة لهذه الفرق الثلاث للحاكم العسكري لبغداد وهو من الطاهريين وأوكل إليه مهمة حماية بغداد والعراق وفارس ، أما الفرقتان الأخريان فجعلهما تحت إمرة ابنه العباس وأخيه المعتصم وأوكل لهما معا العمليات في الجبهة البيزنطية في مصر والشام وأذربيجان والعواصم والثغور والجزيرة (٤٧) . ولقد مكن ترتيب الجيش هذا المأمون من أن يتخذ موقفاً إيجابياً عندما بدأت الأمور تتوتر على الجبهة البيزنطية بعد فترة من الهدوء النسبي ، ولكن المأمون يختار أسلوباً جديداً في التعامل مع الدولة البيزنطية وهو إثارة القلاقل فيها بالوكالة ، فبدلاً من أن تقوم القوات الإسلامية بالصدام المباشر مع القوات البيزنطية فإن أحد المتمردين البيزنطيين يقوم بهذا الدور نيابة عنها

- Ibid , vol . 2 , p49 - 50.

- ٤٥

٤٦ - انظر وقارن الفصل الثاني

- ٤٧

- Shachan , op.cit , vol . 2 , p 53 .

على أن تقدم له الدولة الإسلامية ما يحتاجه من مساعدات مادية ، ولقد وجد المأمون ضالته في توماس الصقلي التائر في آسيا الصغرى (٤٨) .

ويرى البعض أن المأمون إنما كان يهدف من وراء هذه المساعدات إلى فتح القسطنطينية وأسقاط الدولة البيزنطية (٤٩) بما يحمله هذا من معنى تغير استراتيجيات التعامل الخارجى للدولة العباسية وعودتها إلى ماكانت تؤمن به الدولة الأموية كأهداف خارجية عليا ، ولكن واقع متابعة أحداث هذه الفترة ينفي هذا ويؤكد استمرار تمسك المأمون بالسياسة التى وضع أسسها المنصور فى التعامل مع الدولة البيزنطية والتى لا تهدف إلى اسقاطها ولكن فقط إلى جعلها تسلم بعلو وتسيد الدولة الإسلامية . فالمأمون وفقا لما نجده من أخبار فى كتب التاريخ ما كان يهدف إلى أكثر من تقويض ملك الامبراطور تيوفيل بدليل أن اتفاقه مع توماس الصقلي كان على إمداده بالمال والرجال لى يتمكن من دخول القسطنطينية واسقاط تيوفيل (وليس الدولة) ثم الجلوس مكانه . فالمأمون اذن لم يكن يريد اسقاط الامبراطورية البيزنطية وإنما فقط اسقاط تيوفيل لى يجلس على عرشها امبراطورا حليفا (توماس الصقلي) تستطيع الدولة الإسلامية أن تقيم معه روابط تعاون وصداقة دون خوف من غدر أو نقض لهدنة أو صلح . ولقد أدرك الامبراطور تيوفيل نفسه هذا فأرسل إلى المأمون يعرض العلاقات السلمية والتعاون واستئناف التبادل التجارى ، ولكن المأمون لم يستسغ صيغة الخطاب فقاتله خاصة عندما ادرك أن الروم يكيلون له بنفس الكيل عندما استغلوا تمرد بابك الخرمى الذى بدأ عام ٢٠١ فى الجبال الشمالية الشرقية حيث أمدده الروم بالمساعدات رامين إلى أنشغال المأمون بهذه الفتنة فى الداخل عن أمر مواجهتهم (٥٠) .

والواقع أن مساندة الدولة البيزنطية للحركة الخرمية كان لها أثر واضح فى قدرتها على الاستمرار فى مقاومة جيوش المأمون حتى ان المأمون قرر أن يضع حدا لهذا بمواجهة الدولة البيزنطية مباشرة فقرر أن يتولى الجبهة البيزنطية بنفسه بعد أن كان تاركا لها بين ابنه وأخيه (٥١) . ولقد ساهم فى تأخير آخر وضع قرار المأمون هذا بالجبهة البيزنطية موضع التنفيذ الفورى المصاعب الداخلية المتعددة التى كان يواجهها فى ذلك اضافة الى حركة الخرمية ، فمصر كان يجتاحها تمرد واسع فى ذلك الوقت

٤٨ - حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج ٢ ص ٢٤٧ .

نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات الدولية ، م س ذ ، ص ٢٢ .

٤٩ - حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

٥٠ - المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .

- Shachan , op.cit , vol . 2 , p 56.

- Shachan , op.cit , vol . 2 , p 59.

بسبب السياسة الضريبية للأراضي الزراعية اتسع بحيث لم يعد المعتصم قادراً على القضاء عليه ، فما كان من المأمون إلا أن توجه بنفسه إلى مصر فأعاد الأمور إلى نصابها (٥٢) فلما ضمن استقرار الأوضاع في مصر بما يحمي ظهره توجه إلى الجبهة البيزنطية وبدأ سياسة مواجهة عسكرية نشطة فقاد الصوائف بنفس بدءاً من عام ٨٣٠/٢١٥ خاصة وأن توماس كان قد هزم على يد الامبراطور ميخائيل فيما اعتبره المأمون هزيمة شخصية له (٥٣). ثم أنه أمر ببناء خط جديد من العواصم يمر في طوانه وفرض له حامية قوية (٥٤). في تأكيد من جديد على سياسة العباسيين الثابتة بأزاء الحدود وهو تدعيمها وتقويتها بوصفها نهايات وسياسياً يحمي الدولة داخله . ولقد أثمرت هذه السياسات العسكرية النشطة النتائج المرجوة منها حيث طلب البيزنطيون عقد الهدنة ومرة أخرى مؤكدين - كما فعلوا في الهدنة السابقة . على استعدادهم لتأمين الطرق واقامة علاقات تجارية .

ولكن المأمون لم يستجب لطلب الهدنة واستأنف القتال لا لأنه أراد أن يستمر في الطريق إلى النهاية فيسقط الدولة البيزنطية ولكن ، وهو يريد أن تكون يد المسلمين هي العليا ، لم يستسغ صيغة الخطاب التي لم يتضح منها بصورة كافية أن البيزنطيين يأتون صاغرين ، فما كان منه إلا أنه استقدم قوات جديدة استعداداً لجولة جديدة عنيفة من الغزو في الأراضي البيزنطية ولكنه توفي قبل سيره هذا اليهم وذلك في طرسوس عام ٨٣٣/٢١٨ فوقع الدور على أخيه المعتصم ليكمل ما بدأه هو على الجبهة البيزنطية (٥٥).

ولكن المعتصم كما هو متوقع قرر أن يلتفت للجبهة الداخلية أولاً حتى يؤمن ظهره، فكان أن انشغل بأمر بابك الخرمي - المساند من قبل البيزنطيين - عن التعامل المباشر معهم وذلك حتى نجاحه في القضاء على هذه الحركة عام ٢٢١. ولقد انتهز الامبراطور البيزنطي فرصة انشغال المعتصم بأمر بابك فأغار على حصن زبطرة راميا إلى شغل المعتصم وتشيت جهوده على جبهتين حتى يفشل في القضاء على بابك ، والشوكة التي غرزاها البيزنطيون في جنب الدولة العباسية فكانت تقدم لهم خدمة جليلة فيما يتعلق بأمر مواجهتهم للمسلمين ، ولكن نجح المعتصم في القضاء على بابك وسرعان ما

- Ibid , vol . 2 , pp 59 - 61 .

-٥٢

٥٢ - رمضان ، الصراع بين العرب والمسلمين ، م س ذ ، ص ١٧٤ .

٥٤ - نادية حسنى صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ٢٢ .

- Shachan , op.cit , vol .1, p 67

٥٥ - نادية حسنى صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ٢٢ .

حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

التفت إلى الجبهة البيزنطية فأرسل الحملة العمورية التأديبية الشهيرة التي أوقعت بالبيزنطيين هزيمة قاصمة وخسائر فادحة، وهذه الحملة هي حملة هامة جدا من أكثر من جهة .

فمن ناحية : هي قد أظهرت بما لا يدع مجالا للشك أن العباسيين في مجال تعاملهم مع البيزنطيين لا يريدون إلا أخضاعهم ولا يفكرون في إسقاطهم ، فرغم انتصار المعتصم الباهر في هذه الحملة فإنه كر عائدا ولم يحاول التقدم ليحقق انتصارا حاسما رغم أن الطريق كان مفتوحا أمامه إلى القسطنطينية بل ولم يحاول اقتطاع أى جزء من أراضيها وضمه إلى الدولة العباسية ، فحملته لم تكن إلا حملة تأديبية خاصة ردا على هجوم الروم على زبطرة وتمثيلهم بالمسلمين هناك . وإذا صح ما يقوله البعض من أن رجوع المعتصم وأحجابه على التقدم إلى القسطنطينية كان بسبب سماعه عن دعوة العباس بن المأمون لنفسه بالخلافة وأنها إنما كر عائدا خوفا من استجابة الناس له ^(٥٦) فإن هذه تكون الحادثة الثانية في العصر العباسي الأول التي يترك فيها قائد عسكري ميدان القتال ليخوض صراعا على السلطة تحكمه أهواء ومصالح شخصية ، وفي هذا أيضا إشارة إلى مدى التأثير السلبي للجبهة الداخلية غير المستقرة على التعامل الدولي الفعال للدولة الإسلامية .

أما الأهمية الثانية لهذه الحملة فتكمن في أنها أظهرت بوضوح تحول النظام الدولي إلى نظام متعدد الأقطاب يحرص أقطابه على إقامة توازنات دولية عن طريق عقد التحالف ، فالامبراطور البيزنطي اتصل بمناسبة هذه الحملة ببعض ملوك أوروبا يستنصرهم على الخليفة العباسي كما سنرى ويستعديهم على عدوهم المشترك الخليفة العباسي كما أنه اتصل بالأمراء الأمويين الذين انشقوا بالأندلس عن الدولة العباسية محاولا أن يقيم حلفا دوليا من القوى الدولية الموجودة على الساحة لمواجهة به الدولة العباسية .

أما الأهمية الثالثة لهذه الحملة فهي أنها قد أظهرت أن التعددية السياسية في المشرق الإسلامي أضحت نظاما مدعوما بحماية المركز الخلافي ذاته ، على خلاف الموقف من التعددية السياسية في المغرب الإسلامي ، على أساس أن الدويلات المستقلة في المشرق الإسلامي تؤدي خدمات سياسية للمركز لا يمكن الاستغناء عنها ، فبعد أن نجح القائد العسكري أفشين في القضاء على بابك الخرمي أراد أن يحصل على مثل المكافأة التي حصل عليها الطاهريون من قبل وهو استقلاله الذاتي بأقليم الصفد، ولكن لما كانت هذه الأماكن قد وقعت في وقت لاحق قريب تحت أمرة السامانيين - حلفاء الطاهريين - ولما كان هذا النظام يخدم المركز فإن المعتصم أثبت أنه لا يريد إخلالا بهذا التوازن الحساس في المنطقة فأرسل بأفشين إلى السجن حيث مات بعد قليل ^(٥٧) .

٥٦ - عثمان ، العبد الإسلامي ، م س ذ ، ج ٢ ، ص ٢١٠ .

٥٧ - Shachan , op.cit , vol . 2 , p 67 .

ولعل من أهم الخطوات التي أتخذها المعتصم في المجال العسكري والتي لم تظهر آثارها السلبية على التعامل الدولي للخلافة العباسية إلا في وقت لاحق استقدامه لجنود جدد لدعم قواته العسكرية لكي تصبح قادرة على القيام بواجباتها المتزايدة نتيجة النشاط المتنامي على الجبهة البيزنطية . وجاءت الاستجابة لدعوته أساسا من قبائل الخزر التي طالما ناضت الدولة الإسلامية في مناطق الحدود ولكنها الآن أغرتا فرصة الخدمة في أكثر الدول قوة وثروة في النظام الدولي في ذلك الوقت ، ولقد دخلت هذه القوات الجديدة كتب التاريخ الإسلامي باسم الأتراك وسيقدر لهم بعد قليل أن يلعبوا دورا محوريا في توجيه مصائر الدولة العباسية في الساحة الدولية (٥٨) .

المطلب الثالث : توقف النشاط الحربي على الجبهة البيزنطية لانشغال طرفي المواجهة الدولية بأمرهما الداخلية المضطربة :

وبوفاة المعتصم عام ٨٤٢/٢٢٧ أنتهت فترة هامة من فترات النشاط الحربي على الجبهة البيزنطية للدولة العباسية ، فالفترة الممتدة بين ارتقاء المهدي ووفاء المعتصم تعتبر من أنشط مراحل الصراع العسكري بين القوتين الدوليتين على طول عهد الدولة العباسية . ورغم أن هذا النزاع لم يسفر عن أى تغير في خط الحدود بين الدولتين ولم يؤثر على الكيان البيزنطي الذي ظل قائما في النظام الدولي كأحد أقطابه الرئيسية ، إلا أنها تعتبر بحق مرحلة المجد العسكري العباسي إذا ما قصد بالمجد امتلاك الجيوش الجرارة والعتاد الحربي المتقدم والخلفاء القادة الذين يخرجون على رأس الحملات يقودون جيوشهم إلى النصر نتيجة حنكتهم وتدريبهم على فنون القتال فتوغلوا داخل الدولة البيزنطية إلى أبعد مدى كان يناوئونه ثم يعودون ادراجهم منتصرين دون أن يمسه سوء يذكر .

ولقد جاءت بداية النهاية لكل هذا مع الواثق الذي خلف أبيه المعتصم ليتوقف النشاط الحربي ويسود الهدوء على الجبهة البيزنطية حيث تخبرنا الكتب البيزنطية أنه لم يقع في أيام الواثق ما يستحق أن يذكر في مجال المواجهة العسكرية (٥٩) . والواقع أن توقف المواجهة العسكرية بين الدولتين إنما كان يرجع إلى ظروف داخلية صعبة أمسكت بتلابيب الجانبين وأسهمت في تولد رغبة مشتركة لديهما لتجنب الصراع الخارجي ، كما أنها أدت في ذات الوقت إلى عدم قدرة أى من الطرفين على استثمار ظروف الاضطراب الداخلي لدى الطرف الآخر لتحقيق مكاسب له على حساب هذا الطرف الآخر لأن كليهما كان منشغلا بدرجة كبيرة بمشاكله الداخلية (٦٠) .

- Ibid , op , cit , vol . 2 , pp 61 - 66 .

-٥٨

٥٩ - نادية حسنى صقز ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ص ٢٦ .

٦٠ - المرجع السابق ، ص ص ٢٥ - ٢٦ - ٤٠ - ٥٧ - ٦٢ .

فبالنسبة للدولة العباسية فلقد انشغلت فى هذه الفترة بسلسلة من الفتن والتمردات الداخلية من قبل ثورة القيسية فى دمشق والتي بدأت عام ٢٢٧ وكذا تمرد أعراب بنى سليم فى الحجاز والذي بدأ عام ٢٣٠. والملاحظة الجديرة بالاهتمام هنا هو أنه قد ظهر فى هاتين الحركتين مدى عدم رضا العنصر العربى فى الدولة العباسية على التزايد الواضح فى نفوذ الأتراك ليس فقط فى الجيش وإنما فى كافة أجهزة الدولة، ثم كان هناك أيضا تحرك خارجى عام ٢٣١، وفى نفس العام تمرد الأكراد فى أصبهان (٦١) هذا بالإضافة إلى مؤامرة على حياة الواثق ذاته دبرتها جماعة مناهضة للمذهب المعتزلى الذى كان المذهب الرسمى للدولة فى ذلك الوقت (٦٢).

ولعل أخطر هذه التحركات من وجهة نظر هذه الدراسة كانت تلك الناقمة على تزايد نفوذ الأتراك لأن لها علاقة مباشرة بموضوع التعامل الدولى للدولة العباسية. فرغم أن الواثق لم يكن هو الذى استقدم العسكريين الأتراك إلى الدولة العباسية بل بدأ هذا مع المأمون وتزايد مع المعتصم، إلا أن كلا منهما كان قائدا عسكريا أساسا استطاع أن يسيطر عليهم بوصفه قائدهم الأعلى فكان يستخدمهم فى العمليات العسكرية وكان قادرا على أن يحد من طموحهم الهدام، والوضع كان مختلفا مع الواثق الخليفة المفكر المثقف الذى كان الكتاب هو رفيقه وليس السيف فلم يدرك الطريقة السليمة للتعامل معهم، كما أن تطورا خطيرا قد طرأ على مركز الأتراك فى عهده وسيكون له أكبر الأثر على مستقبل الدولة الإسلامية وقدرتها كقوة دولية، ذلك أنه مكنهم من السيطرة على الأمور المدنية فى الدولة عندما منح أشناس القائد التركى سلطات سياسية وأعطاه لقب سلطان فأضحى هو صاحب السلطة الحقيقى فى الدولة وفتح الباب للجند الأتراك لتولى المناصب الإدارية العليا، ثم أنه تقدم خطوة أبعد من هذا فى ذلك الطريق الشائك عندما قسم الدولة الإسلامية إداريا بين أشناس وإيتاح القائدين التركيين للأول القسم الغربى من الدولة والثانى القسم الشرقى وأصبح من سلطتهم إرسال الولاة من قبلهم لأقاليم هذين القسمين، فأصبحوا دولة داخل دولة وبعد أن كان الأتراك قوة فى يد الدولة أضحوا قوة عليها فى وقت كانت الإدارة فى الدولة قد وصلت إلى درجة من التردى تحتاج معه إلى إداريين أكفاء وليس عسكريين كل همهم أضحى اعتصار موارد الدولة ليحصلوا على عطاياهم دون أن يلتفتوا إلى حقيقة أنهم يعتصرون من الدولة الحياة ذاتها (٦٣).

٦١ - المرجع السابق، ص ٦٤.

٦٢ - Shacban, op.cit, vol. 2, p 70 - 71.

٦٣ - راجع: نادية حسنى منقر، السلم فى العلاقات العباسية، م س ذ، ص ص ٤٢ - ٤٦.

فهذه التمردات الداخلية والثورات المذهبية وتزايد نفوذ الأتراك وسيطرتهم على الحياة المدنية وعلى الحكم والادارة وكذا الأزمة المالية كانت كلها عوامل أدت إلى اضطراب البيئة الداخلية فأثرت تأثيرا مباشرا على قدرة الدولة فى عهد الواثق على سلوك سياسة نشطة مع الدولة البيزنطية . ولقد مكن الواثق من المضى فى سياسة تهدئة الأمور على جبهته مع البيزنطيين أن الأخيرين رغبوا فى نفس الشئ لأنهم كان لديهم أيضا من مشاكلهم الداخلية والخارجية كذلك على جبهات أخرى ما يفنيهم عن فتح جبهة جديدة مع العباسيين هم فى غنى عنها طالما أن الأخيرين لا يثيرون المتاعب .

فالامبراطورية البيزنطية كانت تعاني فى ذلك من أزمة انتقال الحكم حيث توفى تيوفيل وترك أبنة على العرش وهو طفل فى الثالثة من عمره يقوم عليه مجلس وصاية^(٦٤)، ثم كانت هناك صراعات دينية أيضا بين مذاهب متعددة حول مسألة الايقونات وهى الصور والتماثيل التى تمثل السيد المسيح والسيدة العذراء والقديسين ، وبسبب هذا الصراع كانت ثورة توماس الصقلبي الذى استغلها المأمون لصالح الدولة العباسية فى صراعها مع البيزنطيين^(٦٥) ثم كان هناك أيضا صراع الدولة البيزنطية مع البوليسيين والذى أدى إلى هروبهم إلى ملطية وإلى موافقتهم على مساعدة الدولة العباسية فى صراعها مع الدولة البيزنطية باثارة القلاقل المستمرة للروم فى فلسطين وأرمينيا المتاخمة^(٦٦) . وإذا كان العباسيون بسبب ظروفهم الداخلية المتردية لم يستطيعوا استثمار عوامل الضعف الداخلى للدولة البيزنطية لصالح تعاملهم الصراعى معها، ولم يتمكنوا حتى من استغلال البوليسيين لتشكيل خطر حقيقى على الدولة البيزنطية ، الا أن طرفا اسلاميا آخر استطاع أن يستغل ظروف انشغال الدولة البيزنطية بأمر داخلى خطيرة لتحقيق مكاسب لهم على حساب الروم البيزنطيين هؤلاء كانوا الأغلبة والادارسة فى المغرب الاسلامى الذين استطاعوا أن ينتزعوا كريت كاملة وجزءاً من صقلية عام ٢١٢ . ولقد ادركت الامبراطورة تيودورا أمام المخاطر المحدقة بها على جبهات ثلاث الداخلية أولا ثم الجبهة العباسية من جانب ثان وجبهة المغرب الاسلامى من جانب ثالث أن عليها أن تحدد أولوياتها فى ظل ادراكها لقدرتها المحددة على تحريك خارجى فعال بالنظر إلى تردى الاوضاع الداخلية ، فكان أن أختارت أن تواجه جبهة المغرب الاسلامى . وفى هذا دلالة على تعاضم خطر هذا الطرف الاسلامى الصاعد اذا ما قيس بخطر العباسيين فى الشرق ، وفيه دلالة أيضا على ادراك البيزنطيين قدرتهم على تحييد العباسيين نتيجة ظروفهم الداخلية السيئة

٦٤ - المرجع السابق ، ص ٨٢ - ٨٢ .

٦٥ - غازيليت فازيليف ، العرب والروم - ترجمة محمد عبدالهادى شعيرة (القاهرة : دار الفكر العربى ، د ت) ص ٢٨ - ٢٩ .

٦٦ - المرجع السابق ، ص ٢٠٢ - ٢٠٤ .

على خلاف الوضع مع الأطراف الإسلامية في المغرب الإسلامي ، ومن ثم نجد الامبراطورة تسعى إلى الوفاق بطلب للفداء عام ٨٤٥/٢٣١ لتضمن السلام الرسمي ولو إلى حين تتفرغ خلاله للجبهة الغربية محاولة أن تعيد لبيزنطة نفوذها في البحر المتوسط حيث كانت قد أرسلت حملتين فاشلتين واحدة لاسترداد كريت عام ٨٤٣/٢٢٩ والثانية لرد المسلمين عن صقلية عام ٨٤٤/٢٣٠ (٦٧) .

وبوفاة الواثق دون أن يعهد إلى أحد جاء الجند الأتراك بالمتوكل إلى حكم الدولة العباسية ٢٣٢ - ٨٤٧/٢٤٧ - ٨٦١ في إشارة قوية إلى بداية تدخل الأتراك في مؤسسة الخلافة ذاتها . ولقد حاول المتوكل القيام باصلاحات داخلية تنعكس ايجابية وفعالية في التعامل الخارجي وكان من أهم ما حاول اصلاحه الجيش فعمد إلى اعادة بناء القوات الحربية بما يسمح بتكوين جيش متجانس يخضع له مباشرة دون أى وساطة من أى قائد عسكري إنما يستتبعه ذلك من ضرورة القضاء على القادة العسكريين الذين يتمتعون بقدر ملحوظ من الاستقلال والسطوة مثل الأتراك والطاهريين ، ولقد ساعدته الظروف أحيانا بموت بعض هؤلاء القادة وتحرك هو أحيانا أخرى فأسر البعض ثم قسم الدولة بين أبنائه الثلاثة ليضعف الطاهريين ثم عمل على تكوين جيش جديد بدلا من الجيش القائم يكون موال له شخصيا ثم أنه أنتزع الاقطاعات من أيدي القواد العسكريين فكانت هذه القشة التي قصمت ظهر البعير حيث قرر القادة الأتراك قتله قبل أن يستفحل أمره أكثر من ذلك ونجحوا فيما أرادوا فكان المتوكل أول خليفة يقتل بيد العسكريين الأتراك الذين أحكموا سيطرتهم منذ ذلك الوقت على البلاد وأضحى الخلفاء العويبة في أيديهم هم الذين يولونهم وهم الذين يعزلونهم أو يقتلونهم ويعذبونهم اذا اقتضى الأمر (٦٨) .

ولسنا في حاجة إلى أن نقول إن فترة المتوكل شهدت تراجعا واضحا للدولة الإسلامية في المجال الدولي نتيجة انشغاله الشخصي التام بأمور الجبهة الداخلية ، فنجد ذيول بابك الخرم يثورون في أرمينيا وأذربيجان ونجد قبائل البجة تنتفض في مصر ونجد البيزنطيين ينشطون مرة أخرى بعد فترة سكون طوال عهد الواثق ليهاجموا دمياط بكل جرأة عام ٨٥٢/٢٣٨ . واذا كانت الدولة العباسية حتى عهد الواثق كانت مازالت تتعامل دوليا من مركز قوة رغم كل مشاكلها الداخلية فتتولى ارادتها عند التفاوض مع البيزنطيين على شروط الصلح والفداء (٦٩) ، فإن الآلة سرعان ما ستقلب تماما في عهد المتوكل ، واذا كان تردى أحوال المسلمين ليس بالأمر الذي

٦٧- المرجع السابق ، من ص ٨٢ - ٨٢ .

٦٨ - Shachan , op. cit , vol .2 , pp 72 - 78 .

٦٩ - نادية حسنى صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ من ص ١٢٧ - ١٢٨ .

جد فى عهد المتوكل هو سبب أنقلاب الآية لصالح البيزنطيين ، فإن الذى جد حقيقة ووضع الدولة العباسية فى موضع الدفاع والتراجع بصورة واضحة هو بداية انتعاش الدولة البيزنطية فى تلك الفترة . فلقد نجحت فى تخطى مشكلة الصراعات الدينية داخلها ، وبدأت فى تبنى سياسة اصلاحات اقتصادية أتت ثمارها لتولى أمر خزانة الدولة واحدا من أكفأ الماليين ، ثم جاء دور الاصلاحات السياسية والثقافية مع تولى الامبراطور المثقف الشاب ميخائيل الثالث الذى رعى العلم والثقافة (٧٠) ولاحظ أن كل هذه الاصلاحات كانت تحتاجها الدولة العباسية ولم تجد السبيل اليها كما حدث فى الدولة البيزنطية .

ولكن نقطة التحول الرئيسية فى الدولة البيزنطية فى هذه الفترة وبالتالى فى تاريخ علاقاتها الدولية مع الأطراف الإسلامية جاءت مع وصول الأسرة المقدونية إلى الحكم عام ٨٦٧/٢٥٣ ، فلقد بدأت هذه الأسرة عصر بحث حقيقى للدولة البيزنطية . ولقد استمر حكمها قرابة مائتى عام ٢٥٣ - ٨٦٧/٤٤٩ - ١٠٣٧ بلغت فيها دولة الروم ذروة مجدها وقوتها فى حين شهدت ذات الفترة أقصى درجات الضعف والتدهور للدولة العباسية وهى الفترة التى عرفت بالعصر العباسى الثانى . ولكن اذا كانت الدولة العباسية قد ضعفت فى تلك الفترة فلم تستطع أن تقف موقف النذ من الدولة البيزنطية المنتعشة ، فإن الأطراف الإسلامية الموجودة فى المغرب الاسلامى فى ذات الفترة استطاعت أن تحمل العبء الذى نأت به الدولة العباسية فى المشرق لتبقى على راية الإسلام مرفوعة فى الساحة الدولية .

المبحث الثانى

سياسات الفتح وأنماط التحالفات فى ظل اللامركزية والتعددية فى المغرب الإسلامى

رأينا فى المبحث السابق الظروف الدولية التى تشكلت من خلالها سياسة الدولة العباسية فى المشرق الإسلامى فتحولت عن سياسة الفتوحات ضد الدولة البيزنطية والتى كانت السمة المميزة لدولة الخلافة الأموية السابقة عليها وذلك رغم استمرار الصراع قائما بينها وبين الدولة البيزنطية ، حيث أكتفت الدولة العباسية بالعمل على الحفاظ على زمام المبادرة فى أيديها فكان يدفعها هذا أحيانا إلى ارسال الحملات وتسيير الجيوش بغرض التأديب وحفظ الهيبة وليس بغرض الفتح .

وسنرى فى هذا المبحث كيف أن ذات الوقت الذى شهد انتهاء سياسات الفتح فى المشرق، شهد فى الجانب المقابل مدا قويا للفتوح فى المغرب حيث زحف المسلمون على

٧٠ - المرجع السابق ، ص ٩٠ .

طول الساحل الأفريقي الشمالي على غرب أوروبا خاصة في شمال إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وسويسرا ، كما أنهم نزلوا البحر المتوسط واحتلوا جزره المحورية ووصلوا جبال الألب واستقروا في جنوب فرنسا (٧١) .

أما الأطراف الأساسية التي اضطلعت بمهمة الفتح في المغرب فكانت هي الدويلات الإسلامية التي قامت في هذا الجزء من العالم الإسلامي مستقلة عن الدولة العباسية إما استقلالا تاما هو أقرب إلى الانفصال وإما استقلالا في إطار قبول نمط التبعية الاسمية للخلافة العباسية في المشرق . وإذا كانت الامارات المستقلة التابعة اسميا للخلافة العباسية مثلت بسياساتها الفتحية إضافة للدولة العباسية في تعاملها مع الأطراف الدولية الأخرى ودعمها لمركزها في المحيط الدولي ، فإن الدويلات المنفصلة التي قامت في مواجهة الدولة العباسية إما سياسيا (الدولة الأموية في الأندلس) ، أو مذهبياً (دولة الادارسة) كان من البدهى أنها تقوم بفتوحاتها لحسابها الخاص بما يحمله هذا من تفتيت لمعنى الوحدة في دار الإسلام ، بل الأخطر من ذلك ان سياسات العداء التي استعرت بين هذه الدويلات المنفصلة والدولة العباسية أضحت عاملا مضعفا لقدرة الدولة الإسلامية ككل على التعامل الدولي الفعال حيث أفرزت نمطا عجيبا من التحالفات الدولية يجمع أطرافا دولية مسلمة وغير مسلمة في حلف واحد ضد حلف آخر له نفس التركيبة - كما سنرى بالتفصيل بعد قليل .

فاللامركزية كانت اذن سمة أساسية من سمات الدولة العباسية في تمييزها عن الدولة الأموية التي ظلت منذ أن ولدت وحتى دالت دولة واحدة ورغم تعاظم مشكلاتها الداخلية والخارجية في نهايات أيامها استطاعت أن تحافظ على وحدة دار الإسلام وسلمت رايته للعباسيين وشمل المسلمين كلهم مجتمع في دولة واحدة (٧٢) . ولم يستطع العباسيون أن يحافظوا على هذه السمة أكثر من ست سنوات بعد قيامهم ، فاللامركزية كانت واقعا في الدولة العباسية ، والخطر هنا أنه اذا كان العباسيون قد نجحوا ابان عصر قوتهم في أن يحدوا الآثار السلبية لهذه السمة ، بل وأن يفيدوا منها أحيانا ، إلا أن هذه السمة ستضحي وبالا على الدولة العباسية وستكون من الأسباب المباشرة في دخولها عصر الانحلال والضعف بدءاً من منتصف القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي . خاصة مع تنامي وتسيد نمط التعددية (ونقصد به الامارات المنفصلة عن المركز الخلافي العباسي في بغداد انفصالياً تاماً) وتراجع نمط اللامركزية (ونقصد به الامارات المستقلة عن المركز الخلافي ولكن تقبل بالسيادة الاسمية له) . واللامركزية . ثم التعددية كانا مظهرين من مظاهر تفكك الدولة العباسية

٧١ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ٢١٨ .

٧٢ - الخطيب ، دراسات تحليلية ، م س ذ ، ص ١٤٦ .

بعد أن اتسعت رقعة دار الاسلام لتصل من قلب آسيا شرقاً حتى بحر الظلمات غرباً مما أعجز يد الخلافة العباسية عن الامساك بذلك العدد الكبير من الأقاليم وعن احكام السيطرة على الحكام المحليين فانقرط العقد وقامت دويلات اسلامية بعضها استقل عن الخلافة تماماً والبعض الآخر ربطته بالخلافة روابط وصلات تتفاوت في مدى قوتها أو ضعفها .

والذي يهمنا من هذه السمة هنا ، سواء سمة اللامركزية أو التعددية ، هو مدى انعكاسها سلباً أو ايجاباً على قدرة دولة الإسلام على التعامل الدولي الفعال .
وسندرس هذا في مطلبين يتناول أولهما الولايات المستقلة التابعة للدولة العباسية ويتناول ثانيهما الامارات المنفصلة عن الدولة العباسية .

المطلب الأول : العلاقات التعااضدية بين الدولة العباسية والدويلات المستقلة التابعة لها وانعكاس ذلك على سياسات الفتح والتوسع :

رغم أن هذا المبحث يهتم بمغرب العالم الاسلامي إلا أن أي حديث عن سمة اللامركزية والاستقلالية في الدولة العباسية لابد وأن يتعرض لما يعرف في المصادر بالسياسة الشرقية للدولة العباسية .

فلقد أولت الدولة العباسية دائماً الأقاليم الشرقية عناية خاصة حيث كانت تحرص على توفير قدر عال من الاستقرار في هذه الأقاليم تأكيداً لاستمرار تدفق تجارتها العالمية عبر هذه المناطق ، فكانت الدولة العباسية تعتني دائماً باتخاذ الاجراءات اللازمة لتثبيت أقدامها في أقاليمها الشرقية وللقضاء السريع والحاسم على كل اضطرابات تنفجر في هذه المنطقة ، ومن أشهر هذه الاجراءات ما أُتخذ في عهد الرشيد ، رغم انشغاله الواضح بالجبهة البيزنطية كما رأينا سابقاً ، والذي عرف باسم السياسة الشرقية ومؤداها أن يكون للأقاليم الشرقية وضعها المالي والضريبي المستقل بحيث تكون مواردها حكراً عليها تنفق فيها ولا ترسل للخزانة (٧٢) ، وسرعان ما ستتخذ هذه الاجراءات والتي تعنى استقلال تلك الأقاليم عملياً ، شكلاً رسمياً في عصر المأمون عندما سيوافق أن تخضع تلك الأقاليم للحكم الذاتي للطاهريين الذين ساعدوه في حربه ضد أخيه الأمين .

ولقد احتفظ الطاهريون بعلاقات ممتازة مع الدولة العباسية فلم يؤد قيامهم إلى إضعاف المركز عن طريق شغله بصراعات معهم بل إن العكس كان هو الصحيح ، حيث دعموا من قوة الدولة العباسية لقيامهم بدور صمام الأمان في الأقاليم الشرقية

- Shaban , op. cit , vol . 2 , pp 31 - 36 .

حيث تولوا نيابة عن المركز مهمة حفظ الاستقرار في تلك المناطق الهامة للدولة من قبيل تحركهم السريع للقضاء على تمرد مازيار أمير طبرستان في عهد المعتصم .
وليس أدل على الدور الإيجابي الذي لعبه الطاهريون في توطيد دعائم الدولة العباسية في الأقاليم الشرقية الهامة وحماية جبهتها الشرقية التي تميزت بوجود - ليس كيانا دوليا مثل الدولة البيزنطية - وإنما قبائل عدة ذات نزعة استقلالية واضحة كثيرا ما تنتهز كل فرصة ممكنة للانتفاض ، من أن خلفاء العصر العباسي الأول عملوا على تدعيم قوتهم ولم يعترض أى منهم على استقلالهم بأقاليمهم باستثناء المتوكل - آخر خلفاء العصر العباسي الأول - الذي قدر ، نتيجة تضخم قوتهم إلى حد الخطر ، أن الخدمات التي يقدمونها لاتوازي الخطر الذي أضحوها يمثلونه فعمل على القضاء عليهم والحد من نفوذهم فما كان إلا أن انفجرت اضطرابات عدة في أرمينيا واذربيجان مما أكد الدور الإيجابي الذي كانوا يلعبونه بالفعل على الجبهة الشرقية للدولة العباسية (٧٤) .

ولم يقتصر دور الطاهريين في دعم الدولة العباسية والتمكين لها على مستوى علاقاتها الخارجية مع أطراف غير اسلامية ولكنه امتد أيضا إلى علاقاتها الداخلية مع الأقاليم الإسلامية خاصة في القسم الغربي من دار الإسلام . والواقع أن هذا الجزء الغربي لم يكن أبدا خاضعا لسيطرة العباسيين ، فمصر مثلا كانت منتفضة على المركز بصورة شبه دائمة بداية من عهد المنصور بل وكادت تنجح في أن تستقل فعليا عن المركز في بغداد في عصر المأمون بعد انتفاضة طولها أحد عشر عاما ، فلم يجد المأمون أكفأ من الطاهريين للتعامل مع الموقف فذهب عبدالله بن طاهر إلى أهل مصر وقضى على اضطرابهم في حينه (٧٥) .

ومثل الطاهريين في المشرق كان الأغالبة ومجاهدى البحر في المغرب . فإذا نظرنا أولا إلى الأغالبة وبالتحديد في أفريقيا (تونس الحالية) (١٨٤ - ٢٩٧ هـ) ، نجد أنه كما ارتضى العباسيون تمتع الطاهريين بالحكم الذاتي مقابل قيامهم بدور رجل الشرطة على الجبهة الشرقية بالأساس لحساب الدولة العباسية فانهم قد وافقوا على تمتع الأغالبة - ولاتهم على أفريقية - باستقلال ذاتي حتى يقدموا لهم خدمات محددة في ذلك الجزء المضطرب والنائي من العالم الإسلامي . فالمغرب الإسلامي كان يعاني بصفة مستمرة من ثورات البربر المتوالية ، ثم كان قيام دولة الإدارة في مراكش عام ١٧٢ هـ كدولة شيعية مناهضة للدولة العباسية ومنفصلة عنها عاملا حاسما في استجابة هارون الرشيد لطلب واليه إبراهيم بن الأغلب أن يستقل بأفريقية مقابل مال يؤديه إلى الخزانة العامة كل عام .

- ٧٤ - Shachan , op. cit , vol .2 , pp 77 - 78 .

٧٥ - حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج ٢ ، ص ٨٩١ - ٢٠٢ .

فاحتمال خروج المنطقة كلها من يد الدولة العباسية لم يعد بعيدا ففضل الرشيد أن يوليها تابعا له يدين بتبعية ولو أسمية للخلافة على أن يحفظ المنطقة من أخطار التوسع الأدريسى أو الاستقلال البربري (٧٦) .

ولقد قامت دولة الأغالبة بمهمتها كرجل شرطة يعمل لصالح العباسيين في المنطقة على وجه حسن حتى سقوطهم للفاطميين الذين لم يكن لهم قبل بهم .

ولم تقتصر مهام دولة الأغالبة على القيام بدور في العلاقات الإسلامية / الإسلامية، بل إن دورها الإيجابي تمثل في قيامها بمهام فعالة على مستوى العلاقات الإسلامية - غير الإسلامية حيث استأنفت في المغرب الإسلامي سياسة الفتوحات فتمثلت سياستها تلك إضافة إيجابية لمركز الدولة العباسية التي كانت تتبعها في المحيط الدولي في وقت كانت الدولة تنشغل فيه عن القيام بهذا الدور (٧٧) .

والواقع أن الأغالبة سينجحون في فتح جزيرة فشل المسلمون منذ بداية حركة الفتوحات في عهد الخلافة الراشدة وحتى نهايتها مع زوال الخلافة الأموية في فتحها رغم المحاولات المستمرة لتحقيق ذلك وهي جزيرة صقلية . ويرجع هذا الفشل لأسباب عديدة منها بعد جزيرة صقلية عن مراكز الأسطول الإسلامي آنذاك في الشام ومصر ، فضلا عن أن أقدام المسلمين لم تكن قد استقرت نهائيا في شمال إفريقيا وهي بلاد اشتهر أهلها بركوب البحر . ففي عام ٢١٢ بدأ الأغالبة عملية طويلة وشاقة لفتح تلك الجزيرة التي بدأت أولى محاولات فتحها عام ٦٥٢/٣٢ واستمرت طول العهد الأموي فخرجت الحملات متوجهة إليها أعوام ٦٦٨/٤٨ ، ٧٠٠/٨١ ، ٧٢٠/١٠٢ ، ١٢٧/١٠٩ ، ٧٢٨/١١٠ ، ٧٣٠/١١٢ ، ٧٣٢/١١٤ وكذلك في بداية العصر العباسي عامي ٧٥٢/١٣٥ ، ٧٥٣/١٣٦ ، ثم توقف غزو صقلية من الشرق الإسلامي منذ ذلك العام ولم يبدأ غزوها مرة أخرى إلا مع الأغالبة ومن الشمال الإفريقي في المغرب الإسلامي . ولقد تصاعدت الحملات الإسلامية التي تخرج من إفريقية الأغالبة إلى صقلية حتى وصلت حدا دفع حاكمها من قبل الامبراطورية البيزنطية إلى أن يسعى وينجح في عقد صلح مع الأمير الأغلبي عام ١٩٠ ولدة عشر سنوات، وظل يُجدد حتى سنحت فرصة ذهبية للأغالبة للاستيلاء على الجزيرة عام ٨٢٦/٢١١ . وهذه الفرصة تكرر مثلها كثيرا قبلا وسوف يتكرر مثلها كثيرا بعدا في تاريخ العلاقات الإسلامية - غير الإسلامية وتمثلت ، في حالة صقلية ، في لجوء أحد المتمردين الصقليين على

٧٦ - حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج ٢ ، ص ص ٢١٢ - ٢١٢ .

٧٧ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ١٨٨ .

الحكم البيزنطى إلى أمير الأغالبة يقترح التعاون على فتح الجزيرة ليتمكن الثائر من الوصول إلى الحكم على أن يكون تابعا للأغالبة ويدفع لهم الجزية (٧٨) .

والواقع أن الاغالبة لم يوافقوا على هذا الحلف مع الثائر الصقلى ، ولكن خطوته تلك كانت هامة فى دفعهم إلى عقد العزم على نقض الهدنة والتقدم للاستيلاء على الجزيرة مستغلين اضطراب الأحوال الداخلية بها والذي أظهره لأعينهم واقترح الثائر الصقلى ، ولقد اتخذ فتح الاغالبة لجزيرة صقلية طابعا دينيا واضحا حيث حرصوا مثلا على أن يحصلوا على فتوى بامكان نقض العهد المبرم بينهم وبين صقلية ، وعندما صدرت فتوى بذلك كانت دعوة الحاكم الأغلبى إلى الجهاد ، وكان رفضه القاطع أن يشترك الثائر البيزنطى أو أى من قواته فى العمليات العسكرية لفتح الجزيرة ، وكانت روح الجهاد التى ظهرت على عملية فتح هذه الجزيرة منذ البداية عام ٢١٢ هـ التى مكنت المسلمين من الصمود المستميت لفتح تلك الجزيرة والتى لم يتم إلا عام ٢٦٤ هـ بسبب الصعوبات الهائلة التى واجهتهم حيث كان البيزنطيون قد انتبهوا لرغبة المسلمين الجادة فى الاستيلاء عليها فعملوا على تحصينها بصورة جعلت منها قلعة منيعة خاصة أنها تمثل القاعدة الأساسية لحماية الحدود الجنوبية للامبراطورية البيزنطية (٧٩) .

ومما تجدر الإشارة اليه فى عمليات فتح صقلية أن المساعدات كانت تأتى الاغالبة - عندما تأتى - من الأندلس وليس من الدولة العباسية التى يدين لها الاغالبة رسميا بالولاء ، هذا على الرغم من أن الدولة البيزنطية كانت خصما عنيدا فى هذه العملية ليس فقط من خلال القوات المحلية التابعة لها رسميا ولكن أيضا من خلال المدد العسكرى - والبحرى خاصة - الذى كانت ترسله دوما لدعم القوات المحلية التى تدافع عن الجزيرة باسمها (٨٠) . ويؤكد هذا ما سبق بيانه من أن الدولة العباسية - حتى فى صراعها مع الدولة البيزنطية - كانت مهتمة بصورة أساسية بممتلكاتها فى آسيا الصغرى والوسطى حيث تمر طرق التجارة وليس بممتلكاتها الجزرية فى البحر المتوسط.

وربما يكون قصور المدد من المركز فى بغداد سببا ولو غير مباشر فى بطء تقدم المسلمين فى الجزيرة ، ولكن رغم أن اتمام فتحها استمر قرابة النصف قرن الا أنه

٧٨ - المرجع السابق ، ص ١٨٨ ، ١٩٨ .

حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ، ٢٢٠ .

عنان ، مواقف حاسمة ، م س ذ ، ص ٧٨ - ١٩ .

نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ٢٠١ - ١٠٥ .

٧٩ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

٨٠ - المرجع السابق ، ص ١٩٠ .

كانت هناك محطات حاسمة فى طريق فتحها منها سقوط باليرمو عام ٢١٦ هـ والتي جعل منها المسلمون قاعدة ثابتة لهم فى الجزيرة ينطلقون منها للغزو بعد أن كانوا ينزلون فى معسكرات متقلة وهو ماعده المؤرخون نقطة انطلاق هامة فى سبيل الفتح النهائى للجزيرة ، ثم كان فتح المسيينا عام ٨٤٢/٢٢٩ والتي ادى فتحها إلى انفتاح الطريق أمام المسلمين إلى جنوب ايطاليا والتي كانت من أواخر ممتلكات البيزنطيين فى حوض المتوسط الأوسط .

ثم كان سقوط قصر يانة عام ٥٤٢ هـ وهو السقوط الذى اهتزت له القسطنطينية وحاولت من ثم استرجاعها بشتى الطرق ولكنها فشلت ^(٨١) . والواقع انه مما تجدر الإشارة اليه هنا هو أنه رغم أن الفتوحات الإسلامية فى غرب أوروبا لم تكن تستند إلى العمق الإسلامى فى المشرق من حيث الحصول على المدد والعون المادى المباشر ، إلا أنه لا يمكن اغفال أن أحد أهم العوامل غير المباشرة فى انجاح الحملات الإسلامية فى الممتلكات البيزنطية فى حوض المتوسط هو نجاح الدولة العباسية فى المشرق فى ابقاء البيزنطيين منشغلين عن ممتلكاتهم فى حوض المتوسط بالخطر العباسى الرابض على حدودهم فى آسيا الصغرى والذى تصاعد فى عهد المأمون والمعتصم اللذين زامن عهدهما حملات الاغالبية على صقلية لتتخذ شكل حملات ضخمة على الامبراطورية فى المشرق .

واذا كانت قوة الدولة العباسية فى المشرق قد ساعدت الاغالبية فى المغرب بصورة غير مباشرة على تحقيق نجاحات واضحة فى غزوهم لصقلية ، الا أن عدم تقديم الدولة العباسية عوناً عسكرياً مباشراً أدى إلى انقضاء العصر العباسى الأول ولم يوفق الاغالبية فى فتح جزيرة صقلية فتحا كاملاً ، ولكن قد يكون عدم اعتماد الاغالبية فى فتوحاتهم على العمق الإسلامى فى المشرق منه . اذا نظرنا له من ناحية أخرى ، حيث إن انقضاء العصر العباسى الأول ، عصر ازدهار الدولة العباسية وبداية العصر العباسى الثانى عصر انحلالها وضعفها ، لم يؤثر بالسلب على فتوح الاغالبية فاستمرت بنفس القوة وسقطت لهم مدن من الجزيرة هامة كانت تهتز لسقوطها القسطنطينية كما اهتزت لسقوط قصر يانة من قبل . كما سيأتى بيانه فى الفصل القادم .

ونزول المسلمين صقلية حتى قبل اتمام فتحها وتأسيسهم حكماً اسلامياً بها استمر رنين من الزمان ، كان له أثر عظيم على مد الفتوحات فى حوض البحر المتوسط وعلى النظم المسيحية المطلة عليه . ذلك أن المسلمين استطاعوا أن يجعلوا من صقلية بحق مفتاح حوض البحر المتوسط الأقصى والغربى خاصة فى ايطاليا ، ولقد ساعدتهم على ذلك ظروف الجانب المسيحى حيث كانت ايطاليا منقسمة فى ذلك الوقت إلى

٨١ - المرجع السابق ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

امارات متنافسة فلجأ بعض أمرائها إلى الجار المسلم القوى فى صقلية للاستعانة به فى صراعاتهم ، فكان أن عرف المسلمون كيف يستفيدوا من هذه الأوضاع فأتخذوا من قواعدهم فى باليرمو والمسيينا خاصة نقطة انطلاق تخرج منها حملاتهم البحرية على سواحل ايطاليا فأحتلوا برنديزى عام ٨٢٦ واجتاحوا نابولى وكلايريا وبنفيوتو وتارنتو وبارى فيما بين ٨٢٦ ، ٨٤٢ وثبتوا أقدامهم فى بعض هذه المناطق لفترات امتدت إلى النصف قرن ، بل أنهم بدأوا محاولات فتح مالطة بدءاً من عام ٢٢١هـ ، وان كان تمام فتحها على أيديهم لم يحدث أيضاً إلا فى العصر العباسى الثانى عام ٨٦٩/٢٥٦ فكان فتحها نصراً عظيماً سوف يدعم من تسيد المسلمين فى حوض المتوسط بسبب موقعها المتوسط وتحكمها فى البواغيز كما سنرى (٨٢) .

ولقد ساعد الأغلبة فى فتح صقلية جماعات يسميها المؤرخون المسلمون مُجاهدة البحر المسلمين ، والواقع أن الحديث عن العلاقات الدولية الصراعية بين القوى السياسية الإسلامية والقوى السياسية غير الإسلامية فى حوض البحر المتوسط بداية من نهاية القرن الثانى الهجرى - الثامن الميلادى لا يمكن أن يغفل الإشارة إلى هذا الطرف الإسلامى الذى مثل ركناً أساسياً فى منظومة التفاعلات الصراعية الإسلامية - غير الإسلامية رغم عدم تكوينهم كياناً سياسياً خاصاً بهم . ولقد كانت بداية ظهور هذه الجماعة على صفحة البحر المتوسط عام ١٩١ / ٨٠٦ بداية قوية تمثلت فى اكتساحهم لجزيرة كورسيكا ، وكان هذا فاتحة نشاط بحرى واسع اضطلعوا به فغزوا جزراً عدة فى البحر المتوسط المرة تلو المرة أهمها كورسيكا وسردينيا وكذا سواحل نيس وبروفانس وسيفيتا وفكشيا ، ولقد وصل خطرهم حداً جعل شارلمان يأمر ببناء الأبراج والحصون على السواحل عند مصب الأنهار لمواجهة غزوات مجاهدة البحر المسلمين والتي كانت قد استفحلت خاصة فى عهده (٨٣) .

وتجدر الإشارة إلى أن معظم غزوات مجاهدة البحر المسلمين كانت للفنائم والأسر وليس للفتح باستثناءات قليلة ولكن هامة وهى مساعدتهم فى فتح صقلية وكذا فتحهم لكريت ، وبالرغم إن هذا فإنه حتى غزواتهم التى لم تكن للفتح كان لها نتائج هامة جداً فيما يتعلق بعلاقات المسلمين بغير المسلمين . فمجاهدة البحر هؤلاء كانوا يقومون بغزواتهم تلك إما لحساب الدويلات الإسلامية القائمة فى المغرب مباشرة وهى القوى الإسلامية التى كان يهملها حضورها القوى فى حوض البحر المتوسط على خلاف الدولة العباسية فى المشرق والتي بعدت بحاضرتها عن السواحل ، وأما لحسابهم الخاص ولكن بتأييد معنوى وكثيراً مادي من هذه الحكومات فى المغرب الإسلامى التى كانت تسمح لهم باستخدام مرافئها وموانئها ، وهذا الدعم لمجاهدة البحر من جانب

٨٢ - المرجع السابق ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

٨٣ - المرجع السابق ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

القوى الإسلامية في المغرب جاء لإيمانهم بأنهم يقدمون لهم خدمات جليلة بأنهاكهم القوى المسيحية بغاراتهم الخاطفة المستمرة ، وكذا بتقديمهم أسرى المسيحيين للقوى الإسلامية يبادلون بهم أسراهم، هذا فضلا عن كونهم قوة عسكرية تضاف إلى قواهم في العمليات العسكرية الهامة مثل فتح صقلية كما ذكرنا (٨٤) .

ومن أبرز الامثلة على الخدمات الجليلة التي قدمها مجاهدة البحر المسلمين للقوى الإسلامية في المغرب في مواجهتها الصراعية مع القوى المسيحية فتحهم لكريت وكذا غزوهم لروما ملكة العالم في ذلك الوقت .

وسوف نستعرض في ايجاز قصة فتح جماعة من مجاهدي البحر لكريت لأنها تلقى بالضوء على بعض جوانب العلاقات الإسلامية - الإسلامية وأثرها على العلاقات الإسلامية - غير الإسلامية . فالجماعة التي قامت بفتح جزيرة كريت عام ٢١٢ / ٨٢٧ وهو نفس العام الذي بدأ فيه الاغالبية محاولات فتح صقلية ، هي أصلا من المسلمين الذين أقاموا بالأندلس الإسلامية فترة حتى ثاروا عام ٢٠٢ على الأمير الأموي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل في قرطبة ولما تغلب عليهم كان الحكم الذي أنزله بهم هو الطرد من البلاد ، فذهب فريق منهم إلى المغرب ووصل الفريق الآخر إلى الاسكندرية في ذات الوقت الذي كانت فيه مصر منتفضة على الخلافة العباسية ، وانتهزت تلك المجموعة التي يفرض طموحها السياسي عليها تحركاتها فرصة الاضطرابات العنيفة في أرض مصر فأستولوا على الاسكندرية حتى نزل مصر عبدالله بن طاهر موفدا من قبل الخليفة المأمون - كما ورد بيانه سابقا - ليمسك بزمام الأمور في يده ، ولقد نجح عبدالله بن طاهر في التغلب عليهم ، كما نجح قبلا الحكم بن هشام في الأندلس ، وكان حكم عبدالله بن طاهر مماثلا لحكم الحكم بن هشام أيضا من حيث طبيعته وإن كان أقسى درجة . فلقد ارتضى عبدالله بن طاهر أن يعقد معهم صلحا يؤمنهم فيه على أن يخرجوا من مصر ولكن على أن لا ينزلوا بأي أرض تابعة للدولة العباسية ، فلما وجدت هذه المجموعة نفسها مطرودة من الدولة العباسية في المشرق بعد أن سبق طردها من الدولة الأموية في المغرب تحولت أنظارهم عن الاراضي الإسلامية وقرروا أن يستوطنوا بدلا منها أرضا غير إسلامية فوق الاختيار على كريت فاحتلوها في نفس عام خروجهم من مصر وهو عام ٢١٢ / ٧٢٨ دون عناء يذكر ساعد على ذلك عجز الامبراطور البيزنطي عن ارسال المدد اللازم لحامية الجزيرة لانشغاله بقمع الثورة في آسيا الصغرى في نفس الوقت (٨٥) .

٨٤ - عنان ، مواقف حاسمة ، م س ذ ، ص ٩٩ - ١٠٠

٨٥ - المرجع السابق ، ص ٨٥ - ٨٧ .

نادية حسنى صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ٩٨ - ١٠٠

وهكذا سقطت كريت للمسلمين بعد محاولات عدة فاشلة لفتحها أخذت شكلا جادا منذ عهد الوليد بن عبد الملك ، ولقد كان إسقوطها وقع الصاعقة على الامبراطورية البيزنطية وذلك لموقعها الاستراتيجي الهام حيث تقسم بحر آيجه إلى قسمين تتحكم فيهما معا .

وكان رد الفعل البيزنطي سريعا حيث أرسل الامبراطور الحملة تلو الحملة أملا في استعادتها قبل أن يثبت المسلمون أقدامهم هناك ولكنه فشل ، ولقد حدث ما كان يخشاه البيزنطيون فلقد أقام المسلمون في هذه الجزيرة دولة قوية (الدولة الحفصية) سرعان ما حصنت الجزيرة وانتقلت من موقع الدفاع إلى موقع الهجوم فهددت سواحل بحر آيجه وجزر الارخبيل بل وأخذوا يهاجمون سواحل آسيا الصغرى أيضا^(٨٦).

فكان سقوط كريت عام ٢١٢ فاتحة لمرحلة من التوسع الاسلامي الزاحف في حوض البحر المتوسط ، دفع مؤرخى الدولة البيزنطية إلى اعتباره نكسة مريرة منيت بها الدولة البيزنطية^(٨٧) ، وخاصة وأن كريت أصبحت بفضل نشاط أسطولها البحري الاسلامي قاعدة نضالية صلبة لا تتوانى عن ضرب المواقع البحرية البيزنطية وأسطولها في غارات متواصلة . وكان من أهم النتائج المترتبة على ذلك النشاط الاسلامي للدولة الحفصية في كريت أن ضعفت قدرة الدولة البيزنطية على مواجهة العباسيين في المشرق خاصة وأن الدولة الحفصية التي قامت في كريت اختارت أن تعلن تبعيتها للدولة العباسية وكانت الجزيرة تابعة اداريا لمصر وإن تمتعت بحكم ذاتي^(٨٨) . فقيام دولة اسلامية في كريت ساعد اذن من ناحية على مد حركة الفتوحات في حوض المتوسط في مواجهة بيزنطة وكذا دول أوروبا المسيحية ، ومثل من ناحية أخرى إضافة إلى قوة الدولة العباسية في مواجهتها للدولة البيزنطية في المشرق ولقد دفع حرج الموقف بالنسبة للدولة البيزنطية إلى العمل على إقامة شبكة من التحالفات الدولية بدأتها بالتوجه إلى ملوك أوروبا المسيحية مثل لويس القتي ابن شارلمان وكذا إلى دوق البندقية وكذا التوجه إلى الأمير الأموي في الأندلس تستعديه ضد العباسيين وضد الحفصيين الذين كانوا أصلا من الثائرين عليه^(٨٩) .

٨٦ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ١٨٢ - ١٨٥

نادية حسنى صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ١٠٠ - ١٠١ ، ص ١٠٧ - ١١٢ .

٨٧ - فازيليف ، العرب والروم ، م س ذ ، ص ١٦٦

٨٨ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ١٨١

نادية حسنى صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ١٠٥

٨٩ - راجع تفصيل بعض محاولات التحالف :

فازيليف ، العرب والروم ، م س ذ ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٥ .

نادية حسنى صقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ١٠٧ - ١١٢ .

فإذا انتقلنا الآن إلى غزو جماعات أخرى من مجاهدة المسلمين لروما لوجدنا مثالا آخر على مدى الاضافة الايجابية التي جسدها هؤلاء لقوة أمة الإسلام خاصة في غرب العالم . ولقد قام مجاهدة البحر المسلمين بغزو روما أكثر من مرة في أعوام ٨٤٦/٢٣١ ، ٨٥٠/٢٣٦ ، ٨٧٠/٢٥٦ ويرى بعض المؤرخين أن تكرار الحملات وجراتها وضخامتها ليعد مؤشرا قويا على أنها خرجت بوحى ومباركة من حكومات اسلامية قائمة في المنطقة ويشيرون إلى صقلية خاصة التي كانت تابعة لأغالبة افريقيا^(٩٠) .

ورغم أن الحملات على روما لم تسفر عن أكثر من الأسلاب والاسرى فضلا عن اللقاء الرعب من المسلمين في قلوب أفراد شعبها ، إلا أن ما يهمننا في مقام دراستنا هذه هو السبب الذي دفع إلى قيام القوى الإسلامية في المغرب بتشجيع مجاهدة البحر على غزو روما ، فالمحللون يؤكدون أن هذه الغزوات كانت ردا حاسما وقويا على غارة وحشية للنورمانديين على ثغر لشبونة في الأندلس عام ٨٤٤/٢٢٩^(٩١) . وهذا يعنى أن المغرب الاسلامى كان قادرا في هذه الفترة على الرد بعنف على أى تعدى على أراضيه مثله في ذلك مثل المشرق الاسلامى . في ذات فترة الدراسة . والمحصلة أن العالم الاسلامى في شرقه وغربه في العصر العباسى الأول كان ومازال ممسكا بزمام المبادرة في يده فيما يتعلق بعلاقاته الدولية سواء كانت الأطراف الفاعلة في هذا العالم الاسلامى تتبع سياسات فتح وتوسع أم لا تتبعها .

ثم إن هذه الغارات على روما نتيجة العدوان المسيحى على ثغر لشبونة تلقى بالضوء على بعض أوجه علاقات القوى الإسلامية في مغرب العالم الاسلامى . فرغم أن هذه الغارة على ثغر لشبونة كانت موجهة ضد أرض تابعة للدولة الأموية ، ورغم أن الأمير الاندلسى عبدالرحمن الابن جرد ضدها جيوشا الحقت بالنورمانديين هزيمة نكراء ، إلا أن هذه الغارة النورماندية قد استثارت أيضا حمية القوى الإسلامية الأخرى في المنطقة، حيث خرجت حملات مجاهدة البحر على روما بوحى ودعم من حكومة صقلية^(٩٢) .

ثم إن الغارات والغارات المضادة أظهرت أيضا وبوضوح أنه رغم ظهور الجانب الاسلامى في الجزء الغربى من العالم على الجانب المسيحى في هذا المكان من المعمورة ، إلا أنه لم يكن يواجه خصما ضعيفا يمكن الاستهانة به . فروما في ذلك

٩٠. انظر تفاصيل الغزوات في :

عنان ، مواقف حاسمة - م س ذ - ص ٩٩ وما بعدها

رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا - م س ذ ، ص ١٩٢ ، ١٩٤ .

٩١ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ١٩٤ .

٩٢ - المرجع السابق ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

الحين كانت تحت حماية دولة الفرنجة بعد أن توج البابا شارلمان امبراطورا على الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ٨٠٠ ، ولقد جهز شارلمان جيشا ضخما ارد هذه الغارة الإسلامية ، وكانت قوة الدفاع المسيحي على روما سببا مرة أخرى في ظهور التكافل الاسلامي في هذا الجزء من العالم حيث أرسل المسلمون في كافة الثغور الايطالية المدد البحري للمجاهدة فدارت معركة عنيفة أظهرت بوضوح ندية الجانبين الإسلامي والمسيحي في هذا الجزء من العالم ، وكانت هذه دلالة واضحة على مدى عنف الصراع الذي سيدور بينهما في هذه المنطقة في المستقبل (٩٣) .

يتضح من استعراضنا لنشاط الأغالبة ومجاهدة البحر المسلمين في حوض المتوسط أن هاتين القوتين نجحتا في إنهاء تسيد الدولة البيزنطية على هذه الجزر واحتلتا السيادة الإسلامية عليه بدلا منها ، فكان القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي الذي شهد تولى دولة الخلافة عن الاهتمام بالبحر المتوسط هو بحق عصر السيادة الإسلامية على هذا البحر نتيجة نشاط القوى الإسلامية المستقلة القائمة في هذا . ومن أهم النتائج المترتبة على هذا الظهور الاسلامي في حوض البحر المتوسط هو أنه مهد للدور الأخير من أدوار المد الاسلامي في أوروبا والذي حمل المسلمين إلى حدود المانيا وسويسرا (٩٤)، ولكن الفاعل الاسلامي الرئيسي الذي اضطلع بدور الغزو داخل الأراضي الاوربية كان طرفا مناهضا للدولة العباسية في المشرق على خلاف الأغالبة والحفصيين ، هذا الفاعل هو الامارة الأموية في الاندلس، وينقلنا هذا إلى المطلب الثاني من هذا المبحث .

المطلب الثاني : العلاقات الصراعية بين الدولة العباسية والدويلات المستقلة المناهضة لها وانعكاس ذلك علي سياسات الفتح والتوسع :

إذا كان الأغالبة قد تمتعوا باستقلالهم الذاتي برضا وقبول من الخلافة العباسية ، فإن المغرب الاسلامي شهد ظهور قوتين اسلاميتين مناهضتين للدولة العباسية أقام كل منهما دولة قوية قامت بدور رئيسي في الفتح والتوسع ونشر الإسلام . ورغم هذا فإن علاقة الدولة العباسية بهما كانت علاقة عدااء سافر وصدام ظاهر أحيانا وخفى أحيانا أخرى ولكنه أثبت في كل الأحوال أن التعددية السياسية في إطار الوحدة الإسلامية الكبرى لم تكن تحظى بشرعية وقبول مطلقين في هذه الفترة بل كانت مشروطة، على الأقل من وجهة نظر دولة الخلافة ، بأن تكون هي المانحة لحق الاستقلال حتى تكسبه

٩٣- المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

٩٤- المرجع السابق ، ص ص ١٩٥ - ١٩٦ .

صفة الشرعية ، فاستقلالية الأغلبية كانت اذن شرعية من وجهة نظر الدولة العباسية ، أما دولة الادارسة والدولة الأموية فى الأندلس فكانتا عند العباسيين تجسيدا للتمرد على شرعية العباسيين يجب مواجهته والتصدي له .

فإذا نظرنا إلى دولة الادارسة الشيعية التى قامت فى مراکش والتى أقامها ابن أحد الثائرين على الدولة العباسية فى الحجاز والذى فر منهم إلى الشمال الافريقى ، كما سبق بيانه ، لوجدنا الخليفة هارون الرشيد يفكر بصورة جدية فى ارسال جيش لاسترداد مراکش من الادارسة خاصة عندما بدت نيّتهم واضحة فى ضم أفريقية أيضا والتى قام بها الأغلبية اتباع الدولة العباسية ، ولكن بعد الشقة على الجيش الذى يخرج من بغداد جعل الرشيد يحجم عن ذلك ويلجأ إلى القضاء على ادريس بالسم أملا فى سقوط دولته بعد موته . وهو إن كان قد نجح فى إرسال من دس السم عليه فمات إلا أنه لم ينجح فى اسقاط دولة الادارسة (٩٥) .

وكان فى استمرار دولة الادارسة كسبا واضحا للإسلام حيث قاموا بحملة إلى مناطق لم يتوجه إليها أى من القوى الإسلامية الأخرى فى المنطقة . وفى حين وجهت الدويلات الإسلامية فى الشمال الافريقى أنظارها عبر الساحل الشمالى لافريقيا نحو البحر المتوسط وما وراءه ، فإن الادارسة قد يمموا وجوههم صوب الداخل - داخل القارة الافريقية - حيث عملوا على حمل الإسلام إلى الصحراء الكبرى التى تفصل بلاد المغرب عن السودان (٩٦) ، وستكون مبادراتهم تلك بنشر الإسلام داخل افريقيا مقدمة وتمهيدا لظهور دولة المرابطين التى نشرت الإسلام فى مناطق عدة من افريقيا السوداء ثم تقدمت للزود عن الإسلام فى المغرب والأندلس فى وقت من أصعب الأوقات التى مرت بها الدولة الإسلامية فى مواجهتها لقوى الاسترداد المسيحية كما سنرى بالتفصيل فى الفصل الثالث من هذا الباب .

أما الدولة الأموية التى أسسها فى الأندلس الأمير الأموى الهارب من مذابح العباسيين عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان عام ٧٥٦/١٢٨ ، أى بعد ست سنوات فقط من قيام الدولة العباسية فقد كانت شوكة فى جنب هذه الدولة أقضت مضجع خلفائها تفكيراً فى كيفية التصدي لها والقضاء عليها . ويصل بعض المؤرخين فى تحليلهم لأثر قيام الدولة الأموية فى الأندلس إلى حد القول بأن قيامها كان بمثابة انقسام العالم الإسلامى إلى دولة شرقية وغربية على غرار انقسام العالم المسيحى إلى الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الرومانية المقدسة ، بكل ما يحمله هذا من معانى العداء والصراع والخوف والحذر والتوجس بين طرفى العالم

٩٥ - حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ .

٩٦ - راجع التفاصيل فى رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ص ٢٧٨ - ٢٨٠ .

الواحد . بل الأخطر من ذلك ما دفع اليه هذا العداء والخوف من قيام علاقات تحالف وتقارب ومودة بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة في جانب بسبب عدائهما المشترك لأموي الأندلس وبين الأخيرين والامبراطورية البيزنطية في الجانب الآخر بسبب عدائهما المشترك للدولة العباسية ، يسر من اجراء هذا التحالف العداء المستعر بين الدولة الرومانية الشرقية والدولة الرومانية الغربية .

وهكذا بعد أن كان عالم البحر المتوسط في عهد الدولة الأموية ينقسم بين المسلمين والمسيحيين في علاقة مواجهة صراعية واضحة ، أضحي ينقسم مع بداية الدولة العباسية بين تكتل اسلامي مسيحي في جانب ضد تكتل اسلامي مسيحي في الجانب الآخر ^(٩٧) . وكان هذا من أوائل الاشارات الدالة على تحول العالم ، مع اختفاء الخلافة الأموية وحلول العباسية محلها ، من نظام ثنائي الأقطاب إلى نظام متعدد الأقطاب تسرده تحالفات تحكمها المصالح السياسية قبل الأهداف الدينية .

والواقع أن محاولات العباسيين القضاء على الدولة الأموية الناهضة في الأندلس بدأت منذ عهد الخليفة المنصور الذي خطط لاشعال ثورة في الأندلس بيد أحد صنعائه عام ١٤٦ تمكّن الداخل من إخمادها وكذا من القضاء على الجيوش التي أرسلها هذه العباسيون من افريقية الأغالبة . ولقد كان هذا الفشل في استخدام أسلوب المواجهة السافرة سببا في تحول المنصور إلى أسلوب المداينة في محاولة استمالة الداخل وإقناعه التنازل للعباسيين والأقرار بخلافتهم ، ولما فشل هذا الأسلوب أيضا كان لجوء العباسيين إلى اقامة تحالفات مع القوى السياسية غير الإسلامية المجاورة لهذه الإمارة المنشقة لتهديدها ^(٩٨) ، وإذا كانت هذه التحالفات لم تسفر عن أى تحرك مشترك إلا أن أثارها السياسية الدولية كانت واضحة حيث أنها ساهمت في تشكيل إدراك كل من الإمارة الأموية ودولة الفرنجة بخطر كل منهما على الآخر ، ولقد ضاعف من أحساس أموي الأندلس بهذا الخطر لجوء الكثير من الثائرين على الحكم الأموي في الأندلس إلى ملوك الفرنجة وكذا إلى الممالك المسيحية في شمال الأندلس يستقرون بهم .

وسوف نلاحظ أن تحرك الامارة الأموية في الخارج سوف تحكمه عوامل داخلية أيضا ، أولها تثبيت دعائم حكمها ضد محاولات الإجهاض العباسية ، ثم تثبيت دعائم حكمها ضد محاولات التنافس الداخلي فيها على السلطة . وسيظهر تحليل الأحداث إنه مع نجاح الإمارة الأموية في مواجهة هذه العوامل الداخلية ستكون انطلاقة الجهاد -

٩٧ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ص ١٤٧ - ١٤٨ - ١٥٦ .

٩٨ - حسن ، تاريخ الإسلام ، م س ذ ، ج ٦ ، ص ص ٢٢٩ - ٢٤٢ .

عبد الجليل عبد الرضا الراشد ، العلاقات بين الدولة العباسية والأندلس في القرنين الثاني والثالث الهجريين (الرياض - مكتبة النهضة - ١٩٦٩) ص ص ١١٢ - ١١٣ ، ١٤٧ ، ١٥٤ .

بالتحالف مع الدولة البيزنطية ضد الفرنجة - وأنه مع ظهور هذه العوامل الداخلية من جديد وتحت وطأتها سيكون الانكسار . . . وهكذا بين شد وجذب .

ولقد أثر الادراك الاموى لخطورة دولة الفرنجة على نمط تحالفاتها الدولية حيث لجأت فى مواجهة هذا الخطر المسيحى المزدوج على حدودها الشمالية وكذا الخطر العباسى إلى التحالف مع الدولة المسيحية الند لدولة الفرنجة وكذا للدولة العباسية وهى الامبراطورية البيزنطية ، كما أنها لجأت أيضا إلى التحالف مع مقاطعة بافار شمال البرنيه لتكون حاجزا بينها وبين دولة الفرنجة ^(٩٩) ونلاحظ هنا احياء واضحا لسياسة دولة الخلافة الأموية فى المشرق الاسلامى مع سكان الحدود بينها وبين الدولة البيزنطية كما سبقت الإشارة اليه تفصيلا .

ثم أن نمط التحالفات الجديد قد أثر بوضوح على طبيعة التوجه الدولى للامارة الأموية الوليدة ، حيث إن ادراكها لمدى الخطر الذى تمثله دولة الفرنجة وكذا الامارات المسيحية فى شمال اسبانيا دفعها إلى اتباع سياسة هجومية على غرار سياسة أسلافهم الأمويين القائمة على شعار أن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، وليس لهذا إلا معنى واحد هو الفتح والتوسع . وهكذا أحييت الامارة الأموية سياسة الخلافة الأموية ولكن هذه المرة فى أملاك الامبراطورية الرومانية المقدسة وليس فى أملاك الامبراطورية البيزنطية التى اوضحت حليفة أموى اليوم بعد أن كانت عدوة أموى الامس .

ولقد ساعد على حسم توجه الامارة الأموية نحو اتباع سياسة هجومية واضحة ضد الفرنجة تطور التحالف العباسى - الفرنجى ضدها من مجرد التناصر المعنوى فى عهد المنصور إلى اقامة تحالف عسكرى فعلى فى عهد المهدي بن منصور استهدف القضاء على الحكم الأموى فى الأندلس .

ففى فترة حكم المنصور حدثت فتنة داخلية فى الأندلس كان أساسها قيام تحالف قوى بين ثلاثة من الولاة المسلمين هناك غرضه اسقاط الحكم الأموى وإعادة الأندلس إلى حظيرة الدولة العباسية ، ولهذا الغرض اتصل هؤلاء أولا بالخليفة المهدي فى بغداد لاعانتهم بجيش من شمال أفريقيا ثم اتصلوا ثانيا بشارلمان الذى كان فرغ فى تلك الأثناء من حروبه فى أوروبا وتطلع إلى اسقاط العدو الإسلامى الخطر على حدوده الجنوبية . ولقد التقت مصالح الخليفة العباسى والامبراطور الفرنجى على أسقاط الحكم الأموى فى الأندلس فوافق كل منهما على المشاركة فى الخطة التى وضعها المتمردون الثلاثة وجاءت موافقة شارلمان مشروطة بتسليم مدنا إسلامية عدة تمكنه من فرض سيطرته كاملة على نصف اسبانيا كله ^(١٠٠) .

٩٩ - نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية ، م س ذ ، ص ١١٠

رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ص ١٤٨ - ١٥١ .

(١٠٠) رمضان ، الصراع بين العرب المسلمين ، م س ذ ، ص ص ١٤٩ - ١٥١ .

ولقد وعد الولاة المسلمون بتسليمه تلك المدن مقابل اطباقه من الشمال بجيش ضخم فى ذات الوقت الذى يتقدم فيه الجيش العباسى من الجنوب لتقع اسبانيا الإسلامية بين فكى الكماشة الإسلامية /المسيحية ، ولظروف عدة تتعلق بالاختلاف فى خروج توقيت الجيوش الإسلامية والمسيحية وبانفجار ثورة داخل المملكة الافرنجية قدر شارلمان أن خطرهما مؤكد ، وأهم من ذلك بالنسبة لموضوع دراستنا ، رفض أهالى مدينة سرقسطة احدى المدن التى كان من المتفق أن تسلم لشارلمان - تسليم مدينتهم لملك مسيحي واغلاقهم أبواب المدينة فى وجهه ووجه حلفائه المسلمين ، لكل هذه الأسباب مجتمعة فشلت الخطة الإسلامية - المسيحية لاسقاط الحكم الأموى فى الأندلس ، والأكثر من ذلك أنه فى طريق عودة شارلمان إلى بلاده لمواجهة الثورة عليه هناك أوقع به المسلمون القاطنون فى جبال البرنثيه هزيمة نكراء فى موقعة باب الشزرى (رونسفال) ٧٧٨/١٦١ (١٠١)

وتعتبر موقعة باب الشزرى من المواقع الحاسمة فى تاريخ التعامل الصراعى الإسلامى /غير الإسلامى حيث أنها انقذت أسبانيا الإسلامية من السقوط فى يد شارلمان . ورغم تربصه المستمر بها، إلا أن وقع الهزيمة الثقيل يظهر واضحا فى رفضه طلب هارون الرشيد تجديد التعاون العسكرى بين الدولة العباسية وامبراطورية شارلمان والمستهدف اسقاط الأمويين من الأندلس ، فرغم قيام علاقات ودية جدا بين الدولة العباسية والامبراطورية الرومانية المقدسة فى عهد هارون الرشيد وشارلمان إلا أن الأخير تحفظ على فكرة خوض حرب جديدة ضد الأمويين بناء على طلب الرشيد فى بعثته الدبلوماسية الشهيرة إلى بلاط شارلمان والتى تناقلت المراجع الاجنبية أخبارها (١٠٢) .

ولقد كان لانتصار المسلمين فى باب الشزرى أثر بالغ فى اصفاء قدر كبير من الشرعية على حكم الأمويين فى الأندلس ليعكر صفوها إلا بعض التمردات الداخلية التى أولاها عبدالرحمن الداخل اهتمامه بعد انحسار الخطر الخارجى ولو إلى حين ولكن مع موت الداخل تولى أبنه هشام عام ١٧٢ وأنشغاله بحربه مع اخيه على الامارة نجد موقفا شعبيا مشابها لما سوف يحدث فى بغداد حاضرة الدولة العباسية عندما سينشغل خلفاؤها بأمورهم الداخلية عن صد الأعداء وذلك فى العصر العباسى الثانى كما سيرد بيانه فى الفصل القادم ، فنجد العامة تتور فى أيام هشام معترضين على

١٠١- انظر تفاصيل المعركة فى :

رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ص ١٥١ - ١٥٢ .

عنان ، مواقف حاسمة م س ذ ، ص ص ٧١ - ٨٢ .

١٠٢- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ص ١٥٢ - ١٥٤ .

عنان ، مواقف حاسمة ، م س ذ ، ص ص ٨٢ .

انشغال ولاة أمورهم بقتال بعضهم البعض عن قتال غير المسلمين ، وزاد من خطورة الموقف الداخلى أن بعض الفقهاء قد أفتى بعدم جواز دفع الخراج لأمرء يقاتلون مسلمين مثلهم ، بل واجريت فى بعض الحالات مقارنات بين أمرء بنى أمية فى الأندلس والخلفاء العباسيين الذين كانوا فى ذلك الوقت يتابعون التصدى للقسطنطينية بندية ويرسلون على حكامها الحملة تلو الأخرى (١٠٢) . ولقد استجاب هشام بن معاوية لدعوى الفقهاء والعامّة وبدأ سياسة جهاد واضحة استمرت طوال فترة حكمه على محورين أساسيين :

الأول محور مسيحي شمال الأندلس الذين استقروا فى ركنها الشمال الغربى أثناء فتح المسلمين للأندلس عندما انسحب القائد بلاى ببقايا الجيش القوطى إلى إقليم اشتورياس وتركهم الفاتحون أستهانة بشأنهم ولكنهم كانوا قد استغلوا فرصة انشغال أمرء بنى أمية بتوطيد دعائم ملكهم وكذا صراعهم مع مملكة الفرنجة فأستفحل أمرهم بزعامة بلاى.

وأما المحور الثانى فهو محور مملكة الفرنجة ذاتها والتي كان قد نجح زعيمها بيبين وابنه شارلمان من بعده فى استرداد معظم جنوب فرنسا من المسلمين أثناء انشغال الأمويين بالتمكين لحكمهم فى الأندلس (١٠٤) فبعد هزيمة المسلمين فى معركة بلاط الشهداء عام ١١٤ والتى ورد ذكرها تفصيلا عند دراستنا للدولة الأموية ، استطاع ولاة الأندلس فى عهد دولة الخلافة الأموية أن يلمموا شتات أمرهم ولو نسبيا وبدأوا الإغارة مرة أخرى على فرنسا متخذين من قاعدتهم فى سبتمانيا فى جنوب فرنسا نقطة انطلاق عبر جبال البرنية إلى أوروبا حيث لم يطارده شارل مارتل المسلمين بعد هزيمتهم فى بلاط الشهداء وارتدادهم إلى قاعدتهم فى سبتمانيا ليطردهم منها . ولقد أدرك بيبين بن شارل مارتل وحفيده شارلمان مدى فداحة الخطأ الذى وقع فيه مارتل وقررا أن السبيل الوحيد للقضاء على تهديد المسلمين للأراضى الأوروبية هو انتزاعهم من سبتمانيا وردهم إلى ما وراء البرنية ، ولقد نجح بيبين فى ذلك مستغلا ظروف نهايات دولة الخلافة الأموية وما صاحبه من اضطرابات داخلية فى جميع أنحائها دون استثناء ، وكذلك امتداد هذه الاضطرابات فى بداية عهد الامارة الأموية ، فتقدم ينتزع أملاك المسلمين فى جنوب فرنسا الواحدة تلو الأخرى حتى تم له ذلك بحلول عام ٧٦٠/١٤٢ (١٠٥) .

١٠٢ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ص ١٥٧ - ١٥٨ .

١٠٤ - المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

١٠٥ - المرجع السابق ، ص ص ١٤٦ - ١٤٧ .

عنان ، مواقف حاسمة ، ص ص ٧١ - ٨٢ .

ولقد رأينا أنه في الوقت الذي بدأ فيه الأمراء الأمويون في الأندلس مستعدين لمواجهة الأخطار الخارجية من دولة الفرنجة كان شارلمان قد أفاق هو أيضا من حروبه مع القبائل السكسونية الوثنية وبدأ يستعد للخطر الأسباني على حدوده الجنوبية ، والواقع أن مطالبة مسلمي الأندلس حاكمها هشام بن معاوية بن عبدالرحمن الداخل بضرورة جهاد المسيحيين في الشمال قد يكون رد فعل للهمة الدينية العالية للامبراطور شارلمان الذي كان يحارب قبائل أوروبا الوثنية ويرغمها على اعتناق النصرانية (١٠٦) ، بما يحمله هذا من معاني أكتساب السيادة الدينية على الأمة النصرانية ، وكذا علاقاته الطيبة مع البابوية وتنصيب البابا له امبراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة .

وهكذا اتخذت المواجهة بين الامارة الأموية في الأندلس بداية من عهد هشام بن معاوية وبين امبراطور الفرنجة بزعامة شارلمان طابعا دينيا واضحا حيث أضيف كل جانب على حروبه مع الجانب الآخر سمة الجهاد الديني سواء باسم الإسلام أو المسيحية .

ولذا نجد هشام بن معاوية يعلن الجهاد بين صفوف المسلمين ويستخدم من تقدم منهم في حروب على محوريين : محور الامارات المسيحية في شمال الأندلس الذي جرد عليها جيشا عام ٧٩٢ أوقع هزيمة نكراء بجيوش قشتالة وجليقية، وكذا محور مملكة الفرنجة حيث خرج جيش أموي الأندلس عليها عام ٧٩٣ في وقت كان شارلمان مشغولا بحروب اوربية على ضفاف الدانوب فكانت هذه الحملة من أنجح الحملات حيث تقدم المسلمون في جنوب فرنسا ، في اربونة وسبتمانيا وغيرها من الممتلكات التي نجح الفرنجة في انتزاعها من المسلمين كما ذكرنا ، ولقد كان لانتصارات المسلمين الساحقة في هذا الاقليم بعد طول غيبة عنه أثر ايجابي في رفع معنويات الجيش الإسلامي وزيادة تقدمه ، كما أن هذه النجاحات استنفرت مسيحيي أوروبا من اقليم تولوز الذين استنفروهم حاكمها بشعارات الجهاد فكانت معارك حامية استتمت فيها كلا الجانبين ولكن النصر في النهاية كان لمسلمي الأندلس (١٠٧) .

ولقد كان لانتصار المسلمين في هذه الغزوة في جنوب فرنسا آثار واضحة على قرار هشام بن معاوية الاستمرار في سياسة الجهاد تلك ، ورغم قلة ما كان يتجمع له من قوات يستنفرها للجهاد مقارنة بما كان يتجمع لولاء الأندلس من مجاهدين في عهد دولة الخلافة الأموية حيث كان المجاهدون وقتها يأتون من كافة أنحاء دولة الإسلام الواحدة - لا يستثنى من ذلك الشام والجزيرة العربية - في حين أن المجاهدين

١٠٦ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ٣ ، ص ١٥٣ .

١٠٧ - المرجع السابق ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

فى عهد الأماره الأمويه للاندلس وبسبب الانقسام فى دولة الإسلام بين العباسيين فى المشرق والأمويين فى الأندلس ، وكانوا يأتون من الأندلس وجبال البرينيه على أكثر تقدير ، إلا أن هشام بن معاوية أستطاع أن يخوض بهم حروباً مستمرة على محوري الصراع فى ذلك الجزء من العالم أثبتت ان زمام المبادرة عاد ليد المسلمين مرة أخرى فى مواجهة الاسبان والفرنسيين المسيحيين (١٠٨) .

ولكن هذا المد الاسلامى الأموى انكسرت حدته إلى حد ما فى عهد الحكم بن هشام وهنا يظهر مرة أخرى عامل البيئة الداخلية ومدى تأثيرها على القدرة على التعامل الخارجى الفعال ، فمعظم سننى حكم الحكم انقضت فى مواجهة للثورات الخطيرة التى ثارت ضده فى الداخل ، والتى كان من آثارها تجرؤ الممالك المسيحية فى الشمال ومملكة الفرنجة على الأراضى الإسلامية بل ونجاح الفرنجة فى إقامة تحالفات تمكن من اسقاط برشلونه فى يدهم عام ١٨٥ / ٨٠١ بعد أن بقيت فى يد المسلمين تسعين عاماً . ولقد كان لسقوط برشلونه صدى حزيناً وقاسياً فى نفوس مسلمى الأندلس وذلك لموقعها الحصين فى الشمال الشرقى للاندلس واطلالها على البحر المتوسط وقربها من فرنسا ففقدوا بقعدها قاعدة حصينة لهم كانت تخرج منها غاراتهم على محوري الصراع مع المسيحيين ، ويقدر ما كانت خسارة المسلمين بفقد برشلونه قاسية كان ضم فرنسا لها كسباً وإضافة لقوتها حيث أضحت لها قدم ثابتة فى شمال اسبانيا ، ولقد أدى سقوط برشلونه للفرنج إلى تأجج الصراع بين أموى الأندلس والفرنجة فدارت الحرب سجالات بينهما منذ سقوط برشلونه وحتى وفاة الحكم فى ٨٢١/٢٠٦ وحرص المسلمون خاصة على أن يعينوا جيوشهم تعبئة دينية خاصة فى الحملة التى حاولوا فيها استرداد برشلونه عام ٨١٥/١٩٩ ورغم أن كل هذه الحملات الممتدة والمستمرة لم تستطع أن تكسب للمسلمين أراضى طوال عهد الحكم إلا أنها نجحت فى وقف خطر امتداد الفرنجة جنوباً على الساحل الشرقى للاندلس مستفيدين من تواجدهم فى برشلونه (١٠٩) ، ولكن قدر للاندلس الأموية أن تستعيد ثقتها وقدرتها على أخذ زمام المبادرة فى يدها فى صراعها مع الامبراطورية الرومانية المقدسة وأمارات الشمال اسبانيى المسيحية فى عهد عبدالرحمن بن الحكم (الوسط) فلقد جعل عبدالرحمن الأوسط لصراعه مع الأسبان والفرنسيين الأولوية على أى صراع داخلى ، وكان لا يكاد يخلو عام من أعوام حكمه من غزوة أو أكثر فى أرض هذين العدوين . ولقد استغل فى مواجهته للفرنسيين خاصة الأوضاع الداخلية المتردية فى الأقاليم التابعة لهم خاصة فى شمال أسبانيا حيث كان أهلها المسيحيون تأثرين بصفة مستمرة على الفرنسيين لقسوتهم ولذلك كان عبدالرحمن الأوسط يستجيب لأى

١٠٨ - المرجع السابق ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

١٠٩ - انظر التفاصيل فى المرجع السابق ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

دعوة من هؤلاء الأهالي لمساعدتهم فى التخلص من الفرنسيين فى مقابل اعلانهم
التبعية والطاعة للمسلمين أو تسليمهم مدنا مسيحية (١١٠) .

ثم إن عبدالرحمن الأوسط قد نجح فى فتح جبهة جديدة للمد الاسلامى فى المغرب
وهى جبهة البحر المتوسط ، فلقد كان من النتائج الحاسمة لغزوة النورمانديين على ثغر
اشبيلية عام ٢٢٩ - ٢٣٠ وهى الغزوة التى سبقت الإشارة اليها فى حديثنا عن غزوة
مجاهدة البحر لروما ، أن تنبه عبدالرحمن الأوسط لضرورة تدعيم الأسطول البحرى
للأندلس الإسلامية والتى كان قد وضع الداخل - مؤسس الامارة - نواته ولكن انشغل
خلفاؤه بحروبهم داخل أوروبا عن تدعيمه ، فاستعدادا لآى غزو بحرئى محتمل فى
المستقبل على ثغور الأندلس قام عبدالرحمن الأوسط بإنشاء ترسانة بحرية ضخمة فى
اشبيلية ، ورغم أن تطوير الأسطول وتدعيمه كان لغرض دفاعى فى الأساس إلا أنه
سرعان ما أستخدم أموى الأندلس هذا الأسطول الضخم فى الهجوم على جزر البليار
القريبة من سواحل الأندلس فتم لهم فتحها وضمها إلى دولة الإسلام عام ٢٣٤ هـ (١١١)

ونتذكر هنا أن المسلمين الذين أقاموا إمارات لهم على طول الساحل الشمالى
لافريقيا قد نجحوا فى الاستيلاء قبلا على كورسيكا وسردينيا وكذا فتحوا كريت
وكانوا فى سبيلهم إلى فتح صقلية ثم مالطة ، فلما نجح أموى الأندلس فى اضافة
جزر البليار أيضا إلى أملاك المسلمين أضحى القرن الثالث الهجرى /التاسع الميلادى
هو عصر السيادة الإسلامية الغربية على حوض المتوسط (١١٢) .

وهكذا بنهاية العصر العباسى الأول ، كانت الأندلس الأموية فى أقصى الطرف
الغربى من العالم الاسلامى تقف على قدم المساواة مع الامبراطورية الرومانية المقدسة
وتخوض ضدها صراعا ظهرت فيه بوضوح نديتها لها رغم عدم استنادها إلى العمق
الاسلامى فى المشرق العباسى ، ثم إن خطى النظام الدولى المترددة نحو النظام
متعدد الأقطاب وقت خروجه من عصر الدولة الأموية وولوجه إلى عصر الدولة العباسية
أضحى مع نهاية العصر العباسى الأول وبفضل إنجازات أمراء الأندلس الأمويين
لإقامة دولة عظمى حقيقة ثابتة حيث انتهت القطبية الثنائية تماما وأضحى النظام
الدولى نظاما تتنازع أطراف أربعة كل منها يمثل دولة من دول العالم العظمى وهى
الدولة العباسية فى بغداد والدولة الأموية فى الأندلس والدولة البيزنطية فى الشرق
والدولة الرومانية المقدسة فى المغرب . ولانستطيع أن نغفل كذلك القوى الدولية الموجودة
على الحدود الشرقية لديار الإسلام فى آسيا كالصين مثلاً .

١١٠ - راجع المرجع السابق ، من ص ١٦٣ - ١٦٤ .

١١١ - المرجع السابق ، من ص ١٩٥ - ١٩٦ .

١١٢ - المرجع السابق .

خاتمة :

رغم أن سقوط دولة الخلافة الأموية - دولة الفتوحات الكبرى - كان يعنى توقف مد الفتوحات الإسلامية إلا أن هذا لايعنى أن الصراع بين المسلمين وغير المسلمين قد توقف فى العصر العباسى الأول .

فلقد استمر الصراع محتدما بين الطرفين طوال هذا العصر ودائرا حول محورين بعد أن كان له محور واحد فى العصر الأموى هو المحور الأموى /البيزنطى ، أما فى العصر العباسى الأول فلقد دار الصراع حول محور شرقى طرفاه الدولة العباسية والدولة البيزنطية ومحور غربى أطرافه هى الامارة الأموية فى الأندلس والدويلات الإسلامية المستقلة فى الساحل الأفريقى الشمالى من جانب ودولة الفرنجة من الجانب الآخر .

وإذا كان الصراع على المحور الغربى قد أخذ شكل المد الفتحي على خلاف ما كان عليه الحال فى المحور الشرقى ، إلا أن حركة الفتح هناك لايمكن مقارنتها لامن حيث الدرجة ولا الاستمرارية بحركة الفتوحات الكبرى فى عصر دولة الخلافة الأموية . والواقع أن سببا رئيسيا للحد من قدرة المغرب الإسلامى على قيادة حركة فتوح كبرى مثل التى قادتها دولة الخلافة الأموية رغم رغبته واستعداده هو الانقسام الذى أصاب دولة الإسلام بعد ست سنوات فقط من زوال دولة الخلافة الأموية وقيام دولة الخلافة العباسية مكانها حيث قامت الدولة الأموية فى الأندلس وأخذت قرطبة عاصمة لها ودخلت فى علاقات صراع وعداء وخوف وشك وتوجس مع الدولة العباسية فى المشرق وعاصمتها بغداد فأضحى كل منهما أقرب إلى طرف غير مسلم عنه إلى الطرف الإسلامى الآخر ، ولقد أثر هذا بلا شك على قدرة الطرف الإسلامى الراغب فى الفتح على تحقيق أنجازات ضخمة فى هذا المجال لانشغاله بعلاقاته الصراعية مع الطرف الإسلامى الآخر ، وبالفتن الداخلية التى كانت فى كثير من الأحيان انعكاساً لهذا الانقسام فى دولة الإسلام وكذا لاضطراره الدخول فى علاقات تحالف مع أطراف غير إسلامية أثرت بالضرورة على مصداقية دعاواه للجهاد من جانب وكبلت قدرته على التوسع فى أملاك الطرف غير الإسلامى الحليف من جانب آخر .

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أن انقسام العالم الإسلامى إلى دولتين إسلاميتين متنافستين جعل أمكانية قيام دول المغرب الإسلامى بفتوحات فى أوروبا على غرار الفتوحات التى تمت فى آسيا وشمال أفريقيا والأندلس فى عهد الخلافة الأموية أمرا شبه مستحيل وذلك لسبب بدهى وهو أن فتوحات دولة الخلافة الأموية تمت تحت راية دولة واحدة موحدة قوية سياسيا واقتصاديا ، أما الامارة الأموية فى الأندلس فمهما وصلت حدود ثروتها الاقتصادية وقوتها السياسية والعسكرية فإنها لايمكنها أن

تقوم وحدها بفتح أوروبا دون أن تستند إلى العمق الإسلامي في المشرق ، وبالتالي فإن فكرة غزو القسطنطينية من الغرب ، من الأندلس ، والتي كان قد فجرها فتح موسى بن نصير لاسبانيا قد انتهت بعد أنقسام دولة الإسلام وذلك لأن أساسها وهو الدولة الإسلامية الموحدة التي تدعم من المشرق الشرق هذا المشروع الذي يبدأ من الغرب ، لم تعد قائمة فحل محلها دولة مشرقية ودولة مغربية تأكلهما علاقات العداء وتآكل معهما كل المشاريع الكبرى التي يمكن لدولة إسلامية قوية وموحدة أن تحققها .

وهكذا ورغم تمسكنا بالمقولة التي بدأنا بها هذا الفصل والتي حاولنا اثباتها على طوله وهي أن توقف حركة الفتوحات والتوسع في المشرق الإسلامي في العصر العباسي الأول قابلها مد فتحي واضح في المغرب الإسلامي ، إلا أننا نلفت النظر في خاتمة الفصل إلى أن حركة الفتح داخل أراضى أوروبا من الغرب لا يمكن أن تقاس ، على أي مستوى من المستويات ، بما حدث والمسلمون مجتمعون كلهم في ظل دولة واحدة هي دولة الخلافة الأموية .

الفصل الثاني

العصر العباسي الثاني : ٢٤٧ - ٤٤٧ هـ / ٨٦١ - ١٠٥٥ م
انتهاء دور الدولة العباسية كقوة مركزية في التعامل الدولي بدء
صعود الدولة الفاطمية في المشرق والدولة الأموية في المغرب مع
تكرس نمط اللامركزية والتعددية في دار الإسلام

الفصل الثاني

العصر العباسي الثاني : ٢٤٧ - ٤٤٧ هـ / ٨٦١ - ١٠٥٥ م
انتهاء دور الدولة العباسية كقوة مركزية في التعامل الدولي بدء
صعود الدولة الفاطمية في المشرق والدولة الأموية في المغرب مع
تكرس نمط اللامركزية والتعددية في دار الإسلام

مقدمة :

إذا كانت الدولة الأموية هي دولة الفتوحات الكبرى التي قامت سياستها الخارجية على مبدأ ثابت هو العمل على توسيع رقعة الدولة الإسلامية بالسعي حثيثا نحو طي أركان المعمورة تحت لواء الإسلام فلم تعترف بقضية الحدود الثابتة ، وإذا كانت الدولة العباسية الأولى - ربما اقتناعا منها بأن الدولة الإسلامية قد وصلت إلى أقصى مدى لها وأن اقتصاد الحرب قد أستهلك الغرض منه إلى حد كبير - قد عملت على تثبيت حدودها مع القوى الدولية الأخرى خاصة الدولة البيزنطية فأنتهت حركة الفتوحات وان لم ينقطع سير هجماتها لاثبات الندية والامساك بزمam المبادرة على الساحة الدولية في يدها فحفظت قوة الدولة ومن ثم هيبتها ومكانتها الدولية فكان منطقها الدولي المخالف لمنطق سابقتها الدولة الأموية مفروضا من منطق قوة وليس من منطق ضعف، فان العصر العباسي الثاني شهد تراجعا واضحا في قدرة الدولة العباسية ليس فقط على أن تمسك بزمam المبادرة ولكن حتى أن تقف من القوى الدولية الأخرى على قدم المساواة ، فكان دور مركز الخلافة في العصر العباسي الثاني على المسرح الدولي هو موقف الدفاع دائما ودفاع إلهزيل غير القادر على صد الضربات المكالة له في معظم الأحيان .

وإذا كان المؤرخون يختلفون قليلا حول السنة التي يبدأون بها التأريخ لبداية العصر العباسي الثاني إلا أنهم يتفقون على أنه بدأ حول منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، ونحن نختار عام ٢٤٧ / ٨٦١ وهو عام مقتل الخليفة العباسي المتوكل بداية للعصر العباسي الثاني ، وعلى الرغم من أن هذا الحدث الجلل هو حدث داخلي قد لا يبدو للوهلة الأولى مدى ارتباطه بمسار العلاقات الدولية إلا أن انعكاسات هذا الحدث على التوجه الخارجي للدولة العباسية كان عظيما ، فمقتل المتوكل جاء على يد الجند الأتراك وكان بداية لوقوع الخلافة العباسية في قبضتهم ، وهذه السيطرة

على مركز الخلافة من قبل الجند الأتراك كانت السبب الرئيسى لضعف مركز الخلافة العباسية ومن ثم فى تخفيف حدة ضغطها على الامبراطورية البيزنطية .

وإذا كان استخدام العباسيين للأتراك قد بدأ فى عهد المأمون وفى حرسه الخاص ، وإذا كان تواجدهم فى هيكل الجيش قد تعاظم فى عهد المعتصم ، فهؤلاء الخلفاء بالإضافة إلى كونهم سياسيين محنكين كانوا قوادا عسكريين أيضا مما مكنهم من كبح جماح الجند الأتراك والإبقاء على قوتهم فى إطار الحدود الممكنة التحكم فيها ، ولقد بدأت مؤسسة الخلافة تفقد قدرتها على السيطرة على الجند الأتراك بصورة تدريجية بداية من وفاة المعتصم ، وكان استفحال أمرهم التام مع المتوكل حيث نجحوا فى قتله وكان هذا إيذانا بتزايد تدخلهم فى شئون الخلافة حتى أضحى الخليفة دمية مشدودة إلى أيديهم هم يحركونها كيف شاؤوا ، هذا فضلا عن قيامهم باختيار شخص الخليفة الذى أضحى بقاءه فى منصبه أو فقدانه له مرهونا بمدى قدرته على الامتثال لهم (١)

ولما أستاذ الجند الأتراك من دون الخلفاء العباسيين بأمور الحكم وتحكموا فى شئون الدولة ساءت الأحوال كافة والأحوال الاقتصادية خاصة وذلك لانصرافهم إلى استنزاف موارد الدولة للحصول على أرزاقهم دون الاعتناء بضرورة تعويض هذه الموارد فأهملت شئون الزراعة والرى والسدود وأدى سوء الأحوال الاقتصادية إلى انفجار الثورات ذات الطابع الاقتصادى والاجتماعى مثل ثورة الزنج وهى ثورة عمال الأراضى الزراعية فى العراق والتى نجحت فى الاستيلاء على مناطق كبيرة منه واستمرت حوالى أربعة عشر عاما ، وكذا حركة القرامطة التى روعت البشر من سواد العراق إلى الشام إلى البحرين إلى مكة ، هذا بالإضافة إلى تفشى جرائم السرقة وقطع الطريق مما انعكس على عدم استقرار الحالة الأمنية وأثر بالتالى على تدفق التجارة فكان ارتفاع الأسعار لنقص المحاصيل الزراعية وتقلص تدفق التجارة حتى أن بعض جماعات قطع الطريق والسرقة اتخذت طابع وتوجه أسطورة روبن هود ومنهم جماعات الشطار والعيارين الذين كانوا يسرقون من الموسرين ليعطوا الفقراء والمحتاجين . ولقد أثر انتشار الثورات والفتن الداخلية وعدم استقرار الحالة الأمنية فى الداخل بالضرورة على قدرة الدولة على التفرغ للتعامل الخارجى الفعال ، هذا فضلا عن الموارد الهامة والحيوية التى كانت تستنزفها أعمال هذه الحركات سواء هى ذاتها

١ - حسن ، تاريخ الإسلام ، م س د ، ج ٣ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

- شاكز ، التاريخ الإسلامى للدولة العباسية ، م س د ، ص ١٢ - ١٤ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س د ، ص ١٨١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

- خليل إبراهيم السامرائى وآخرون ، تاريخ الدولة العربية الإسلامية فى العصر العباسى ، الموصل : دار الكتب للطباعة والنشر - بجامعة الموصل ١٩٨٨ من ١٠١ - ١٠٢ .

بأعمال التخريب والاستيلاء التي كانت تمارسها أو من جانب الدولة وهي تواجهها وهي الموارد التي كان من الممكن توجيهها نحو تدعيم قوة الدولة بما يكسبها قدرة على كسب احترام البيئة الدولية .

ضاعف من الآثار السلبية لهذه الحركات الداخلية التي فجرتها الأوضاع المتردية الناجمة عن سيطرة الأتراك على مجريات أمور الدولة أن هؤلاء الجند كانوا جنداً مرتزقة فلم يكن يهمهم إلا الحصول على رواتبهم والإثراء من وراء مهنتهم كما ذكرنا ، ولما لم يكن لديهم الدافع لخوض معارك حقيقية نوداً عن عقيدة أو حماية لأرض فإنهم انشغلوا باستنزاف موارد الدولة للحصول على ما يريدون من مال دون اضطرار إلى خروج في حروب ، ولما عجزت موارد الدولة عن الوفاء بمطالبهم بعد نضوبها نتيجة إهمالهم زادت شراستهم وضرورتهم وتفنتهم في الحصول على الأموال وزاد بالتالي انشغالهم عن التصدي للأخطار الخارجية فكانت مصادرتهم لأموال التجار وكبار رجال الدولة مما زاد من أنهيار الاقتصاد وضعف الطبقة الغنية - والتي كانت تساعد أحياناً في تجهيز الجيوش كما سنرى - بعد أن كان العامة قد تغربوا قبلاً ، بل إن الخليفة نفسه لم يسلم من مصادرة أمواله حيث خصصوا له مرتباً شهرياً وسلبوه حقه في أجراء ميزانية الدولة فلم يعد في مقدرة تجهيز الجيوش أو تسييرها أو إصلاح الحاميات (٢)

وكان من الطبيعي في ظل ضعف المركز هذا أن تنمو النزعات الاستقلالية ليس فقط في الأقطار النائية كما كان الحال في العصر العباسي الأول ، بل وفي الأقطار القريبة من المركز أيضاً . فبعد أن شهد العصر العباسي الأول خروج المغرب الإسلامي من قبضة الدولة العباسية فإن العصر العباسي الثاني شهد تفكك المشرق ذاته منذ منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي فظهر الصفاريون بعد الطاهريين في خراسان عام ٢٥٤ وظهر السامانيون في بخارى قبلهم عام ٢٥٠ وظهر الطولونيون في مصر عام ٢٥٤ ، ثم بعدهم الأخشيديون عام ٣٢٣ ، وظهر الزيديون في اليمن عام ٢٤٦ والحمدانيون في الموصل وحلب عام ٣١٧ حتى وصل الأمر في الربع قرن التالي لمقتل المتوكل إلى تقلص نفوذ العباسيين وأقتصره على العراق والجزيرة (٣)

٢ - السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، م س ذ ، ص ١٠٤ ، ١٢٠ ، ١٣١ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ٢٢٢ .

٢ - شاكر ، التاريخ الإسلامي : الدولة العباسية ، م س ذ ، ج ٢ ، ص ١٩ - ٢٦ .

حسين محمد سليمان ، الدولة الإسلامية في العصر العباسي والعلاقات السياسية مع الأمويين والفاطميين (الرياض : دار عالم الكتب للنشر والتوزيع / ١٩٨٤) ص ٧٧ نقلاً عن ابن الأثير الذي قرر في أحداث عام ٣٢٤ /

٩٣٥ أنه "بطلت بيوت الأموال وتقلب أصحاب الأطناف وزالت عنهم الطاعة ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها "

رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٦ .

نخلص مما سبق إلى أنه رغم أن سيطرة الأتراك على مؤسسة الخلافة تعتبر في حد ذاتها حدثاً داخلياً إلا أنه كان له أثار وخيمة على مركز الدولة العباسية في الهيئة الدولية وذلك أنه أفرغ سلسلة خبيثة من الأحداث التي قامت كل منها بدور النتيجة والسبب في آن واحد لمجموعة من الظروف والأحوال المتدنية أفقدت الدولة ليس فقط قدرتها على الأخذ بزمam المبادرة في يدها ، بل أفقدتها ما هو أهم في التعاملات الدولية وهو هيبتها في حسابات الأطراف الدولية الأخرى حيث أضحي ضعفها مفضوحاً لكل الأعين فاجتراً الجميع عليها ، فالذي توقف في العصر العباسي الثاني ليس هو قيام الدولة العباسية بأتباع سياسة هجوم فعلى ، فلقد رأينا أن هذا مجد انتهى مع انتهاء الدولة الأموية ولم تأخذ به الدولة العباسية الأولى ولكن المهم هو فقدان الدولة العباسية في عصرها الثاني قدرتها الفعلية على إجراء الهجوم بنجاح إذا استدعت ظروف الساحة الدولية هذا .

وكذا فقدانها قدرتها الأكيدة على الدفاع عن أراضيها في حالة أتباع طرف دولي آخر سياسة هجومية ، ولم يؤد مجيء البويهيين عام ٣٣٤ إلى أحداث كسر في الحلقة المفرغة التي أسرت داخلها الدولة العباسية الثانية ولكنه على العكس ضاعف من حدة دوران هذه الحلقة لأنه إنما عزز سيطرة المؤسسة العسكرية الفاسدة على مقدرات الدولة فزاد تدنى أحوالها في الداخل والخارج .

وإذا كان مركز الخلافة العباسية في بغداد قد عجز في عصره الثاني عن الحفاظ على مركز متكافئ مع الأطراف الدولية الأخرى في الساحة الدولية ولم يتمكن من حماية أرض الإسلام من سياساتهم الهجومية فإن الولايات التي استقلت عن المركز الخلافي في المشرق والمغرب حملت عبء الجهاد ضد أطماع الأطراف الدولية الأخرى وأحبطت خططهم لاستغلال ظرف انحلال مركز الخلافة العباسية في المشرق ، بل وأستطاعت في المغرب الاسلامي أن تستكمل دور الفتح والمد الاسلامي في الأراضي غير الإسلامية والذي كان قد بدأ في العصر العباسي الأول وسيتضاعف هذا الدور الايجابي للمغرب الاسلامي على الساحة الدولية بقيام الدولة الفاطمية الفتية لتعوض بشبابها هرم الدولة العباسية وعجزها .

وهكذا فإن انقسام العالم الاسلامي بين مشرق ومغرب سيستمر أيضا في العصر العباسي الثاني بل وسيؤكد بانفصال ولايات القلب في المشرق أيضا ، وكما كانت هذه الظاهرة مرفوضة في معظم الأحيان من المركز في العصر العباسي الأول فإنها ظلت مرفوضة وبشدة في العصر العباسي الثاني، ولكن هذا لاينفي أن حركات الاستقلال والانفصال هذه التي مثلت بقدراتها على التصدي للخطر في الداخل والخارج ونجاحها في المد والتوسع اضافة إلى دولة الإسلام ككل في العصر العباسي

الأول كانت هي أيضاً التي أنقذت دولة الإسلام في العصر العباسي الثاني بانقاذ المركز الخلافي ذاته من السقوط تحت وطأة المد الخارجي والتهاك الداخلي .

وهكذا فإن دراستنا لهذا العصر تهتم مرة أخرى بمتابعة الموقف في شرق العالم الاسلامي وأيضاً في مغربه ، مع اعطاء اهتماماً منفصلاً إلى الدولة الفاطمية وذلك لوزنها المتميز كقوة دولية أولاً ، وثانياً لأنه رغم ابتداء ظهورها كان في المغرب الإسلامي إلا أنه لايمكننا دراستها بوصفها إحدى القوى السياسية المنتمة لهذا الجزء من العالم الإسلامي وحسب ذلك أنها تعاملت مع الواقع الإقليمي منذ البداية كقوة تسعى إلى التوسع شرقاً ، ولقد نجحت في ذلك بالفعل فوصلت المشرق الإسلامي بمغربه وأضحت من الناحية الفعلية قلباً للعالم الإسلامي كما سوف نرى .

المبحث الأول

ضعف مركز الخلافة العباسية وفقدانها القدرة على المبادرة الدولية
وارادة الهجوم والدفاع : بين سندان سيطرة العسكريين وتزايد نمط
التعددية والاستقلالية ومطرقة تجدد قوة الطرف الآخر

إذا كان العباسيون قد فرضوا في عصرهم الأول هيمنتهم كقوة دولية عظمى على الساحة الدولية فكانت حالات الإجتراء عليها محدودة من الطرف الدولي الرئيسي المناوئ - ونعني الدولة البيزنطية - وإذا كانت قد أثبتت مقدرة وفعالية في رد محاولات الاجتراء تلك عندما تحدث ، فإن العصر الثاني للعباسيين سيشهد تدهوراً واضحاً في ميزان القوى لغير صالح المركز الخلافي ستتعاقد على إحداثه عوامل داخلية أهمها التفاقم الخطير للنمط الانفصالي وتسيد الصراع والتنافس في العلاقات الإسلامية - الإسلامية ، وكذا عوامل خارجية أهمها تجدد قوة الدولة البيزنطية كنتيجة لظروف داخلية مواتية في فترات حاسمة . ولكن هذا الاختلال في ميزان القوى العباسي - البيزنطي سيتم تعويضه ب بروز قوى إسلامية أخرى أهمها الدولة الفاطمية والدولة الأموية والتي سيفرض تزامنها صراعهما أنماطاً جديدة للتحالفات الإسلامية - الإسلامية و الإسلامية - غير الإسلامية .

المطلب الأول : تراجع المشرق الإسلامي في مواجهة دولة بيزنطية قوية وتفتته إلى دويلات مستقلة متصارعة في ظل سيطرة الجند الأتراك والبويهيين :

إذا كان الخليفة الواثق قد أرخ لعهد بوصفه عهد تراجع عن الغزو في أراضي الدولة البيزنطية فإن الكثير من الباحثين قد أثبتوا أنه كان قد جهز اسطولاً بحرياً ضخماً للإغارة على القسطنطينية ولكن حطمته عاصفة قوية عام ٢٢٨ / ٨٤٢ (١)

١ - نادية حسنى منقر ، السلم في العلاقات العباسية ، م س ذ .

والواقع أن فشل هذه المحاولة البحرية العباسية على القسطنطينية يمكن اعتباره نقطة البداية لمرحلة انتقالية كان طولها عشرين عاما مهدت لانتقال زمام المبادرة في المشرق من الدولة العباسية إلى الدولة البيزنطية ، فالتاريخ يعلمنا أن التحولات الكبرى في مسار أحداثه كما أنها لاتولد من فراغ بل تسببها الأسباب ، فهو يعلمنا أيضا أنها بالضرورة لاتقع فجأة ودون مقدمات ، فإذا كان العصر العباسي الأول هو عصر التسيّد والعلو الاسلامي على الساحة الدولية ، وإذا كان العصر العباسي الثاني سيأتي ليشهد تقهقرا عباسيا أمام الدولة البيزنطية التي كانت تمر بدور من أدوار اليقظة أدى إلى عودتها إلى قوتها مرة أخرى في هذه المرحلة ، فإن مرحلة انتقالية مهدت لهذا التحول الخطير في موازين القوى كانت سمتها الأساسية هو نوع من التوازن في العلاقات الصراعية بين الجانبين العباسي والبيزنطي حيث دار الصراع فيها سجالات ويات واضحا فيها أن قدرة الجانب الإسلامي على المبادرة قد بدأت تتحول سريعا إلى مجرد القدرة على التصدي وصد الهجوم وهو ما ستفقدده أيضا مع نهاية هذه المرحلة الانتقالية

ولقد أشرنا إلى أن بداية هذه المرحلة الانتقالية يمكن اعتبارها من تحطم أسطول الوثاق على القسطنطينية عام ٢٢٨ / ٨٤٢ ، أما أنتهاؤها فيؤرخ له بعام ٢٤٨ / ٨٦٢ وهو العام الذي نجح فيه البيزنطيون بضرب مثلث للتحالف كان يقوم بدور فعال في التصدي لهم وكسر هجماتهم تمثلت أضلاعه في علي بن يحيى أمير طرسوس من ثغور الشام وعمر بن عبدالله الاقطع أمير ملطية من ثغور الجزيرة أما الضلع الثالث فتمثل في البيالصة وهم فرقة مسيحية منتمية أصلا إلى الدولة البيزنطية (٥) .

والواقع أن الظروف الداخلية غير المستقرة في الدولة البيزنطية في ذلك الوقت هي التي ساعدت الجانب الاسلامي على تأجيل تراجع الدولة العباسية عن مركزها على الساحة الدولية أمام المد البيزنطي مدة عشرين عاما ، فالدولة البيزنطية في ذلك الوقت كانت تأكلها النزاعات الدينية في الداخل بين الموالين لمذهب الايقونات والمعادين له وهو الصراع الذي أدى بالدولة إلى اضطهاد جماعات بعينها نتيجة معتقداتها الدينية وعلى رأس هذه الجماعات البيالصة الذين دفعهم الاضطهاد البيزنطي ليس فقط إلى الفرار من الأراضي البيزنطية ولكن أيضا إلى اتصاليهم بالمسلمين يخطبون ودهم ويعرضون عليهم خدماتهم في مقاومة في مقاومة البيزنطيين والايقاع بهم . ولقد عرضوا خدماتهم تلك على أمير ملطية فقبل منهم هذا وكان يحالفهم في حروبه مع البيزنطيين ، ولما كان علي بن يحيى أمير طرسوس يحمل مع أمير ملطية عبء صد

٥ - رمضان ، الصراع بين العرب وأربيا ، م س ذ ، ص من ٢١٨ - ٢٢١ .

- شاكور ، التاريخ الإسلامي ، الدولة العباسية ، ج ٢ ، ص ٥٨ .

محاولات التقدم البيزنطى فى الشرق الإسلامى فانه أصبح بالضرورة الضلع الثالث لهذا التحالف الذى استطاع أن يتصدى للخطر البيزنطى طوال عشرين عاما (٦) .

ولكن هذا الصراع العسكرى بين هذا التحالف المثلث الأضلاع من جانب والدولة البيزنطية من جانب آخر لم يضيف إلى قوة أى من الطرفين فالمعارك التى دارت سجالا بينهما لم تنجح فى إحداث أى تغيير يذكر فى الحدود بينهما فى آسيا الصغرى حيث لم تصل قوة أى من الجانبين حدا يمكنه من اقتطاع أجزاء من أراضى الطرف الآخر فيضمها إليه بصورة نهائية ، فالصراع الذى دار طوال عشرين عام لم يكن له من نتيجة اذن إلا المحافظة على نوع من التوازن الهش ضُرب بحلول عام ٢٤٨ عندما نجح البيزنطيون فى التخلص من القائدين المسلمين (٧) ولقد ضاعف من النتائج السلبية لانتهيار هذا السد المانع للتقدم البيزنطى فى الأراضى الإسلامية مقتل المتوكل فى العام السابق وبرز سيطرة الجند الأتراك بصورة سافرة على الخلافة وتداعيات ذلك على التعامل الخارجى للدولة العباسية ، فكان تزامن هذين العاملين الخارجى والداخلى حاسما فى إنهاء مرحلة التوازن الانتقالية تلك وفى التاريخ لبداية فترة الانحسار التام للمد الإسلامى فى المشرق .

ولقد برزت فى أحداث هذه الفترة الانتقالية ظاهرتان تتعلقان بالتعامل الخارجى للدولة العباسية تجدر الإشارة إليهما :

أما الظاهرة الأولى : فتتعلق بالتحالف بين طرف إسلامى وطرف غير إسلامى ، ضد طرف غير إسلامى وهو نمط فى التحالفات رأيناه قبل ذلك فى الدولة الأموية وكذا فى العصر العباسى الأول ولكن فى حالات محدودة ، هذا النمط سيصبح تقليدا شبه ثابت فى العصر العباسى الثانى خاصة فى المغرب الإسلامى حيث سيكون تعامل القوى الإسلامية هناك بالأساس مع دويلات وإمارات مسيحية مستقلة تعادى بعضها البعض مما يتيح فرصة أكبر لظهور هذا النمط وترسخه عما لو كان طرف الصراع يشكل دولة واحدة .

أما الظاهرة الثانية : فتتعلق بمولد تقليد جديد فى هذه المرحلة الانتقالية بدأ عجيبا فى أول الأمر ثم سرعان ما ترسخ وأضحى غير مستغرب رغم شدوذه عن الواجب والمفروض . هذا النمط هو تراجع دور الخليفة عن تجهيز الجيوش وتسييرها ، وفى هذه المرحلة الانتقالية نجد أمراء الثغور هم الذين يضطلعون بالدور الأساسى والعبء الأكبر فى تجهيز الجيش وتسييره لصد حملات البيزنطيين ، فتجهيز الخليفة لجيش كان هو الاستثناء وليس القاعدة كما أن مثل هذا الجيش الخلفى عندما يُسير كان

٦ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوربا ، ص ٢١٩ .

٧ - راجع فى سلسلة المعارك ، المرجع السابق ، ص ص ٢١٩ - ٢٢١ .

يرسل كعنصر مساعد ، أما القوام الأساسى لحائط المواجهة فكان هو جيوش أمراء الثغور^(٨)، وسوف نلاحظ أنه بانتهاء هذه المرحلة الانتقالية وتسيد الجند الأتراك على مؤسسة الخلافة وتحكمهم فى خليفة المسلمين وبيت مالهم فسوف ينعدم أى دور للخليفة - أى للسلطة المركزية - وهذا بدهى فى ظل مصادرة ماله ومخصصاته واغتصاب حقه فى تصريف أمور الدولة المالية . الأهم من ذلك أن عبء تجهيز الجيوش سوف يقع على أثرياء القوم فى معظم الأحيان ومن نافلة القول إن هذا المصدر اتسم بالمرحلية وعدم الثبات حيث يهرع القادرون لتجهيز الجيوش فى حالات التهديد الخارجى المباشر والخطير فيدفعهم خوفهم إلى القيام بهذه المهمة فى ذلك الوقت^(٩)، وهذا الواقع المرير إنما كان يعنى أمرين أولهما أن الدولة بتخليها عن أحد المهام السلطوية الأساسية كانت تعرض صورتها - ليس فقط أمام مواطنيها فى الداخل - ولكن أيضا أمام الفاعلين فى النظام الدولى إلى الاهتزاز بشدة مما عجل بأجتراء هؤلاء الفاعلين عليها متاكدين من عدم قدرتها على تجهيز القوة اللازمة للردع ، أما الأمر الثانى فهو أن مرحلة تكون الجيوش وارتباطها بأحداث وقتية على الحدود إنما كان يعنى بالضرورة افتقار الدولة لجيش نظامى له وظيفته الثابتة المستمرة وهذا انعكس بالضرورة على مركزها فى الهيئة الدولية وقدرتها على المبادرة أو حتى على الردع .

ولقد كان رد الفعل لهذا الوضع الخطير أمنيا عنيفا فى صفوف العامة الذين كانوا كثيرا ما يخرجون إلى الشوارع فى ثورات عنيفة يطالبون الخليفة القيام بواجبه فى حمايتهم والذود عن أراضي الإسلام^(١٠)، والواقع أن هذا المطلب الشعبى الذى تردد فى أكثر من مناسبة نستطيع أن نجد فيه مؤشرا هاما جدا على التحول فى قدرات الدولة العباسية على التعامل الخارجى ، فالعامة ما كانوا يطالبون الخليفة بأكثر من اثبات القدرة على صد الهجمات ورد المعتدى ، فكان الكر والمبادرة والتأديب والارهاب واثبات الهيبة والتى كانت أهدافا للتحركات الخارجية للجيوش العباسية فى العصر الأول أضحت من ذكريات الماضى الذى يدرك العامة بحسهم عدم امكان متابعتها فى الحاضر الزاخر بعوامل الضعف .

نجح اذن البيزنطيون فى توجيه ضربة قاتلة للتحالف الثلاثى المناوى لهم عام ٢٤٨ بالقضاء على طرفيه المسلمين . والواقع أن هذا الحدث بالاضافة إلى منظومة الظروف الداخلية فى الدولة العباسية والتى أدت إلى ضعفها وإن كانا قد أضافا إلى قوة الدولة

٨ - المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

٩ - انظر أمثلة فى ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

١٠ - انظر المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، م س ذ ، ص ص ١٦٤ - ١٦٥ .

البيزنطية بنفس انتفاصهما من قوة الدولة العباسية ، فان حدثا داخليا خاصا بالدولة البيزنطية ذاتها سرعان ما هيا لها بصورة حاسمة تبؤ مركز متصدر على الساحة الدولية كقوة أولية عظمى قادرة على المبادرة . ففي عام (٢٥٢ هـ / ٨٦٧ م) ارتقى عرش الامبراطورية البيزنطية الامبراطور المقدوني باسيليوس الاول كأول الاباطرة المقدونيين الذين استمر حكمهم حتى عام (٤٤٨ هـ / ١٠٥٧ م) ولقد استعادت الأسرة المقدونية للامبراطورية البيزنطية شبابها وقوتها بفضل اصلاحاتها الداخلية في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والدينية مما انعكس بالضرورة على قدراتها في التعامل الخارجي فبدأت مرحلة جديدة وطويلة من الكر على أراضى الدولة العباسية، ذلك أن فترة حكمهم الزاهر للامبراطورية البيزنطية ٢٥٢ - ٤٤٨ هـ / ١٠٥٧ م امتدت بامتداد العصر العباسي الثاني فترة التدهور العباسي (١١)

ولقد بادر الامبراطور باسيليوس باستغلال دخول الدولة العباسية دور ضعف وانحلال لي عمل على بعث الأمجاد الحربية للامبراطورية البيزنطية فأشعل نيران الحرب على طول الجبهة مع الدولة العباسية من شاطئ كيليكية جنوبا إلى أرمينية شمالا . وكانت الفترة من ٨٧١ - ٨٨٢ من أنشط فترات الكر البيزنطى حيث استطاع هذا الامبراطور فى سلسلة من الهجمات المتلاحقة تحقيق نجاحات باهرة فى هذه الفترة القصيرة . أما أول هذه النجاحات فتتمثل فى القضاء على البيالصة وقتل زعيمهم فانتهت بذلك تماما كل مقاومة للدولة البيزنطية على حدودها مع الدولة العباسية . أما ثانى النجاحات فتتمثل فى دفعهم المسامين إلى ما وراء الحدود التى كان قد ثبتها العباسيون الأوائل حيث فرض البيزنطيون سيطرتهم على معظم جبال طوروس بسلسلتىها وكذلك على ممراتها . ثم إن الامبراطور باسيليوس لجأ فى إدارته الصراع مع العباسيين إلى استخدام احدى الأدوات التى كثيرا ماوظفها المسلمون فى عهود قوتهم وهى احاطة الدولة المعادية بمجموعة من القوى الحليفة . فنجدده، من ثم ، يخطب ود ملك أرمينيا ويكسبه حليفا للدولة البيزنطية . وكانت الدولة العباسية قد اعترفت بأرمينية دولة مستقلة عام ٢٧١ هـ / ٨٨٥ م بعد أن كانت تابعة لها ، فى محاولة منها للإبقاء على ودها بعد أن أضحت عاجزة عن السيطرة عليها بالقوة هذا فى إشارة قوية إلى التدهور السريع الذى لحق الدولة العباسية فى تلك الفترة (١٢). ولم يشهد العصر العباسي عودة المد البيزنطى داخل أسيا الصغرى وحسب ، ولكنهم عابوا أيضا ويقوة إلى شرق المتوسط بالتحديد إلى ممتلكاتهم التى كانت قد سقطت للأغالبة ، ولعلم الامبراطور البيزنطى بعجز الامبراطور لويس الثانى

١١- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

١٢ - السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٢٣ .

امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وكذا أمراء الدويلات الايطالية الصغيرة التي احتفظت باستقلالها أيام المد الاسلامى فى الغرب ، عن التصدى لخطر المسلمين فى حوض المتوسط ، والذي استمر فى العصر العباسى الثانى كما سنرى ، بادر منفردا بإرسال - ليس فقط قوات رمزية تسند القوات المسيحية الموجودة فى المنطقة - ولكن جيوشا جرارة أضحت هى القوام الأساسى لقوات التصدى للقوى الإسلامية فى حوض المتوسط ، ولقد بدأ توافد هذه الجيوش البيزنطية عام ٨٦٨ م ونجحت بالفعل فى مهمتها حيث لم يأت عام ٨٨٠ هـ حتى كان الأسطول البيزنطى قد فرض هيمنته ونفوذه على معظم جزر شرق المتوسط وكذا على سواحل ايطاليا الجنوبية ، بل ونجح فى انتزاع بارى من يد المسلمين عام ٨٧٦ والتي تعد منفذ ايطاليا الرئيسى للاتصال بشرق المتوسط وآسيا الصغرى والشام^(١٣) . وهذه هى المناطق التى كان المسلمون قد بذلوا سنوات طويلة وجهد مضمّن من أجل فتحها ، ولكن ظلت كريت صامدة لمحاولات استرداد البيزنطيين لها فاستعصت عليهم وأضحت قاعدة للمقاومة الإسلامية الصلبة لحركات الاسترداد المسيحى فى هذه المنطقة.^(١٤)

ولكن ذات الفترة التى شهدت مدا بيزنطيا واضحا فى أراضى الدولة العباسية فى آسيا الصغرى وفى شرق البحر المتوسط خبّرت مراد قوة إسلامية فى المشرق الإسلامى ذاته وبالتحديد فى مصر ، استطاعت أن تقوم بدور حاسم فى التصدى للخطر البيزنطى ، وهى الدولة الطولونية التى أسسها أحمد بن طولون والى مصر من قبل الدولة العباسية عندما استقل بمصر (٢٥٤/٨٦٨)^(١٥) ، نفس العام الذى شهد بداية المد البيزنطى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط. ولقد أدرك أبْن طولون كما أدرك معاوية قبله أن سبيل مواجهة البيزنطيين يكون ببناء جيش قوى تشكل القوى البحرية أحد أعمدته الأساسية . فالبيزنطيون - كما ذكرنا - كانوا يبدأون فى هذه الفترة مدا بحريا واسعا لم يكن ليغيب عن أعين قائد عسكري مثل أحمد بن طولون ، هذا فضلا عن تذكريات الماضى القريب عندما نجحت سفن الاسطول البيزنطى عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م من النزول ببعض السواحل المصرية وتخريبها^(١٦)

ثم إن استراتيجية ابن طولون لمواجهة الدولة البيزنطية قامت أيضا على دعامة هامة جدا آمن بانها الأساس الأقوى لضمان نجاح مصر فى رد أطماع البيزنطيين فيها

١٣ - المرجع السابق ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

١٤ - المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

١٥ - محمد أحمد زبير ، العلاقات بين الشام ومصر فى العهد الطولونى والاششيدى من ٢٥٢ - إلى ٢٥٨ / ٨٦٨ - ٩٦٨

(دمشق - دار حسان للطباعة والنشر ، ١٩٨٩) ص ٥٢ - ٥٢ .

١٦ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٢٦ .

وهى ضرورة توحيد مصر والشام (١٧). والواقع أن هذا التفكير ما كان إلا أحياء بصورة معينة لسياسة تداعى الفتوحات التى أمنت بها دولة الخلافة الأموية وطبقتهها بهمة لاتعرف الكلل ، ولكن ربما لتفكك الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الثانى فإن سياسة تداعى الفتوحات أضحت لها طابع جزئى بعد أن كانت سياسة طابعها الكلية فى ظل الدولة الإسلامية الموحدة ، بمعنى أن حاكم الدولة الإسلامية عندما يؤمن بمبدأ تداعى الفتوحات فإنه ينظر إلى الجبهة الملاصقة له وحسب ولا يفكر فى الامتداد إلى أبعد من هذا ، هذا فضلا عن أن الفتح هنا فى المشرق الإسلامى أضحت فى أرض إسلامية وليس فى أرض غير إسلامية وهذه أيضا ظاهرة جديدة وخطيرة سترجع إليها بعد قليل ، والواقع أننا سوف نقابل استراتيجية توحيد مصر والشام فى جبهة واحدة كثيرا بعد ذلك خاصة عندما يقدر لأيهما قائد تكون همته عالية ومخلصة فى رد أطماع القوى الخارجية عن هذا الجزء من العالم الإسلامى ، فأمن مصر يبدأ فى الشام والعكس صحيح .

ولقد نجح ابن طولون بالفعل فى ضم الشام إلى مصر عام ٨٧٧ م منتهزا فرصة وفاة حاكمها فأصبح هو المتصرف فى حصون وأسوار مدن الشام الهامة مثل عكا ويافا وجدها ودعمها ، ثم سرعان ما أنتقل من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم بعد أن بادر بالكر على ممتلكات الامبراطورية البيزنطية فى جزر بحر أيجة فنجح فى وضع الأسطول البيزنطى فى موضع الدفاع مرة أخرى وكذا فى دفع الدولة البيزنطية إلى طلب مهادنته وعقد الصلح معه أحيانا كثيرة - كما حدث عام ٢٦٥ هـ / ٨٧٧ م مثلا (١٨)

ولكن قدرة الدولة الطولونية على الاستمرار فى تدعيم قوتها بما يحفظ عليها هيبتها فيمنع الدولة البيزنطية من التفكير فى التجرد عليها أو يمكنها من التصدى بفاعلية فى حالات اتخاذ الدولة البيزنطية لقرار التعدى لم تستمر طويلا ، فقد أصاب الدولة الطولونية فى مقتل وعطل نشاطها ضد البيزنطيين عاملان كلاهما داخلى :

أما العامل الأول : فهو الثورات والحركات الداخلية التى قامت فى الدولة العباسية نتيجة للظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى سادتها وطالت بمعاناتها أكثر ما طالت عامة الشعب ، وكان من أعمق هذه الحركات أثرا وأوسعها انتشارا وأطولها

١٧ - المرجع السابق ، ص ٢٢٦ .

- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ١١٨ .

- حسن ، تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، ص ٨٨ - ٨٩ .

- زبور ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ٢٩ وما بعدها .

١٨ - شاكر ، التاريخ الإسلامى : الدولة العباسية ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

- زبور ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

عمرا حركة القرامطة وذلك أنها قامت على أساس عقيدى فاستطاعت أن تتغلغل فى قلوب البسطاء فى فترة كانوا يتطلعون فيها إلى منقذ مما هم فيه من أوضاع متردية ، ولما يدرك العامة أن الحاضر البائس لا يبشر بأى تحول نحو الأفضل فى الأفق المنظور فإنهم يتحولون إلى التماس الخلاص فى التشبث بمجموعة من الغيبيات ، على رأسها الأيمان بظهور مخلص ينشر العدل مكان الظلم فينتصر لهم ، وسنلاحظ أن هذا كان دائما سبب نجاح الحركات التى تعد البسطاء من الناس فى أوقات التردى الاقتصادى والانحلال الاجتماعى بحياة أفضل غير ملموسة لهم ، ولهذا نجحت حركة المختار مثلاً وحركة الدعوة العباسية ذاتها ، والحركة الفاطمية ، وسوف يكون سببا فى نجاح الدعوة إلى الحروب الصليبية أيضا ، فالبشر يعانون ويحلمون ويطمحون سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين .

نقول أن حركة القرامطة انتشرت فى بلاد الشام أول ما انتشرت وقت أن كانت تحت حكم الطولونيين ، والواضح أن هذه الحركة لم تلفت انتباه حكام الدولة الطولونية فى مصر فى البداية ، حتى كان أن وصلت حدا خطيرا عندما حملت السلاح وحاصرت دمشق ذاتها عام ٢٨٩ ، وكادت توقع بوالى الشام من قبل الطولونيين بن طغج الأخشيدي لولا النجدة التى وصلت من مصر وهنا بدأ اهتمام الطولونيين لدى الخطر الذى تشكله هذه الحركة باستغلالها حاجات العامة خاصة وأنه قد تمثل أمام أعين الطولونيين واضحا مدى قوة الحركة عندما لم تستطع جيوش ابن طولون القضاء عليها تماما بل ردتها فقط عن دمشق^(١٩) ، ولقد أدى اهتمام الطولونيين بالتصدي لخطر القرامطة فى الداخل إلى انشغالهم عن مواجهة الخطر البيزنطى القادم من الخارج .

وهنا بدأ عامل داخلي ثانٍ يطل برأسه ليتفاعل مع العامل الأول فيفت فى عضد الطولونيين ويزيد من انشغالهم عن مواجهة الخطر البيزنطى ، تمثل هذا العامل فى محاولات الخلافة العباسية فى المركز استغلال انشغال الطولونيين بمواجهة القرامطة لاعادة فرض سيطرتها على ولاياتها فى مصر والشام ، وكنا قد رأينا قبلا أن الخلافة العباسية كانت قد بدأت تقليدا منذ عهد الرشيد يسمح بالموافقة على استقلال الولاة بولاياتهم مقابل تقديمهم خدمات للمركز تحفظ للمركز هيئته كما حدث مع الطاهريين فى خراسان والأغالبة فى أفريقية ، إلا أن هذا كان يتم دائما من موقع قوة فيأتى الاستقلال كمنحة من المركز يقدمها طوعا ولا تفرض عليه فرضا ، أما حالات الانفصال فلقد استعدت دائما عداء الدولة العباسية حتى فى العصر العباسى الأول فعملت على مواجهتها وأسقاطها ، ولقد استمر هذا فى العصر العباسى الثانى خاصة مع تزايد حالات تجرؤ الأقاليم على السلطة المركزية والانفصال عنها وانتقال ذلك من الولايات

١٩ - حسن ، تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

- زيود ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ١٥٢ ، ١٦٥ .

النائية فى المغرب الإسلامى إلى المشرق الإسلامى فى الولايات القريبة من قلب الدولة الإسلامية فى بغداد ، فإذا كان المركز قد اضطر لضعفه وقلة حيلته إلى السكوت عن هذه الولايات المنفصلة بما أكسبها شرعية ولو ضمنية ، فإن عدم رضا المركز عن هذه النزعة الاستقلالية كان يظهر فى انتهازه أى فرصة ضعف وتراجع فى قوى هذه الولايات للانقضاض عليها فى محاولة لاسترجاعها ، وهذا هو ما حدث مع ابن طولون الذى تجرأ على الاستقلال بمصر والشام فانتهزت الدولة العباسية فرصة الاضطرابات التى صاحبت انتقال السلطة إلى خماروية ابن أحمد بن طولون بعد وفاة الأخير لتحاول استعادة مصر والشام بالقوة فكانت معارك حربية انتصر فيها الطولونيون ووقعوا عهد صلح مع الخليفة فرض فيه على الأخير ترك مصر والشام للدولة الطولونية مدة ثلاثين عاما دون منازعتها فيهما أو محاولة استردادهما^(٢٠). وكان المرء هنا أمام قوتين غير اسلاميتين يتحاربان فتتصر فئة فتفرض شروطها على فئة أخرى فى معاهدة، والشروط هى عدم التدخل فى شئونهما رغم أن الولاية أصلا تابعة للدولة العباسية .

وكان من الطبيعى أن ينشغل الطولونيون بالتصدي لمحاولات الخلافة العباسية تلك لاسترجاع مصر عن مواجهة البيزنطيين ولكن يظهر واضحا مدى الدور الإيجابى الذى قام به الطولونيون فى التعامل مع البيزنطيين عندما نتعرف على نشاطاتهم قبلها فى الفترات التى كانوا فى الفترات التى كانوا يأمنون فيها جانب الدولة العباسية بعد كل جولة من جولاتهم معها فكانوا فى فترات الهدنة تلك يوجهون اهتمامهم صوب البيزنطيين فيصدون غاراتهم ويوقفون مداهم بل إنهم فى أحيان أخرى كانوا يقومون بالمبادرة ضدهم مثلما حدث عام ٩٠٤ عندما نجحوا فى احتلال سالونيك بعد حملة بحرية عنيفة^(٢١)

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه رغم الخدمات التى كانت تقدمها الدولة الطولونية لدولة الإسلام على الصعيد الخارجى ، إلا أن محاولات الخلافة العباسية المستمرة القضاء عليها رغم علمها بعجزها هى عن القيام بالعبء الذى تقوم به الدولة الطولونية فى صد الخطر البيزنطى ليعد مؤشرا على تكرر نمط العداء فى العلاقات الإسلامية - الإسلامية فى العصر العباسى الثانى فقط بين المركز والدويلات المستقلة بل وبين تلك الدويلات بعضها وبعض . فإنجازات كل كيان سياسى إسلامى كان ينظر إليها بوصفها مكسبا خاصا به وليس بوصفها إضافة لدولة الإسلام ككل ، وكان لسيادة هذا الشعور بالانفصالية على حساب الشعور بالوحدة مع تزايد اللامركزية والحركات

٢٠ - حسن ، تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٢١ .

- شاكر ، التاريخ الإسلامى : الدولة العباسية ، ج ٢ ، ص ٨٩ .

- زبور ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ٥٧ وما بعدها .

٢١ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٢٧ .

الانفصالية سببا مباشرا في سيادة علاقات التناحر بين الدويلات الإسلامية حتى كانت تحديد انجازاتهم على الصعيد الخارجى فتصبح المحصلة للصالح العام لدولة الإسلام صفرا ، وهكذا كانت اللامركزية دعما لقوة دولة الإسلام في العصر العباسى الأول حيث كانت الدويلات أما تستقل برضا المركز فلا تقوم علاقات تناحر ، وأما كانت تستقل رغما عنه في الأماكن النائية فتحد طول المسافة من حدة المواجهة وعنفا فتتفرع تلك الدويلات لمواجهة الخطر الخارجى بكفاءة . بل وكنا نلاحظ أيضا تعاوننا وتناصرا بين الدويلات الإسلامية في مواجهة الأخطار الخارجية خاصة في الغرب الإسلامى وهو ما سيختفى تماما في العصر العباسى الثانى - كما رأينا وكما سنرى على طول صفحات هذا الفصل .

ولقد جاءت الخطوة الحاسمة من قبل الخلافة العباسية تجاه الدولة الطولونية بعد تفشى حركة القرامطة في الشام ووضوح عجز الطولونيين عن القضاء عليها بصورة حاسمة وكان قد تولى حكم الدولة العباسية في ذلك الوقت الخليفة المستكفى الذى حاول بإخلاص أن يستعيد للدولة العباسية هيبتها ، وكان أن ابتدأ بترتيب البيت من الداخل قبل أن ينظر إلى الخارج ، فوجه اهتمامه أولا إلى حركات الفتن والثورات الداخلية ثم التفت ثانيا إلى حركات الاستقلال التى أرغم المركز على قبولها أوقات ضعفه وكان أول الحركات الاستقلالية التى ركز جهده عليها هى الحركة الطولونية خاصة عندما لاحظ عدم قدرتهم على القضاء على القرامطة بصورة حاسمة وخاف أن تقع مصر والشام فريسة للقرامطة المناهضة للخلافة العباسية عقيديا ، وهكذا كان القرار الخلافى بضرورة وضع نهاية للدولة الطولونية وانتزاع مصر والشام منها واعادتها إلى قبضة الخلافة العباسية قبل أن يقعا للقرامطة فأرسل جيشا إلى مصر انتصر بالفعل على الطولونيين الذين كانت مواجهاتهم المستمرة بجهودهم المنفردة مع القرامطة في الداخل والبيزنطيين في الخارج قد أنهكت قواهم وجعلتهم بالفعل فريسة سهلة للجيش العباسى فعادت كل من مصر والشام ولايتين تابعتين مباشرة للخلافة العباسية عام ٢٩٣ (٢٢)

وكان من الممكن أن يضيف انضواء مصر والشام تحت سلطة الخلافة العباسية إليها قوة لموقعها الممتاز لو قدر للمركز أن تستمر به قيادة رشيدة تعمل على تحقيق أكبر افادة من ولاياتها ، ولكن عهد الخليفة المستكفى انتهى عام ٢٩٥ بعد عامين فقط

٢٢- المرجع السابق ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ١١٨ .

- شاکر ، التاريخ الإسلامى : الدولة العباسية ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

- حسن ، تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٢٢ - ١٢٤ .

- زبور ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ١٦٥ ، ١٧٢ .

من استعادة المركز لمصر والشام وبدأ عهد من أسوأ العهود وأكثرها تدهورا أمتد حتى عام ٣٢٠ ليكون سببا مباشرا في انحطاط أحوال المركز بصورة استدعت تقدم البويهيين للأمسك بمقاليد الأمور في أيديهم عام ٣٣٤ (٢٣)

وتدهور الأحوال في الداخل كان لابد أن ينعكس تقهقرا في الخارج ، ويكفى للدلالة على مدى سوء الأحوال في فترة حكم المقتدر أن الدولة العباسية عجزت حتى عن الاستفادة من الظروف الداخلية السيئة التي عانتها الدولة البيزنطية في ذلك الوقت بما يخدم مصالح الدولة الإسلامية، فلقد عانت الدولة البيزنطية في ذات فترة حكم المقتدر من خطر البلغار وحروبهم معها وتمكنهم من احتلال أراض وأقاليم بيزنطية عدة حتى أصبح خطرهم يتهدد القسطنطينية ذاتها حيث أشرفوا على أبوابها عام ٩٢٤/٣١٢ ، وبدلا من أن يتقدم الجانب الإسلامي للاستفادة من هذه الظروف لاسترداد بعض ما فقده للدولة البيزنطية طوال النصف قرن السابق على هذه الأحداث فإنه ظل ساكنا ، فالمركز يرزح تحت نير حكم من أسوأ ما قدر له والطرف الذي كان يمكنه أن يفيد من هذه الظروف - نعني الدولة الطولونية - كان قد قضى عليها المركز في علاقات التصارع الإسلامية - الإسلامية^(٢٤)، فلو كان هناك تناصر بين المسلمين وأوجدوا صيغة مناسبة للتعدد في إطار الوحدة لكانت المحصلة لمصالح دولة الإسلام حتما.

ولما قامت في مصر دولة مستقلة أخرى عام ٩٢٣/٣٢٣ وهي الدولة الأخشيديية ونجحت بعد قليل في ضم الشام إليها وتوحيد الجبهة المصرية - الشامية ، ولم يمهلها الخليفة المقتدر لتحقيق شيء يذكر في المجال الخارجى بالاستفادة من الجبهة القوية تلك ، فعين وزيره وأمير أمراء الجند على جنوب الشام لمناوئة الأخشيديين ، ولقد انشغل الأخشيديون بحرب أمير أمراء الجند الأتراك في جنوب الشام وكذا بحرب الحمدانيين في الشمال الذين كانوا قد نجحوا في تأسيس ولاية لهم في الموصل والجزيرة عام ٢١٧ / ٩٢٩ ولم يرضوا بوجود خصم قوى على حدودهم حتى لو كان مسلما ، وكان لأنشغالهم هذا بالحرب على جبهتين "إسلاميتين" أثر واضح على انعدام أى تحرك أخشيدي على الجبهة البيزنطية غير الإسلامية^(٢٥)

ولقد برز الأخشيديون في هذه الحرب الإسلامية المثلثة الأضلاع حيث قضى على ابن رائق عام ٣٣٠ ، وكاد الأخشيديون أن يسقطوا الحمدانيين بالاستيلاء على حلب

٢٣ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٢٨ .

٢٤ - زبور ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ص ٢٢١ - ٢٢٤ .

- السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، ص ص ١٢٦ - ١٢٧ .

٢٥ - حسن ، تاريخ الإسلام ج ٢ ص ص ١٢٠ - ١٢٨ .

- شاكر ، التاريخ الإسلامي : الدولة الإسلامية، ج ٢ ص ص ٢٩٢ - ٢٩٦ .

- زبور ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ص ٢٠٢ - ٢١١ .

واسترداد دمشق عندما تبدلت الظروف على الساحة الدولية والإسلامية إلى درجة أقنعت الجانبين الحمداني والأخشيدى بضرورة التفاهم بينهما بدلا من الصراع . فالبيزنطيون قد بدأوا في هذه الفترة ينشطون مرة أخرى على الثغور الشامية ، في ذات الوقت الذي بدأ فيه واضحا خطر الفاطميين الذين أسسوا دولة لهم في المغرب عام ٢٩٧ ، وبدأوا يوجهون أنظارهم إلى مصر يريدون الاستيلاء عليها ، وهنا تنازل الأخشيديون عن حلب وما يليها من بلاد الشام شمالا للحمدانيين حتى يتمكنوا من حماية الحدود الشمالية من غارات البيزنطيين على أن يتفرغوا هم لمواجهة خطر الفاطميين القادم من الغرب بعد أن يأمنوا على جبهتهم الشمالية بالصلح مع الحمدانيين (٢٦)

المطلب الثاني : تقلص حركة المد في المغرب الإسلامي وتحولها إلى علاقات توازن مع الممالك المسيحية الأوروبية :

في الوقت الذي كان يسيطر فيه الأتراك على مركز الخلافة العباسية في بغداد ويتسببون بانصرافهم عن شئون التصدي للقوى غير الإسلامية في أختلال توازن القوى في المشرق لصالح الدولة البيزنطية على حساب الدولة العباسية ، وفي الوقت الذي كانت تجاهد فيه الدويلات المستقلة في مصر والشام لمحاولة إعادة نوع من التوازن دون جدوى بسبب تشرذم جهودها وصراعها مع بعضها البعض ومع المركز ، كان المغرب الإسلامي يعيد هذا التوازن حيث دار صراع متكافئ بين الدويلات الإسلامية في شمال أفريقيا من جانب والدولة البيزنطية من جانب آخر ولكن مسرحه ممتلكات تلك الامبراطورية في وسط وغرب حوض البحر المتوسط ، في نفس الوقت الذي كان فيه الأندلس الأموي يقوم بدور مجيد في الصراع مع الممالك المسيحية في شمال أسبانيا ومع دولة الفرنجة بعد اجتيازها فترة اضطراب سياسي داخلي في عصر ملوك الطوائف .

فإذا نظرنا أولا إلى دويلات شمال أفريقيا الإسلامية لاستطعنا القول إن فتح المسلمين لجزيرة صقلية كان هو الخطوة الحاسمة على بداية الطريق لتقويض الخلل في التوازن بين القوى الإسلامية والقوى غير الإسلامية في المشرق ، فجزيرة صقلية - كما سبق بيانه - كانت بمثابة المفتاح الذي فتح للمسلمين حوض البحر المتوسط

٢٦ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٢٨

- زبور ، العلاقات بين الشام ومصر ، ص ص ٢١١ - ٢١٥

- حسن ، تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، ص ص ١٢٠ - ١٢١ ، ١٢٨ - ١٢٩

الأوسط والغربي حيث استخدموها كقاعدة يهددون منها إيطاليا ويثبون عليها وعلى
جزر عدة في البحر التيراني ليتسيديا عليه (٢٧)

ولقد ذكرنا قبلا أيضا كيف أدرك المسلمون منذ بداية الدولة الإسلامية مدى أهمية
موقع جزيرة صقلية فتلاحقت عليها الحملات خاصة في عهد الدولة الأموية التي كانت
تؤمن بسياسة تداعى الفتوحات كمحور أساسى لتحقيق الأمن لدار الإسلام وتزايد
العزم على فتحها مع تزايد اهتمام الدولة البيزنطية بتحسينها للتأكد من عدم سقوطها
للمسلمين ، ولم تسفر كل هذه الحملات المتوالية إلا عن بعض الغنائم والأسرى حتى
عقد الأغالبة عزمهم على فتح صقلية عام ٢١٢ ، ولكن برغم الجدل الذى أظهره الأغالبة
وبرغم التعاون - أكثر من مرة - بين الأسطول الأغلبى والأسطول الأندلسى ، إلا أن
الجزيرة ظلت بالفعل مستعصية على الأغالبة ولم تكن تسقط لهم إلا المدينة بعد المدينة ،
ولما أدرك الأغالبة مدة تحصن الجزيرة قرروا تأسيس إمارة لهم فى الجزء المفتوح
يتخذون منها قاعدة ثابتة للغزو فى باقى الجزيرة ، وكان هذا القرار رشيدا حيث
استطاعوا بالفعل تحقيق فتوح هامة بعد ذلك ، ففتحوا قسريانة عام ٢٤٥ ثم
سيراكيوز عام ٢٦٥ ثم طبرمين عام ٢٩٦ والتي كان لسقوطها وقع الصاعقة على
الدولة البيزنطية ، ولقد توقفت فتوح المسلمين فى جزيرة صقلية عند هذا الحد ذلك أن
الجزء الشرقى منها ظل مستعصيا على المسلمين فقبلوا من ولاته الجزية وقنعوا بها
عن محاولات الفتح المضنية (٢٨)

ولقد أثبت تاريخ العلاقات الإسلامية / غير الإسلامية أن الأمر كان يستحق المال
والجهد والرجال والوقت المبذولين فى فتح صقلية ، ذلك أنه منذ أن نجح المسلمون فى
إقامة إمارة لهم هناك فى الأجزاء القليلة التى كانوا قد أتموا فتحها فى نهايات
العصر العباسى الأول وهم ينطلقون منها لغزو مناطق أخرى فى حوض المتوسط ،
وكانت أقاليم إيطاليا هى هدفهم الأساسى ولقد استفادوا فى انجاز ذلك بالنزاعات
المحلية التى كانت قائمة بين أمراء ذلك الأقليم الذى لم يكن يشكل وحدة سياسية فى
ذلك الوقت بل كان مجرد وحدة جغرافية منقسمة بين مجموعة الإمارات المتنافسة
المتصارعة ، ولقد بدأ فتح الأغالبة لأقاليم إيطاليا منذ نهايات العصر العباسى الأول
خاصة بعد استيلائهم على مسينا عام ٢٢٩ / ٨٤٢ الذى فتح أمامهم الطرق إلى جنوب
إيطاليا فأحتلوا معظم أقاليمه وتسيديا عليها فترة حتى نجح الامبراطور البيزنطى فى
فرض نفوذه عليها مرة أخرى كما سبق بيانه .

٢٧ - عثمان ، مواقف حاسمة ، ص ٩١ - ٩٢

- خليل إبراهيم السامرائى وآخرين ، تاريخ المغرب العربى (المومل : دار الكتب للطباعة والنشر ١٩٨٨) ص ٧٩

٢١٧ - ٢١٥

٢٨ - رمضان ، ص ١٩٠ - ١٩١

- السامرائى ، تاريخ المغرب ، ص ٢١٧ وما بعدها

- عثمان ، مواقف حاسمة ، ص ٨٧ - ٩١

ولكن إذا كان الأغالبة قد فشلوا أثناء العصر العباسي الثاني ، رغم اتمامهم فتح صقلية في بداياته، في الاحتفاظ بتسيدهم على مدن جنوب ايطاليا التي كانوا قد فتحوها في نهايات العصر العباسي الأول ، فإنهم قد نجحوا في تعويض هذه الخسارة بتحقيق نصر كبير تمثل في فتحهم جزيرة مالطة عام ٢٥٦ / ٨٦٩ ورغم استماتة البيزنطيين في مقاومة هذا الفتح وذلك لموقع مالطة البحري الممتاز حيث تتوسط حوض المتوسط وتتحكم في بواغيز عدة ، الا أن النجاح كان حليف الأغالبة الذين تلقوا المدد والمساعدات من صقلية أثناء فتحهم لمالطة ولقد دام تسيده المسلمين عليها قرنين من الزمان ٨٧٠ - ١٠٩١ (٢٩)

ثم إن هذه الفترة شهدت أيضا استمرار تجرؤ المسلمين على روما ، فلقد كان حلم فتح روما يراود القوى الإسلامية في شمال أفريقيا روما ، فلما كانت نجاحاتهم في حوض البحر المتوسط وجزره في العصر العباسي الثاني تشجع أمير صقلية التابع لأغالبة أفريقية ليقوم بمحاولة على روما عام ٢٥٦ / ٨٦٩ نفس عام فتح المسلمين هناك لمالطة ، وبدلا من تمويل مجاهدة البحر للقيام بغزو روما كما حدث قبلا ، فإن أمير صقلية اختار أن يرأس هو بنفسه الحملة عليها فقاد حملة بحرية رست بالقرب من روما وأحكمت الحصار حولها ، ورغم عنف مقاومة الأساطيل الإيطالية المدعومة من البابا لهذا الغزو ، إلا أن الحصار كان محكما جدا مما أضطر البابا إلى التفاوض مع الصقليين على الجلاء مقابل دفع الجزية (٣٠)

وهكذا بنجاح المسلمين في المغرب الاسلامي في فتح جزيرة كورسيكا وسردينيا وكريت ومالطة وصقلية جزر البليار تسيدها على البحر المتوسط كله ، ولقد مهدت سيطرة المسلمين هذه على حوض البحر المتوسط لبداية دور من أدوار المد الاسلامي داخل الأراضي الأوروبية ذاتها وليس على السواحل فقط ، أما القوة الإسلامية التي قامت بالعبء الأساسي في الجهاد والفتح في الأراضي الأوروبية في العصر العباسي الثاني فكانت مجاهدة البحر وذلك بتأييد ودعم معنوي من الأندلس الإسلامية التي كانت تترشح في ذلك الوقت تحت وطأة حكم ملوك الطوائف فلم تستطع أن تقدم لهؤلاء المجاهدة شيئا أكثر من السماح لهم باستخدام موانئهم ومرافئهم ، وهكذا خرجت مجموعة من هؤلاء المجاهدة من سواحل الأندلس عام ٨٨٩ قاصدة جزر فرنسا أساسا ولكنهم نجحوا في إقامة قاعدة لهم في جبال الألب توافد عليها أعداد كبيرة من مسلمي الأندلس والمغرب فتحولت هذه المنطقة في جبال الألب إلى قاعدة قوية سمحت بتجاوز الغارات الإسلامية سمة المرحلية إلى سمة الثبات والاستمرارية وذلك

٢٩ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ١٩٢ .

٣٠ - المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

- عنان ، مواقف حاسمة ، ص ص ١٠٢ - ١٠٣ .

بفضل استنادها إلى مركز مستقر يتم منه الانطلاق^(٢١)، ولم تمض سنوات قليلة بعد إقامة قاعدة جبال الألب حتى كان المسلمون المنطلقون منها يتحكمون في كل ممرات جبال الألب ويغيرون على أوروبا في العمق حتى وصلوا في غاراتهم إلى سويسرا^(٢٢)

ومع انتهاء عهد ملوك الطوائف في الأندلس ومجيء عبدالرحمن الناصر إلى حكمها ، أصبحت القاعدة الإسلامية في الألب تستمد دعمها شبه التام من الأندلس الأموية حتى أضحت وكأنها ولاية تابعة لها ، يستدل على ذلك من سفارات حكام أوروبا المتوالية إلى البلاط الأموي تطلب توسطه لوضع حد لغارات مسلمي جبال الألب وذلك على فرنسا وإيطاليا خاصة^(٢٣)، ولقد بلغ خطر هذه القاعدة في الألب حدا دفع ملوك أوروبا إلى السعي لعقد تحالف مع الامبراطور البيزنطي رغم العداء المعروف بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والامبراطورية البيزنطية، ولقد قبل الامبراطور البيزنطي عقد هذه التحالفات مثلما فعل مع ملك بروفانس الذي تحالف معه لاجراج المسلمين من المناطق التي فتحوها من مملكته ولكن كان قبول الامبراطور محالفة أعدائه المسيحيين ضد المسلمين هو جزء لا يتجزأ من محاولات الامبراطورية البيزنطية استعادة السيطرة على حوض المتوسط بعد أن أضحي بحيرة عربية وذلك بالعمل على استئصال شأفة المسلمين من جزره وأيضاً من المدن الأوروبية المحيطة به، ومن المرجح أنه لو كان قد قدر لهذا التحالف البيزنطي /البروفانسي أن يسير إلى نهايته الطبيعية لكان المسلمون قد وجدوا أنفسهم في موقف حرج ، ولكن الظروف السياسية الخاصة بالصراعات السياسية بين أمراء أوروبا قد خدمت المسلمين في ذلك الوقت ، فائثناء أنشغال أمير بروفانس الزحف الفعلي لمواجهة المسلمين علم بأن أحد منافسيه انتهز فرصة انشغاله بالمسلمين وزحف بجيشه على إيطاليا محاولاً استخلاصها لنفسه ، فعاد ملك بروفانس مسرعاً إلى إيطاليا لمواجهة خصمه مرجئاً مواجهته للمسلمين وعقد معهم حلفاً يقطعون بمقتضاه الطريق عبر جبال الألب على جيوش ملك المانيا الزاحف على إيطاليا لضمها . ولقد قبل المسلمون هذا التحالف لأنه سيثبت أقدامهم أكثر في المنطقة ، ولقد أفاد المسلمون في جبال الألب كثيراً من الصراعات المحلية بين ملوك أوروبا حيث كانوا يستعينون بهم على بعضهم البعض ، وكان المسلمون هم المستفيدون الوحيدون من هذه الأوضاع حتى أنهم بدأوا يستقرون في المنطقة يتزاجون ويمارسون

٢١- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

٢٢- حسن ، تاريخ الإسلام ج ٢ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

٢٣- المرجع السابق ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

- شاكر ، التاريخ الاسلامي: الدولة الاسلامية ج ٢، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٠١ .

الزراعة حتى بدوا وكأنهم باقون إلى الأبد^(٢٤) وكان من الممكن أن يتحقق هذا لولا أن دخل بينهم عامل الخيانة فنظروا إلى مصالحهم الخاصة والدينية فكانت نهايتهم كما سنرى في المبحث القادم .

فإذا حولنا نظرنا الآن إلى الأندلس لوجدنا أن بدايات العصر العباسي الثاني زامنت بداية فترة من الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي في الأندلس كبلها عن القيام بمثل الدور الفعال الذي قامت به في العصر العباسي الأول في مواجهة القوى غير الإسلامية في المغرب ، فلقد عاشت الأندلس منذ وفاة حاكمها عبدالرحمن الأوسط عام ٢٣٨ / ٨٥٢ وحتى عام ٣٠٠ / ٩١٢ عندما جاء إلى حكمها الأمير عبدالرحمن الناصر فترة مضطربة عرفت في التاريخ باسم عصر دويلات الطوائف الأول .

وكما أدى ضعف سلطة الخليفة العباسي إلى انفصال دويلات الدولة عنها واستقلال حكامها بها ، فإن ضعف الأمراء الأمويين الثلاثة الذين خلفوا الأمير عبدالرحمن الأوسط شجع ولاة كثيرين في الأندلس على الاستقلال بولاياتهم عن قرطبة ، ضاعف من سوء الحال في الأندلس أن المجتمع الأندلسي كان مجتمعا متناغرا غير متجانس تحكمه عصبية محلية تسود أطماع عنصرية ظلت قيد السيطرة طالما القائم على الحكم قويا ، ولكن عندما ضعفت سيطرة هذا القابض على زمام الأمور طفت الأطماع والعصبية على السطح فكانت دويلات منفصلة ساعدت طبيعة الأندلس الجغرافية على التمكن لها^(٢٥) ، ولقد قامت دويلات للعرب ودويلات للبربر ودويلات للمولدين أما سكان البلاد الأصليين الذين لم يعتنقوا الإسلام وبقوا على مسيحييتهم فأنهم لم يشكلوا دويلات خاصة بهم ولكنهم كانوا على اتصال دائم بالدويلات المسيحية في الشمال الإسباني^(٢٦) .

ولقد عطل هذا التمزيق الذي أصاب الأندلس قدرتها على متابعة المد في الأراضي الأوروبية ، بل الأخطر من ذلك أنها بدأت تقف موقف الدفاع أمام حركة مد مسيحي أوربي عكسي ، فلقد تقدمت دويلات الشمال الإسباني المسيحية مستندة إلى العمق الأوربي ومدعمة بتحالف رسمي معهم لاحتلال بعض المدن الإسلامية التابعة للأندلس وذلك بعد الحاق خسائر فادحة بصيفوف المسلمين^(٢٧) . ولقد استمر هذا التجزؤ على

٢٤ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

٢٥ - المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

- إبراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة (بيروت : دار النهضة العربية ، ط ٢ ،

١٩٨٦) ص ٢٥٧ - ٢٧١ .

٢٦ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

٢٧ - المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .

- إبراهيم بيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ، ص ٢٨٤ وما بعدها

أراضى الدولة الأموية فى الأندلس من قبل الممالك المسيحية الشمالية حتى فى بداية عهد عبدالرحمن الناصر الذى كان مشغولا وقتها بتوحيد البلاد عن طريق محاربة ملوك الطوائف ، ولكن ما أن فرغ من هذه المهمة حتى جعل امارات الشمال الاسباني المسيحية شغله الشاغل فكانت فترة حكمه أبتداء من عام ٣٠٤ / ٩١٦ هي عبارة عن سلسلة طويلة متصلة الحلقات من الحملات التى لاتنقطع على هذه الممالك (٢٨)

ولكن استقراء وقائع هذه الحملات وما أفرزته من نتائج ليوضح أنها لم تكن حملات للفتح وانما كانت غارات للانتقام والتأديب وفرض الهيبة ، فعصر ملوك الطوائف الطويل وما ساءه من اضطراب أعطى لامارات الشمال المسيحية فرصة ذهبية لكى تدعم وجودها وقوتها بحيث لم يعد من اليسير القضاء عليهم وفتح أراضيهم ، فكان عصر ملوك الطوائف قد أدى إلى وجود نوع من توازن القوى بين الدولة الأموية فى الأندلس والممالك المسيحية فى الشمال المدعومة بالعمق الأوروبى لم يكن من اليسير الاخلال به ، ولكن اذا كان الناصر قد فشل فى الميل بميزان القوة إلى جانب الدولة الأموية إلا أن هذا لايعنى أن الأندلس لم تكن قوة دولية كبرى فى هذا الجزء من العالم لها مركزها فى الهيئة الدولية جعل الأطراف الأخرى غير الإسلامية تسعى لخطب ودها والاستعانة بها . فنجد مثلاً صاحب عرش ليون ونافار يلجأ إلى الناصر عام ٢٤٤ طالباً مساعدته فى اقضاء من اغتصب عرشه فكانت مساعدة الناصر مشروطة بالحصول على عشرة حصون من مملكته ، فوافق ملك ليون على هذا الشرط القاسى وذلك لعلمه وتقديره للمساعدة الجادة والحاسمة التى سيحصل عليها من الناصر وبالفعل استطاع الجيش الذى أرسله معه أن يعيده إلى العرش (٢٩)

وتعد هذه الواقعة ذات دلالة خاصة تشير بالفعل إلى ادراك حكام الأندلس صعوبة ضم أراض من الأطراف الأخرى الشمالية بالفتح ومن ثم استخدموا هيبتهم وقوتهم للحصول على أراض ولكن بوسائل الدبلوماسية بدلا من الوسائل العسكرية ، ثم أن قوة الدولة الأموية فى الأندلس والهيبة التى فرضتها فى الساحة الدولية أدت إلى نتيجة أخرى هامة على صعيد العلاقات الدولية وهى قيام علاقات تحالف بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية ساعد على ذلك اشتراك الأمويين والبيزنطيين فى عدائهم للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ولقد بلغت العلاقات الودية تلك أوجها فى عصر الأدهار الأموى وفى ظل الأمراء الأقوياء الذين استطاعوا أن يقفوا أندادا لأباطرة الروم (٤٠)

٢٨ - المرجع السابق ، ص ٢٧٧ ، ٢٨٢ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ١٩١

٢٩ - المرجع السابق ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

- بيخون ، الدولة العربية فى اسبانيا ، ص ٢٩٠

٤٠ - المرجع السابق ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٨ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٠٩ .

ولم تؤد وفاة الناصر إلى ضياع ما كسبه للأندلس من هيبة دولية وندية في علاقات التعامل مع الاسبان المسيحيين وكذا مسيحيي أوروبا ، ولكن استمرت الأندلس قوية لفترة أخرى قادمة كما سنرى بعد قليل .

المطلب الثالث : صعود الدولة الفاطمية وانشغالها التام بعلاقات الصراع مع الأطراف الإسلامية في الشرق والغرب وأثر ذلك على التعاملات الدولية للعالم الإسلامي :

في ذات الوقت الذي كان فيه المشرق الإسلامي يعاني من ضعف الخلافة العباسية وانحلالها مع بروز الدولة البيزنطية قوية مرة أخرى واستعادتها لأجزاء كثيرة من الشام وأسيا الصغرى وجزر شرق المتوسط ، وبينما كان المغرب الإسلامي يقوم بدور مجيد في قيادة الصراع مع القوى غير الإسلامية في هذا الجزء من العالم فحول البحر المتوسط إلى بحيرة عربية بإدخال جزره في الوسط والغرب تحت السيطرة الإسلامية ثم وثب إلى جبال الألب ومنها إلى داخل أوروبا للمركز لفترة في جنوب إيطاليا ، وفي ذات الوقت أفرز المغرب الإسلامي قوة إسلامية جديدة قدر لها أن تلعب دورا محوريا في التعامل الدولي مع القوى غير الإسلامية لفترة طويلة قادمة ، هذه هي الدولة الفاطمية ، والأهمية القصوى التي ستمثلها الدولة الفاطمية هي أنها ستقرب المشرق الإسلامي من المغرب الإسلامي مرة أخرى يجعل حاضرتها في مصر - قلب العالم الإسلامي - وستكون مؤهلة لأن تنقذ المشرق الإسلامي من الخطر البيزنطي^(٤١)

والواقع أن الفترة محل الدراسة في هذا المبحث لم تشهد أي دور ايجابي للفاطميين لافيما يتعلق بجمعها شمل الأمة الإسلامية ولافيما يتعلق بالتصدي للخطر البيزنطي في المشرق ، ذلك أن هذه الفترة قد استوعبتها تماما جهود الفاطميين في تثبيت دعائم ملكهم في المغرب الإسلامي بعد نجاحهم في القضاء على الأغالة ودخول القيروان عام ٢٩٧ / ٩٠٩ فلقد نجحوا بعد ذلك في القضاء على الدولة الرستمية في الجزائر والدولة المدراية في المغرب الأقصى ، ولم يتبق من الدويلات الأربع التي كانت قائمة في الشمال الأفريقي وقت بدء الدعوة الفاطمية هناك إلا دولة الأدارسة والتي سوف تسقط هي الأخرى عام ٣٦٣ (٤٢)

ورغم نجاح الفاطميين الباهر على الدويلات المنافسة في المغرب إلا أن العنصر الأساس الذي كان يشكل استراتيجية الحكام الفاطميين ويحكم بالتالي تحركاتهم وقراراتهم كان هو القضاء على الخلافة العباسية ، ومن ثم فإن قراراتهم المتعلقة

٤١ - المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

٤٢ - المرجع السابق ، ص من ٢٢٨ - ٢٣٩ .

- السامرائي ، تاريخ المغرب ، ص من ١٧٤ - ١٧٥ .

بالعلاقات الفاطمية / العباسية أثرت دائما وبالسلب على القدرة على التعامل بفعالية مع الأطراف الأخرى على الساحة الدولية ، فقرار الحاكم الفاطمي اتخاذ لقب خليفة أدى عملا إلى انقسام العالم الاسلامي إلى ثلاث قوى كبرى : العباسية والفاطمية والأموية بعد أن كان منقسما بين دولتين فقط فزاد هذا من تأكيد العواقب الوخيمة لعلاقات العداء والتوجس والشك . ثم إن القرار ضرب وحدة العالم الاسلامي الروحية أيضا في مقتل ، فالحركات الاستقلالية والانفصالية حتى ذلك الحين كانت لاتجرؤ على أن تشكك في الشق الروحي للمنصب الخلافي حيث التمرد كان سياسيا دائما وليس عقيديا (٤٣)

ثم يأتي قرار ثان خطير نابع من رغبة الفاطميين في القضاء على الدولة العباسية ، فهذه الرغبة جعلتهم يخططون لبسط نفوذهم على المغرب الاسلامي كله لتعزيز قوتهم في مجابهة العباسيين فكان قرارهم المبكر جدا بضرورة اخضاع مصر والأندلس لنفوذهم، ولما كانت الأندلس بحكم وجودها على أرض أوروبية ومصر بحكم سيطرتها على الشام هما الدولتان اللتان تتصديان عملا للقوى غير الإسلامية الرئيسية متمثلة في الامبراطورية البيزنطية في المشرق والامبراطورية الرومانية المقدسة في المغرب ، فإن هذا القرار والشروع في تنفيذه وانشغال كل من الأندلس ومصر بالنتائج المترتبة عليه أثر بالضرورة على قدرتهما على التعامل الدولي الفعال لمدة قرنين ونصف من الزمان هما مرحلة عمر الدولة الفاطمية (٤٤)، فإذا نظرنا أولا إلى العلاقات الفاطمية الأندلسية لوجدنا أن الفاطميين رغبة منهم في التسيد على الأندلس بوصفها المفتاح للسيطرة على المغرب كله، بدأوا ومنذ الشهور الأولى لوجودهم في المغرب إرسال الدعاة إلى الأندلس وعلى رأسهم أبو علي الداعي الكبير لهذا المذهب مستفيدين من الأوضاع الداخلية غير المستقرة بها في ذلك الوقت - والتي أشرنا إليها - لجذب أنصار لهم ، ولقد نجحوا بالفعل في تجنيد بعض الثوار في الأندلس ليعترفوا بسلطة الحاكم الفاطمي دون الأمير الأموي (٤٥). ولكن إذا كان الفاطميون لم يواجهوا نصبا في الدعوة لهم في الأندلس في أول عامين لوجودهم في المغرب فإن الأمور اختلفت تماما بعد مجيء الناصر الأموي إلى حكم الأندلس عام ٣٠٠، فلقد وجد فيه الفاطميون خصما عنيدا لا يجابه وكان الصراع بينهما مريرا ، ولقد سارت المواجهة

٤٣ - بيضون ، الدولة العربية في أسبانيا من ٢٨٥ - ٢٨٦ .

٤٤ - المرجع السابق ، من ٢٩٠ - ٢٩٣ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، من ٢٤٠ .

- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر - التاريخ السياسي (الاسكندرية :دار المعارف - ط ٢

- ١٩٧٦) ، من ٩١ - ٩٢ .

٤٥ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا من ٢٤٠ .

العنيفة بين الفاطميين وأموي الأندلس في خطين متوازيين ، أما الخط الأول فكان خط المواجهة المعنوية حيث أعلن عبدالرحمن نفسه خليفة عام ٣١٦ (٤٦) ليقف على قدم المساواة مع الفاطميين الذين أعلنوا أنفسهم خلفاء للمسلمين متحدّين بذلك شرعية الخلافة العباسية ، وعلينا أن نتذكر أن أموي الأندلس - رغم عدائهم العميق للعباسيين - ظلوا يحكمون الأندلس ثمانين عاماً دون أن يدعوا لأنفسهم حق الخلافة ، بل وكان الصراع بينهم وبين العباسيين ذا طابع سياسى صرف ، ولم يزعج بالمعاني الدينية والرموز المعنوية فيه، وهذا يوضح لنا عمق الخطر الذى شكله الفاطميون ، فلقد دفع قربهم الجغرافى من الأمانة الأموية بالأندلس وتحديدهم للقوى الإسلامية على الساحة باستخدام أسلحة معنوية لها تأثير كبير فى صفوف العامة ، نقول دفع هذا بالأمويين إلى اتخاذ الخطوة التى أحجموا عن اتخاذها قرابة قرنين من العداء مع العباسيين ولقد كان لهذا آثار وخيمة على الوحدة الروحية للأمة الإسلامية التى أضحت يتنازعها ثلاثة خلافت كل منها يدعى الشرعية بما يتبع ذلك من صراعات سياسية بين الأنظمة الثلاثة تصل حداً بعيداً من العنف والضراوة لاكتسابها معان معنوية تغلف بها الخلافات السياسية .

أما المستوى الثانى للصراع بين الأمويين والفاطميين فكان هو المستوى العسكرى فلقد حرص الناصر - مع قرب الخطر الفاطمى جغرافياً منه - على أن يعيد بناء قوته العسكرية بعد ما كان قد أصابها من وهن أثناء فترة حكم دويلات الطوائف ، ولقد اهتم الناصر بتقوية الأسطول خاصة حيث يصل مضيق جبل طارق الأندلس بشمال أفريقيا حيث استقر الفاطميون ، وهكذا بدلاً من أن يوجه الناصر أنظاره للشمال إلى الأطراف الأوروبية غير المسلمة ، فإنه ركز جل انتباهه على حدوده البحرية الجنوبية من حيث يمكن أن يأتى الخطر الفاطمى ، فكان أنشغاله بتحسين الثغور الأندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب عظيماً ، وبدلاً من أن يقوم بالفتح فى أراضى أوروبا أو على الأقل مساعدة أطراف إسلامية أخرى على هذا ، قام باحتلال ثغور الساحل المغربى المواجهة للأندلس - وهى أرض إسلامية - فأحتل مدينة مليلة عام ٣١٤ / ٩٢٧ ومدينتى سبتة وطنجة عام ٣١٩ ، ثم أنه أيضاً بدلاً من استغلال الخلافات الداخلية فى الممالك المسيحية لتحقيق مكاسب للأندلس الإسلامية فإنه عمل على استثمار الأوضاع الداخلية فى المغرب الإسلامى بفرض أضعاف الخلافة الفاطمية أثار قبائل البربر ضدهم ، كما اصطنع الأمراء الأدارسة وألبهم على الفاطميين مستغلاً نقيمتهم عليهم لتقليص نفوذهم وقصره على المناطق الجبلية الشمالية (٤٧)

٤٦ - حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ط ٢ ، ١٩٦٤) ص ٢٤٩

٤٧ - المرجع السابق ، ص ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

ولقد كرسست سياسات الفاطميين العدائية تلك ومحاولات القضاء على القوى الإسلامية الأخرى للتفرد بزعامة العالم الإسلامي نمطا للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين كان له آثار سلبية وخيمة على مركز دولة الإسلام في الساحة الدولية . هذا النمط هو سعى طرف إسلامي للتحالف مع طرف غير إسلامي ضد طرف إسلامي آخر . فالدولة الأموية في الأندلس - مدفوعة بالخطر الفاطمي - سعت إلى التحالف مع الدولة البيزنطية بل وحتى مع القوى الأوروبية المعادية للفاطميين بل والمتوجسة من خطرهم ، فنجد الدولة الأموية تتفاهم مع البيزنطيين على أن لا تتدخل إلى جانب المسلمين في أي قتال للبيزنطيين معهم بل تلتزم جانب الحياد ، وكان المفهوم أن المقصود بالجانب الإسلامي هنا هو الفاطميون حيث كان الإمبراطور البيزنطي يخطط لاستعادة صقلية التي آل حكمها للفاطميين بعد قضائهم على الأغلبة ثم أن الأمويين تحالفوا مع ملك إيطاليا الذي كان يخطط لقتال الفاطميين لتخريبهم إحدى مدنه الساحلية^(٤٨) .

ثم تطور أمر المواجهة بين الفاطميين وأموي الأندلس إلى حد القتال المسلح المباشر حيث اشتبكت القوتان الإسلاميتان في معارك حربية ابتداء من عام ٣٤٠ خاصة بلغت حدا من العنف جعله بعض المؤرخين السبب المباشر في عقد الفاطميين العزم على ضرورة صرف النظر عن المغرب والتوجه إلى المشرق لفتح مصر وماورائها^(٤٩) ، ولكن استقراء أحداث التاريخ لا يرجح هذا الرأي ذلك أن محاولات الفاطميين فتح مصر بدأت مبكرة جدا منذ الأيام الأولى لدولتهم هناك حيث خرجت أولى حملاتهم التي تتابعت بعد ذلك على مصر عام ٣٠١ أي بعد تأسيس دولتهم في المغرب بأربع سنوات فقط ، والثابت أن الفاطميين منذ أن وضعوا أقدامهم في أفريقية وهم يخططون للتوسع شرقا وغربا على حد سواء ، وإن التوسع في الخطين سار متوازيا ، وكما استعدى توسعهم غربا أموي الأندلسي عليهم فإن توسعهم شرقا فجر مخاوف الدولة العباسية التي كانت قد نجحت في إسقاط الدولة الطولونية في مصر في ذلك الوقت ٢٩٢ / ٨٦٨ ولما لم تقم الدولة الإخشيدية في مصر حتى عام ٣٢٣ ، فإنه في الفترة من ٣٠١ - تاريخ أول حملة فاطمية على مصر و ٣٢٣ تاريخ قيام الدولة الأخشيدية وقع عبء مواجهة ضغوط الفاطميين على مصر على الخلافة العباسية مباشرة ودون وكالة ، ولقد نجحت بالفعل في رد الحملات الفاطمية التي أرسلت على مصر أعوام ٣٠١ و ٣٠٧ و ٣٢١ .

٤٨ - المرجع السابق ، ص ٢٤١ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

٤٩ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

أما القائد العسكري الذي نجح في صد الحملة الأخيرة - والتي كانت أخطرهم - فكان محمد بن طفج الأخشيدي الذي أرسله العباسيون واليا على مصر من قبلهم فنجح في الاستقلال بها عام ٣٢٣، وفي اختبار القوة أرسلت الدولة الفاطمية سريعا حملة إلى مصر عام ٣٢٤ لاختبار مدى قوة الدولة الوليدة ولقد نجح الأخشيدي في صدها أيضا (٥٠)

ولقد خدمت الظروف الأخشيدي في السنوات القليلة التي تلت هذا الاعتداء الفاطمي على دولته بان انشغل الخليفة الفاطمي المنصور بن القائم بأمر الله بضبط الأمور الداخلية في المغرب عن القيام بهجمات جديدة ضد مصر ، فاتفق الأخشيدي مع الحمدانيين - كما سبق بيانه - على أن يطلق الأخشيديون يد الحمدانيين في شمال الشام لاينازعونها فيه فيأمنوا من ثم خطر الحمدانيين وكذا البيزنطيين على حدودهم الشمالية ويتفرغوا لمواجهة الخطر الفاطمي الآتي من الغرب .

والمثير في أمر هذا الاتفاق أن الأخشيديين لم يسعوا إلى وقف نزاعهم مع الحمدانيين ومنازعتهم ملكهم في الشام إلا عندما ظهر طرف يهدد ملكهم هم في مصر ورغبتهم في التفرغ لمواجهة . والجدير بالانتباه أن هذا الطرف الذي عدوه خطيرا يستوجب التفرغ لمجابهته كان طرفا إسلاميا (الدولة الفاطمية) ، في حين أنهم لم يسعوا للتوصل إلى مثل هذا الاتفاق مع الحمدانيين والخطر البيزنطي كامن على البوابة الشمالية لدار الإسلام ، وهذا يوضح مرة أخرى سيادة الروح الانعزالية وتقديم المصالح الخاصة ، فخوف الأخشيديين على ملكهم الخاص في مصر من الخطر الفاطمي القريب دفعهم إلى السعي لوقف الصراع مع الحمدانيين ، أما الخطر البيزنطي البعيد عنهم في الشمال فلم يحسبوا حسابه وهم يشغلون الحمدانيين عنه بالكر والفر لأنه وإن كان يهدد جزءا من دار الإسلام ، فهذا الجزء لايسيطرون عليه هم فهو ملك حمداني وليس ملكا أخشيديا ولم يقدروا أنه أرض اسلامية قبل أي شيء فالخطر الفاطمي على أخشيدي مصر كان هو السبب أذن الذي أدى إلى تفاهم الأخشيديين مع الحمدانيين ، وكان من نتيجة هذا التفاهم أن وقع عبء حماية بوابة الأمة الشمالية الإسلامية من الخطر البيزنطي على الدولة الحمدانية في الشام والموصل والجزيرة الفراتية . ولم يكن هذا بالعبء السهل فلقد استغل البيزنطيون سنوات الصراع بين الحمدانيين والأخشيديين فاغاروا عام ٣٣١ / ٩٤٢ على دارا ونصيبين وميافارقين وقاربوا حلب ذاتها ، وفي العام التالي دخلوا رأس العين من أكبر مدن بلاد الجزيرة ، ثم دخلوا الرها عام ٣٣٣ / ٩٤٣ مدالين على أن يدهم هي العليا

٥٠ - حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٢٢ - ١٢٥ .

- ماجد ، ظهور الخلافة الفاطمية ، ص ٩٣ - ٩٩ .

بنقلهم بعض متعلقات السيد المسيح من كنيسة الرها إلى القسطنطينية في موكب عظيم مر بالأراضي الإسلامية في طريقه إلى حاضرة ملكهم^(٥١)، وهكذا ما أن يستتب الأمر للحمدانيين في الشام باتفاقهم مع الأخشيديين فسيبدأون في المهمة الصعبة المركلة بهم وسينجحون بالفعل بعد سنوات طويلة من فر المسلمين أمام كر البيزنطيين من أن يقفوا لهم على قدم المساواة فيدور الصراع بينهما على الأقل سجالات كما سنرى في المبحث التالي .

المبحث الثاني

الدور الفاطمي والدور الأموي بديلاً عن الدور العباسي وعلاقات القوى الإسلامية - المسيحية

كانت السمة الأساسية للنصف الأول من العصر العباسي الثاني هو أنه كان مرحلة تكوين وتشكيل خريطة جديدة للقوى الإسلامية ، فظهرت قوى جديدة اختفت قوى كانت قائمة ، واستتبع ذلك بالضرورة إجراء توازنات جديدة عن طريق شبكة من التحالفات داخل العالم الإسلامي بين أطرافه ثم بين بعض الأطراف الإسلامية من جانب والقوى غير الإسلامية من جانب آخر . ولكن بعد مرحلة التكوين تأتي مرحلة التنفيذ . وهكذا سوف يشهد النصف الثاني من العصر العباسي الثاني نتائج التفاعلات التي تمت وفقاً لخريطة القوى والتوازنات الجديدة تلك .

المطلب الأول : استمرار اختلال ميزان القوى في المشرق الإسلامي لصالح الدولة البيزنطية في ظل السيطرة البويهية والسلجوقية :

رأينا كيف أدى ترتيب توازنات القوى في نهايات عصر سيطرة الأتراك بين الحمدانيين والأخشيديين إلى وقوع العبء الأساس في صد المد البيزنطي على الحمدانيين ابتداء خاصة من عام ٢٢٢ وهو عام عقد الاتفاق بينهم وبين الأخشيديين على ترك الأخيرين شمال الشام للحمدانيين والاكتفاء بفرض سيطرتهم على الأجزاء الجنوبية من إقليم الشام المتاخمة لمركز دولتهم في مصر .

ولقد كان خطر البيزنطيين الذي وصل وقت عقد هذا الاتفاق حداً لا يمكن التغاضي عنه هو الدافع الأساسي من وجهة نظر العديد من المؤرخين وراء أدراك الحمدانيين والأخشيديين ضرورة الوصول إلى صيغة اتفاق تنهى الصراع بينهما وتمكن من مواجهة الخطر البيزنطي . فلقد كان البيزنطيون قد أغاروا في هذه الفترة على أرزن

٥١ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٢٢ .

وميافارقين ونصيبين ورأس العين وخربوها ، بل واستطاعوا استرداد مناطق هامة وفرضوا هيبتهم وسطوتهم فى المنطقة فاختلف ميزان القوى بشدة لصالحهم (٥٢) .

وهكذا ما أن استقر الأمر فى الشام لسيف الدولة الحمدانى وجعل من حلب عاصمة لملكه هناك حتى بدأت سلسلة لا تنقطع من المواجهات المسلحة بين المسلمين والبيزنطيين ابتدأها البيزنطيون بتوجيه حملة كبرى على الشام وسيف الدولة ما كاد يستقر بعد هناك ، ولقد حرص سيف الدولة الحمدانى على أن يبتعث تقاليد الجهاد الإسلامى السنوى فى أراضى العدو فلم يكد يمر عام واحد طوال عشر سنوات تقريبا (حتى عام ٣٤٨م) دون وقوع مواجهة بين الجانبين (٥٣) .

ورغم أن الصراع كان يدور سجالا بين الحمدانيين والبيزنطيين إلا أن مجرد تبادل الجانب الإسلامى النصر والهزيمة مع الجانب البيزنطى كان يعد أنجازا كبيرا بمقاييس القوة ومعايير الظروف الداخلية السائدة فى كلا الجانبين فى ذلك العصر ، ويمكننا تقدير مدى الانجاز الذى حققه الحمدانيون فى مواجهة البيزنطيين بالمقارنة بالفترة السابقة فى العصر العباسى الثانى من أن البيزنطيين - مثلهم مثل الحمدانيين - ظنوا أنهم لن يظهروا على خصمهم بشكل حاسم أبداً فبدأوا فى تحصين الثغور وتقوية الحدود ليقبضوا داخلها كما عملوا على اقطاع الجند الأراضى فى مناطق الحدود ليستقروا بها ويحموها (٥٤)

ولكن سرعان ما بدأ ميزان القوى يميل ميلا واضحا لصالح الدولة البيزنطية عندما نجحت فى تكوين جيش ضخم من الروس والبلغار والخزر استخدموه فى شن غارات مكثفة ومتوالية على الشام متوغلين بشدة إلى الداخل ، وإذا كان سيف الدولة استطاع أن يصد هجمتهم الأولى ، إلا أن عجزه بدأ واضحا ابتداء من غزوة البيزنطيين على الشام عام ٣٤٨هـ / ٩٥٩م التى خربوا فيها حصن الهارونية الذى كان بناه هارون الرشيد ووصلوا إلى ميفارقين (٥٥) ولقد كان من الآثار الوخيمة لعجز الحمدانيين عن التصدى بقوة لهذه الحملة أن تشجع البيزنطيون على غزو كريت عام ٣٥٠ - ٩٦٠ بغرض استرجاعها ونجحوا بالفعل فى تحقيق ذلك بعد أن ظلت هذه الجزيرة مستعصية على حملاتهم المتوالية منذ العصر العباسى الثانى كما رأينا وبعد أن ظلت وحدها صامدة فى شرق البحر المتوسط بعد أن سقطت لهم كل جزره وكانت بحق

٥٢ - شاکر ، التاريخ الإسلامى : الدولة العباسية ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

- حسن ، تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٢١ .

٥٣ - المرجع السابق ، ص ١٢١ - ١٢٢ ، ٢٣٦ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

٥٤ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص

٥٥ - شاکر ، التاريخ الإسلامى : الدولة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١٥٩ - ١٦٢ .

قاعدة منيعة للمقاومة الإسلامية فى هذه المنطقة وبالإضافة إلى الأثر السيئ لسقوط هذه الجزيرة بعد الصمود الطويل ، فإن الآثار المادية لسقوطها كانت وخيمة أيضا حيث هى مفتاح البحر المتوسط الشرقى ومن يسيطر عليها يتحكم فى الجزء الشرقى من حوض المتوسط ويتسيد عليه تماما (٥٦). ويجدر هنا الإشارة إلى أن افتقاد المسلمين للإحساس بمعنى وضرورة التناصر فى أحداث هذه الفترة كان حاسما فى الحد من قدرتهم على التعامل مع القوى غير الإسلامية بصورة فعالة وبالتالى على قدرتهم فى الاحتفاظ بموقع مؤثر على خريطة التوازن الدولية ، فبداية يلحظ المؤرخون أن عدم قدرة الحمدانيين على الاستمرار فى الصمود البيزنطيين إنما يرجع إلى تحملهم وحدهم ولسنوات طويلة متصلة عبء التصدى لضربات قوية متواصلة من قوة دولية عظمى كانت تخبر وقتها عصرا من أزهى عصور قوتها دون أن تتلقى أى مساعدة من المركز الذى وصل حدا أدنى من التدهور والانحلال بسيطرة بنى بويه عليه منذ ٣٢٤ ولامن الدويلات المستقلة التى انشغلت بمواجهة بعضها البعض (أخشيديين / فاطميين ، أموى الاندلس) عن أدراك حتمية التكتل فى مواجهة الخطر المحقق بدار الإسلام أو حتى بضرورة تقديم العون للقوة التى يقع عليها عبء المواجهة المباشرة (٥٧) . ولم يتحرك الأخشيديون لإرسال المدد إلا عندما سقطت حلب ذاتها ، فكان الوقت متأخرا جدا ، بل وربما كانوا قد تحركوا فى ذلك الوقت خوفا فقط من سقوط الدولة الحمدانية وهى الحصن المنيع الذى يكفيهم مؤونة مواجهة البيزنطيين . ولقد طلب الحمدانيون العون صراحة من القوى الإسلامية التى يمكن أن تساعدهم . وكان أن استجاب السامانيون فى خراسان وأرسلوا نجدة عاجلة إلى الحمدانيين لتساعدهم فى صد الخطر البيزنطى ، ولكن بدلا من أن يستغل الحمدانيون تلك النجدة فى غرض الجهاد أرادوا استخدامها فى محاربة خصومهم أمراء بنى بويه ، وعندئذ خمدت حماسة الخراسانيين وعادوا أدراجهم دون أن يشتركوا فى القتال . وهكذا ثبت أن الخلافات المذهبية والداخلية بين أمراء المسلمين كانت أعمق فى بعض الأحيان من أن تؤلف بين قلوبهم لمواجهة الخطر غير الإسلامى . وفى ضوء هذه الانقسامات يمكن أن تنسى الانتصارات التى أحرزها البيزنطيون .

ويصدق نفس الشيء وربما بصورة أوضح على سقوط كريت حول ذات الوقت ، فإن حاكم كريت أدرك عدم مقدرته على التصدى بقواته الخاصة منفردا للحملة البحرية من الأمبراطورية البيزنطية فأرسل يستجد بالمسلمين شرقا وغربا ، ولكن لم يرد إليه الا

٥٦ - المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

- حسن ، تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٢٢ .

٥٧ - المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

مددلايكاد يذكر من طرسوس شرقا ومن أفريقية غربا قضى عليه البيزنطيون فى البحر قبل أن يصل كريت ، وهكذا ضاعت كريت مفتاح حوض المتوسط الشرقى من المسلمين . (٥٨)

وعندما أراد سيف الدولة الحمدانى الانتقام لهزائمه ، هُزم مرة أخرى وظهر مدى وهنه ففتحت هزيمته الأخيرة تلك ، الباب أمام البيزنطيين لفتح قالقلا عام ٣٥٢هـ / ٩٦٢م ثم عين زبى مفتاح الشام فى نفس العام بل وعلى خمسين بلدا وحصنا فى غصون أيام قليلة من نفس العام ، ثم كان حصار حلب ذاتها - الذى ذكرناه عاليا والذى روع الأخشيديين مع الحمدانيين - ثم أقتحامها واحتلالها فى نفس العام أيضا فكان بمثابة الضربة القاضية الموجهة لهيبة الدولة الحمدانية بضرب واحتلال حاضرتها . وإذا كان البيزنطيون قد اضطروا إلى الانسحاب فى مواجهة مقاومة أهل حلب العنيفة ، فإن أثر سقوطها هذا - ولو إلى حين - كان بالغاً على مصير الدولة الحمدانية حيث ثارت حلب وانطاكية ولم يتم أخضاعها إلا بصعوبة ، وبدأت الفتن الداخلية - كما كانت دائما - معول هدم لآى محاولة خارجية جادة ، فإثناء انشغال سيف الدولة الحمدانى بالثورات الداخلية عليه نتيجة فقدانه مصداقيته أمام شعبه جانت فرصة ذهبية متمثلة فى اضطراب الأحوال الداخلية فى الدولة البيزنطية أثناء انتقال الحكم من رومانوس إلى نقفور فتقدم على عجل ودون تأمين لجبهته الداخلية لسيّتعيد عين زبى والمصيصة ولكن لم يمر كثير حتى أستردها البيزنطيون ثانية ، فعجلة التاريخ كانت قد دارت على الدولة الحمدانية وما كان لها أن تتوقف ، وتقدم البيزنطيون أكثر وفتحوا مدنا وحصونا عدة حتى استعادوا قالقلا كلها بعد أن بقيت ثلاثة قرون فى يد المسلمين وتمموا هذا بالاستيلاء على قبرص (٥٩) ، وبعد وفاة سيف الدولة عام ٣٥٦ / ٩٦٧ كثف البيزنطيون من ضغوطهم فانتزعوا أنطاكية عام ٣٥٨ / ٩٦٩ بعد ثلاثمائة عام من السيادة الإسلامية ثم اسقطوا حلب بعد شهر واحد من سقوط أنطاكية (٦٠)

ويبدأ مع عملية سقوط حلب نمط آخر من أنماط التفاعلات الإسلامية / غير الإسلامية سيكتسب قدرا كبيرا من الثبات فى العهود التالية وسيظهر كثيرا فى أوقات الضعف والتحلل والتفكك السياسى وهذا هو عامل الخيانة على الجانب الإسلامى ، صحيح أننا رأينا هذا قبلا فى أيام قوة الدولة الإسلامية وتماسكها ولكنه كان مقصوراً على تحالف الطرف غير الإسلامى مع تائر أو متمرد داخل الدولة الإسلامية من مثل مساعدة الروم لصاحب الخرمية أيام المعتصم كما سبق بيانه .

٥٨ - شاكر ، التاريخ الإسلامى: الدولة العباسية، ج٢، ص ١٥٩ - ١٦٢

٥٩ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ص ٢٢٤ .

٦٠ - حسن ، تاريخ الإسلام ، ج٢ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

ولكن فى سقوط حلب - وهو ما سنراه بعد ذلك كثيرا - تاتى الخيانة من قائد مسلح أراد أن يكون صاحب الأمر والنهى فيها يستأثر بأمرها دون سعد الدولة بن سيف الدولة ومن ثم اتفق مع البيزنطيين على تسليمها لهم مقابل وعدهم له بأن يبقوا عليه حاكما من قبلهم ، وكانت شروطهم التى أملاها عليه وقبلها صاغرا والتى ما وضعوها إلا ليثبتوا أن أيديهم هم هى العليا وليست يد المسلمين حتى لو كان عاملها مسلما ، هى أن يدفع المسلمون فى حلب الجزية للروم وأن يعفى المسيحيون فيها من دفع أى مال للمسلمين ، أما الأمور المالية للإمارة مثل جباية الجمارك فتقوم عليها لجنة مختلطة تضم إلى جانب المسلمين من أهل حلب ممثلين من البيزنطيين ، ولقد بلغ من تردى حال المسلمين أن سعد الدولة ابن سيف الدولة المجاهد المسلم ضد الخطر البيزنطى والذي تمكن من دخول حلب والقضاء على الخائن الذى سلمها لم يجد بدا من القبول بنفس شروط الاذلال التى وقعها الخائن قبلا (٦١)

ولقد استنزف المد البيزنطى مع مجيء الامبراطور تزيتمسكس الشمشقيق الذى خلف نقفور والذي تحالف مع ملك أرمينيا وتقدم معضدا بهذا الحلف ليستكمل فتح الشام كله من سلسلة من الحملات المتصلة بدأت عام ٣٦٣ / ٩٧٤ استولى خلالها على أصر ونصيبين وطبرية وقيسارية والناصرية والقدس والرملة وعكا وصيدا وبيروت وجبيل وأدخل أمير الموصل الحمداني فى طاعته ، وكذا دمشق التى قبلت بوجود حاممية بيزنطية بها ودفعت الجزية للروم البيزنطيين (٦٢). ومن الهام أن نشير هنا إلى أن بعض المؤرخين يؤكدون أن فى متابعة خط سير حملات تزيتمسكس ما يوضح أنها كانت ارهاصات مبكرة للحروب الصليبية التى ستأتى إلى الشرق بدعوة من الامبراطور البيزنطى بعد نصف قرن تقريبا فهدف تزيتمسكس الواضح من حملاته تلك هو أسقاط الخلافة العباسية واحتلال فلسطين والاستيلاء على بيت المقدس ولقد استخرجت حملات تزيتمسكس الخطيرة من العامة نفس رد الفعل الذى أظهرته عند استشعارها بالخطر وفقدان الأمن عندما نجح الروم البيزنطيون فى القضاء على أميرى طرسوس وملطية. فانفتحت ثغرة خطيرة فى خط الدفاع عن أراضي الدولة ، كما سبقت الإشارة فى بداية المطلب الأول من هذا المبحث ، وأيضا عندما سقطت حلب عام ٩٦٢/٢٥٢ (٦٣) .

ويهمنا هنا رد فعل الخليفة لثورة العامة فى بغداد يطالبونه بالقيام بواجبه فى الذود عن حمى الدولة وفى حمايتهم ، فالخليفة فى كل الحالات أظهر عجزا عن القيام بهذا الواجب ، وإذا كان هذا العجز قد فهم ضمنا فى حالة قضاء البيزنطيين على

٦١ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ص ٢٣٥ .

٦٢ - المرجع السابق ، ص ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

- حسن ، تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، ص ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

٦٣ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٣٥ .

أميرى طرسوس ومطلية حيث ذكرنا سابقاً أن أهل اليسار، وليس الخليفة، تبرعوا بالمال اللازم لتجهيز الجيوش التي يمكنها صد المد البيزنطى، فإن عجز الخليفة لم يعد مفهوماً ضمناً وحسب بل صرح به خاصة فى الحالة الأخيرة ويجدر بنا هنا أن نورد نص مقالة الخليفة العباسى المطيع عند مطالبته الدفاع عن الدولة والتصدى للبيزنطيين حيث قال "إنما يلزمنى الغزو إذا كانت الدنيا فى يدي وإلى تدبير الأموال والرجال، وأما الآن وليس لى منها القوت القاصر عن كفائى وهى فى أيديكم (يقصد البويهيين) وأيدى أصحاب الأطراف، فما يلزمنى غزو ولا حج ولا شىء مما تنظر الأئمة فيه، وإنما لكم منى هذا الاسم الذى يخطب به على منابرکم، تسكنون به رعایاکم، فإن أحببت أن اعتزل عن هذا المقدار أيضاً وتركتكم والأمر كله " (٦٤).

وهذه الكلمات القصيرة لتلخص فى بلاغة منقطعة النظير الوضع الداخلى كله وأثره على قدرة الدولة العباسية على التعامل مع محاولات التجزؤ عليها من الأطراف الدولية فرأس الدولة لا يملك شيئاً فى الدولة فهو لا يعدو كونه موظفاً شرفياً لدى البويهيين يتقاضى أجراً منهم لتمثيل دور الرمز المعنوى الذى يحتاجونه لتبرير وجودهم فى السلطة ولإضفاء شرعية على تسييرهم شئون الحكم، وبالتالي فإن الجهاد بل وحتى الحج، فى إشارة إلى أمور الدين والدنيا معاً لا يلزماء بل يلزماً أصحاب السلطة الحقيقيين - أى البويهيين وأمراء الولايات المستقلة - فإذا كان هناك تقصير فليحاسبها هم عليه وليس الخليفة الرمز .

وإذا كان سقوط الدولة الحمدانية فى شمال الشمال محطة خطيرة فى مجال العلاقات الإسلامية البيزنطية حيث أنه ترك بوابة الدولة الإسلامية من الشمال مفتوحة أمام البيزنطيين، فإن خطورة هذا الحدث تضاعفت إذا تذكرنا أن جنوب الشام أيضاً كان قد خرج حول نفس الوقت من أيدي الأخشيديين إلى القرامطة، فبعد موت كافور الأخشيدى عام ٣٥٧ / ٩٦٨ دب الضعف فى أوصال الدولة الأخشيدية وتقلب عليها القرامطة فساد الاضطراب والفوضى فى جنوب الشام كما ساد شماله، وهكذا حدث فراغ قوة مؤثر فى المشرق الإسلامى فى منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى كان ينذر بخطر جسيم على دار الإسلام خاصة مع تمتع الدولة البيزنطية بالازدهار، ولكن وفى هذا الوقت بالتحديد كانت الدولة الفاطمية التى تأسست فى أفريقيا على أنقاض دولة الأغالبة فى نهايات القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى قد ثبتت أقدامها هناك وأخذت مصر لتتجح فى تحقيق حلمها القديم فى السيطرة عليها عام ٣٥٨ / ٩٦٩ ولتشغل بتمكن فراغ القوة الهائل فى المشرق ولتعيد اعتدال الميزان الذى كان قد أختل لصالح البيزنطيين (٦٥).

٦٤ - واردة فى المرجع السابق، ص ٢٣٦ .

٦٥ - حسن، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ١٤١ - ١٤٢ .

- حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٢٨ - ١٢٩، ١٣٥ - ١٣٨ .

المطلب الثاني : تقدم الدولة الفاطمية لشغل فراغ القوة فى المشرق الإسلامى فى مواجهة الدولة البيزنطية بعد قضائها على الدويلات الإسلامية المنافسة .

فى نفس العام الذى توفى فيه كافور الأخشيدي لتهتز دولته ويقع جنوب الشام للقرامطة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م ، كان الفاطميون يجهزون حملة بقيادة جوهر الصقلى للتوجه شرقا ، وهى فى نفس عام سقوط حلب بالخيانة للبيزنطيين وضياع شمال الشام (٣٥٨هـ / ٩٦٩م) خرجت الحملة بالفعل من القيروان ودخلت القسطنطينية مارة فى طريقها ببرقة والاسكندرية فأزالت الدولة الأخشيديّة وأسست الدولة للفاطميّين فى مصر . وفى العام التالى ٣٥٩ / ٩٧٠ خرجت حملة فاطمية من مصر لفتح الشام وضمه ، فبالإضافة إلى العوامل التى كانت تدفع حكام مصر دائما إلى العمل على توحيد جبهة الشام ، فإن الشام كان يمثل بالنسبة للفاطميّين الباب المؤدى إلى العراق، مقر الخلافة العباسية التى كانوا يهدفون إلى إسقاطها وليس مجرد الانفصال ببعض الأقاليم عنها . (٦٦)

ولقد واجه الفاطميون فى توجههم شرقا إلى الشام قوتين إسلاميتين كان على الفاطميّين ضرورة التخلص منهما أولا قبل التفرغ للدولة العباسية ، هاتان القوتان هما الحمدانيون فى شمال العراق والقرامطة فى جنوبه . ولقد دارت المعارك سجلا وسجلا ليست بالقصيرة بين الفاطميّين من جانب وكل من الحمدانيّين والقرامطة من جانب آخر، ولقد نجح الفاطميّون بالفعل فى الاستيلاء على دمشق عام ٣٥٩هـ / ٩٧٠م وهم بهذا كانوا يعدون أنفسهم لتولى الدور الذى يقع على كاهل أى قوة تسيطر على الشام خاصة ومصر بالإضافة إليها وهو مواجهة البيزنطيين وحماية بوابة العالم الإسلامى الشمالية منهم ولكن أنشغال الفاطميّين بمعاركهم مع أطراف إسلامية أخرى - نعى القرامطة والحمدانيّين - لفتهم عن التصدي للبيزنطيين ولم يتح لهم الوقت والجهد الكافيين لمحاولة أجلائهم واسترداد ما وقع فى أيديهم من أراضى الإسلام خاصة فى مدن الشام وقت فراغ القوى الذى سبق مقدم الفاطميّين إلى المشرق مباشرة ، وبدلا من أن يتعاون الفاطميّون مع الحمدانيّين ويشدوا من أزهم فى تصديهم للبيزنطيين فيحاولون الصراع من السجال إلى التفوق لصالح قوى الإسلام ، فإنهم كرسوا جهودهم لدحر الحمدانيّين (٦٧)

ولقد استطاع الفاطميّون أن يقضوا على خطر القرامطة ويجلوهم عن جنوب الشام فى موقعة فاصلة عام ٣٦٧ / ٩٧٧ هُزم فيها أيضا القائد التركى أفتكين المرسل من قبل

٦٦ - المرجع السابق ، ص ١٤٠ - ١٤١ ، ١٥١ - ١٥٢ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٤٤ .

٦٧ - المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

ال خليفة العباسى لقتال الفاطميين والذي كان قد نجح قبل انهزامه فى هذه المعركة بسنوات ثلاث فى أن يدخل دمشق ويرفع الدعاء فيها مرة أخرى للخليفة العباسى (٦٨)

وبنجاح الفاطميين فى القضاء على القرامطة أزاحوا قوة هامة كانت تناوبهم الاستقرار فى الشام، وبهزيمتهم القائد التركى حيدوا تدخل الدولة العباسية فى صراع ضدهم ، وبدلاً من أن يتوجهوا إلى البيزنطيين بعد أن استتب لهم الأمر فى الداخل فانهم وجهوا اهتمامهم إلى القضاء على الدولة الحمدانية التى كانت مازالت قائمة رغم تمكن عوامل الضعف منها كما ذكرنا قبلاً ، فأرسل الخليفة الفاطمى العزيز حملة حاسمة عام ٣٨٤هـ / ٩٩٤م على الدولة الحمدانية بلغ من ضراوتها أنها ألجأت الأمير الحمدانى إلى الإمبراطور البيزنطى يطلب معونته ضد الفاطميين المسلمين فى محاولة يائسة للبقاء على دولته فى مواجهة خصم اسلامى ولنواجه مرة أخرى بنفس النمط للتفاعلات الدولية الذى زخر به التاريخ الإسلامى فى عهد التفكك وهو تحالف طرف اسلامى مع طرف غير اسلامى ضد طرف اسلامى آخر. ولقد بلغ من اصرار الأمير الحمدانى على الحصول على مساندة البيزنطيين حدا دفعه إلى تخويف الإمبراطور البيزنطى من الخطر الفاطمى ملمحا له أن سقوط حلب هو الخطوة الأولى نحو سقوط انطاكية وأن سقوط الأخيرة ليس له إلا نتيجة واحدة وهو سقوط القسطنطينية .

فكان الأمير الحمدانى يحذر الإمبراطور البيزنطى من الاحتمالات المستقبلية لتمكن قوة اسلامية من فتح أراض غير اسلامية وضمها إلى دار الإسلام، ولقد كان اقتناع الإمبراطور باسيلي الثانى بحجة الأمير الحمدانى عظيما حتى أنه قدم مساعدات ضخمة للدولة الحمدانية رغم انشغاله وقتها بحروب كبرى مع البلغار ورغم العداء العميق السابق مع الدولة الحمدانية ذاتها ، وكان الأمير البيزنطى قد قدر أنه من الأمن للدولة البيزنطية أن يتآخم حدودها مع العالم الإسلامى دولة ضعيفة مثل الدولة الحمدانية المتهاكمة وليس قوة ناهضة مثل الدولة الفاطمية (٦٩)

ولقد كان هذا التحالف البيزنطى / الحمدانى هو الشرارة التى اشعلت الصدام بين الدولة البيزنطية والدولة الفاطمية ، بعد أن كانت منشغلة حتى ذلك الحين بصداماتها مع القوى الاسلامية الأخرى فى المغرب والمشرق الاسلاميين. ولقد بدأ هذا الصراع سافرا خاصة بعد نجاح الدولة الفاطمية فى القضاء على الدولة الحمدانية عام ٤٠٤

٦٨ - المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

- محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية (القاهرة : دار الفكر العربى ، ط ١ ، ١٩٧٧) ص ١٢٢ - ١٢٤ .

٦٩ - حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٢٤ - ٢٢٧ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٤٦ .

رغم مساعدات الدولة البيزنطية لها ، واستمر هذا الصراع حتى قيام دولة السلاجقة ومجيئهم إلى بغداد عام ٤٤٧ / ١٠٥٥^(٧٠)، ولقد دارت الحرب بين الفاطميين والبيزنطيين سجالا ، فالخصمان كانا على درجة متكافئة من القوة ، ولقد أثبتت الدولة الفاطمية نفسها خصما عنيدا للدولة البيزنطية التي لم تختبر لفترة طويلة ، منذالعصر العباسي الثاني، الا مقاومات محدودة من بعض الدويلات الاسلامية المستقلة ، فكانت قد مضت فترة ليست بالقصيرة على مجابهتها لقوة اسلامية قوية مستكاملة لأركان الدولة المادية والمعنوية .

وهكذا ورغم أن الصراع الممتد كانت تقطعه بالضرورة فترات هدنة إلا أنها كانت الهدنة المعقودة بين أنداد أكفاء وليست الهدنة المفروضة على الجانب الضعيف جزاء تخاذله وتهاونه . وليس أدل على أن الفاطميين عندما كانوا يبرمون الهدنة إنما كانوا يفعلون هذا من منطلق أنهم قوة عظمى حتى في حال هزيمتهم الوقتية ، من أنهم كانوا لايترددون في التصرف وفقا لما تمليه عليهم المصلحة الاسلامية حتى لو كان في هذا التصرف نقضا لشروط الهدنة وتهديدا باستئناف القتال . فمثلا نجد الخليفة الحاكم بأمر الله يتشدد مع أهل الذمة استجابة لتذمر رعاياه المسلمين الذين أعلنوا تحفظهم على المعاملة المتميزة والامتيازات التي حصل عليها أهل الذمة في ظل عهود من التسامح في عصر أسلاف الحاكم بأمر الله ، ولقد أدى هذا التشدد بالفعل إلى نقض هدنة كانت مبرمة واستئناف الصراع^(٧١) . ثم أن الخليفة المستنصر نقض صلحا أبرمه مع الأمبراطور قسطنطين السابع عام ٤٤٦ / ١٠٤٥ يحصل بمقتضاه الفاطميون على الغلال لمواجهة المجاعة فلما طلبت الأمباطورة تيودورا التي خلفته على العرش امداد الفاطميين لها بعسكر اذا ما ثار تمرد عليها مقابل الغلال ، رفض الخليفة الفاطمي وأرسل هؤلاء الجند ولكن لقتالها^(٧٢) .

وجدير بالذكر أيضا أن الفاطميين في حروبهم مع الدولة البيزنطية حرصوا على أن يحيوا العديد من المظاهر التي كانت موجودة أيام الجهاد الحقيقي في عصور الأمويين والعباسيين الأوائل من مثل تقليد قيادة الخليفة بنفسه لقوات جيشه في المعارك الهامة ، كما أنهم اهتموا بمظاهر القوة والعزم في مواجهة العدو وكذا بمحورية دور الخليفة ومركزيته فنجد الخليفة العزيز يعزل قائد جيشه لأنه انسحب من مهمة حربية هامة قدر ضرورة الانسحاب منها، وذلك قبل أن تأتيه موافقة الخليفة ، ثم يأمر بإعادة بناء

٧٠- سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٢٩ - ٢٤٨ .

- حسن ، تاريخ الإسلام ، ج ٢ ص ٢٢٩ - ٢٤٠ .

- حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٥٧ - ١٦٢ .

٧١- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٤٧ .

٧٢- المرجع السابق ، ص ٢٤٨ .

أسطول كان قد أُحرق عن آخره عشية الاستعداد للخروج في حملة على أملاك البيزنطيين في الشام^(٧٣). وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحسم والعزم في مواجهة البيزنطيين بعد نجاح الفاطميين في القضاء على القوى الإسلامية المناوئة ليعد مبررا لدى كثير من المحللين لحروبهم ضد الأطراف الإسلامية حيث يجعلون رغبة الفاطميين في توحيد دار الإسلام تحت رايتهم تمهيدا للحملة القوية على دار الحرب سببا كافيا ومقتضا لحروبهم مع الأطراف الإسلامية ولا يجدون وراء هذه المصادمات الإسلامية/ الإسلامية أطماعا شخصية أو تقديما لمصلحة خاصة على الجانب الفاطمي .

وبالإضافة إلى دور التصدي للدولة البيزنطية في المشرق فلقد قامت الدولة الفاطمية بدور حاسم أيضا على ساحة التعامل الدولي في المغرب الإسلامي وتمثل هذا أساسا في نودهم عن صقلية والحفاظ عليها مسلمة أمام محاولات الدولة البيزنطية لاستردادها في فترة تعتبر من أزهى فترات ازدهار الدولة البيزنطية عسكريا . ففي الوقت الذي كان الفاطميون فيه منشغلين بتوطيد دعائم ملكهم في المغرب ، كان البيزنطيون قد نجحوا في تحييد قوة الدولة الحمدانية في المشرق وبدأوا في توجيه اهتمامهم نحو استعادة أملاكهم السابقة في البحر المتوسط ، ورأينا أنهم نجحوا بالفعل في الاستيلاء على كريت وقبرص ، وفرضوا حمايتهم على جميع المدن الساحلية في جنوب إيطاليا ، وكان الدور قادما على صقلية في سبيل تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة رومانية مرة أخرى .

ولقد قرر الفاطميون النود عن هذه الجزيرة ذات الموقع الفريد، خاصة وأنهم بعد قضائهم على دولة الأغالبة أضحت الجزيرة تابعة لهم رسميا حيث كانت تابعة قبلا لحكومة الأغالبة ، فلما أستنجد حاكم الجزيرة بالفاطميين لمواجهة حملة بحرية بيزنطية نمت أخبارها إليه عام ٢٥٣ / ٩٦٢ نصره في الحال دون تقاعس وأمدوه بأسطول ضخم، ولقد بلغ من سرعة استجابة الخليفة الفاطمي لطلب النصر هذا ، أن وصل الأسطول الإسلامي إلى صقلية قبل وصول الأسطول البيزنطي الذي كان قد أبحر قبلا في طريقه إليها ، وقعت المعركة بين الأسطولين وكان كروفر حتى كتب النصر للمسلمين ، وبهذا أنقذ الفاطميون صقلية من المصير التي آلت إليه كريت^(٧٤) .

المطلب الثالث : الأندلس ند لأيجابه في المغرب الإسلامي واستشارة ذلك حركة استرداد مسيحية قوية

في ذات الوقت الذي كان فيه الفاطميون يتصدون بجدارة للبيزنطيين في المشرق الإسلامي ويقفون معهم على قدم المساواة كقوة دولية مناوئة ، كان أمويو الأندلس

٧٣ - المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .

٧٤ - المرجع السابق ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٥ .

يقومون بنفس الدور فى الجزء الغربى من العالم الإسلامى فيحافظون على علاقات توازن مع الممالك المسيحية فى أوروبا وذلك بعد أن مكنتهم انصراف اهتمام الفاطميين نحو الشرق من التفرغ لدورهم هذا بصورة فعالة .

وكنا قد استعرضنا قبلا المركز الممتاز الذى حققه الخليفة الأموى الناصر للأندلس الإسلامية فى علاقاتها بالممالك المسيحية فى أوروبا وهو المركز الذى عضده ابنه وخليفته المستنصر الذى استهل حكمه بإجراء من إجراءات القوة عندما جهز حملة تأديب للأمير المسيحى الذى ساعده الناصر فى نهاية حكمه على استرداد عرشه فى نافار وليون مقابل حصول الأندلس على عشرة حصون من هذه المملكة فنكث الأمير المسيحى بعهده بعد وفاة الناصر فكان جزاؤه رادعا من الأندلس الإسلامية التى نجحت قواتها فى فتح أكثر من مدينة مسيحية فى غزواتها القاديية تلك (٧٥)

ولقد استطاع المستنصر أن يجعل من الأندلس أكبر قوة سياسية وعسكرية فى شبه الجزيرة الأندلسية وساعده على ذلك تدهور الأوضاع الداخلية فى مملكة ليون أكبر الممالك المسيحية فى شمال أسبانيا نتيجة الانقسامات الداخلية التى مزقتها منذ عام ٩٦٦ ، وهكذا كان لارتداد الخطر الفاطمى من على أبوابه الجنوبية من جانب وتمزق الممالك المسيحية على حدوده الشمالية من جانب آخر أثر واضح فى الاستقرار النسبى التى تمتعت به الأندلس فى عصره وكذا فى اتساع نفوذه وتسيده على شبه الجزيرة الأسبانية كلها بما فيها الممالك المسيحية فى جزئها الشمال الغربى حيث دان له أمراؤها بالولاء والاحترام وكانوا يخطبون وده ويستنصرون به على بعضهم البعض (٧٦).

وبوفاة المستنصر دخلت الأندلس عهدا جديدا ولكنه عهد قوى أيضا بل ربما كان أقوى عهودها فى هذه الفترة وهو عهد الحجابة . فالمستنصر ترك وليا للعهد صبيا فسيطر حاجب الخليفة على مقاليد الأمور السياسية من الناحية الفعلية وبذلك انفصلت السلطتان الدينية والزمنية لأول مرة فى الأندلس الإسلامى فقام إلى جانب الخلافة الأموية صاحبة السلطة الرسمية ما عرف بأسم الدولة العامرية نسبة إلى محمد بن أبى عامر حاجب الخليفة الطفل هشام المؤيد والذى أصبح فى يده السلطة الزمنية (٧٧) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن انفصال السلطة فى مركز الخلافة العباسية فى بغداد وإن كان قد تسبب فى انحلال الدولة وضعفها عندما أصبح الخليفة مجرد رمز دينى

٧٥ - المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

٧٦ - المرجع السابق ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

- بيضون ، الدولة العربية فى اسبانيا ، ص ٣٠٢ - ٣٠٦ .

٧٧ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢١٠ .

لاحول له ولا قوة في حين تركز السلطان السياسي في يد أمراء الجيش الأتراك ثم البويهيين ، إلا أن هذا الانفصال في السلطة لم يؤد إلى نفس النتيجة في الأندلس ، يرجع سبب ذلك إلى أن الذين تولوا السلطة الزمنية في الأندلس كانوا رجالا من طراز السياسيين العظام المخلصين لدينهم ودولتهم والعسكريين الموهوبين المقدامين سواء كان الحاجب المنصور أو ابنه عبد الملك المظفر الذي جاء خلفا له عام ٣٩٢ / ١٠٠٢ فثبته الخليفة هشام خلفا لأبيه . وهكذا فإن القاعدة التي مؤداها أن انفصال السلطتين الدينية والزمنية في الدولة الإسلامية يكون سببا من أسباب ضعفها والتي رأينا تطبيقا واضحا لها في الدولة العباسية مازالت صحيحة والوضع الناجح الذي رأيناه في الأندلس لا يعدو كونه استثناء لأنه ضامن لأن يكون صاحب السلطة الزمنية دائما على قدر المسئولية التي تمتع بها الحاجب المنصور وأبنه .

ولقد بلغ من إخلاص الحاجب المنصور أنه لم يكتف بالحفاظ على قدرة قوة الدولة كما تركها الخليفة الحكم المستنصر بل إنه عمل جاهدا على التدعيم من عناصر قوتها ، وكان أول ما أتجه إليه هو إصلاح نظام الجيش حيث أدرك أن أول خطوة على طريق تدعيم هيبة الدولة وقدرتها على الوقوف في الهيئة الدولية على قدم المساواة مع غيرها من الأطراف هو أن يكون لها سند من جيش قوى متجانس ، فالجيش في الأندلس قد عانى من مظاهر العنصرية قدر ما عانت المؤسسة العسكرية في المشرق الإسلامي ، كما أن كلتا المؤسستين عرفت الأقطاع العسكري بكل المثالب التي يجرها على مصداقية ومعنى الجندية ، وكما ظلت عوامل الضعف هذه كامنة في جيش المشرق طالما كان هناك قائد قوى للجيش متمثلا في خليفة هو عسكري بالأساس ، فلقد ظلت كامنة أيضا في الأندلس وقت الناصر وأبنه المستنصر ، ورغم هذا فقد أدرك الحاجب المنصور الخطر الكامن ولم ينتظر حتى ينفجر الوضع كما أنفجر في المشرق ولكنه قرر أن يعالج الأمر قبل أن يستفحل ، والواقع أن ناقوس الخطر دق مبكرا في عهد الناصر نفسه الذي قلد قيادة حملة من حملاته لقائد صقلبي فغضب الجند العرب في فرقته إلى حد تركهم الصقالبة وحدهم في أرض المعركة فكانت الهزيمة فلم يخرج الناصر بعدها حتى وفاته^(٧٨) . فجيش الأندلس كان يتكون من عنصرين أساسيين هما العرب والبربر (مقابلين للعرب والفرس في الجيش العباسي) وكنتيجة لتناحر هذين العنصرين اللذين كانا يتقاضيان الأجر على الخدمات العسكرية في شكل أقطاعات زراعية أستجلب الخلفاء الأمويون عنصرًا ثالثًا مجيدا هم الصقالبة (مقابل للأتراك في المشرق) وكانوا يتولون رواتب ثابتة^(٧٩) . وقبل أستفحال الخطر على نفس الوتيرة التي صار إليها الحال في الدولة العباسية تدارك الحاجب المنصور الأمر فأعاد تنظيم

٧٨ - المرجع السابق ، ص ٢١١ .

٧٩ - المرجع السابق ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

الجيش وألقى الأقطاع العسكري فجعل الجيش كله نظاميا يتكون من فرق متعددة كل منها يتكون من أفراد ينتمون إلى العناصر الثلاثة كلها مع تخصيص راتب من الدولة لكل جندي (٨٠).

وقد جعل هذا الإجراء من الجيش وحدة نظامية متماسكة وأستطاع أن يخوض به المنصور صراعا متواصلا مع أوروبا المسيحية حتى أضحي تاريخ حكمه هو تاريخ للغزو في أراضيه ، وربما كمحاولة لتأكيد شرعية وجوده على قمة السلطة الزمنية دون الخليفة أحيا الحاجب المنصور بشدة إحدى الوظائف الأساسية للسلطة في الإسلام وهي الجهاد فأبتعث سنة الخلفاء الأمويين بالخروج في غزوتين كل عام على الأقل. ولقد حملة هذا الاخلاص ليتراأس بنفسه سبعا وخمسين غزوة موزعة على مدة حكمه الذي امتد خمسة وعشرين عاما لم يهزم في أى منها وكانت وجهتها الممالك الشمالية في قشتالة وليون ونافار وكاتالونيا (٨١)

ولقد كان رد الفعل المسيحي لوجود هذا الرمز في الأندلس عنيفا فلأول مرة منذ زمن طويل يقتنع ملوك الممالك المسيحية في شمال أسبانيا بضرورة نبذ خلافاتهم وصراعاتهم مع بعضهم البعض وكانت صحوة الممالك المسيحية في شمال أسبانيا مظهرا من مظاهر صحوة كبرى أخذت تدب في العالم المسيحي الغربي ، وانطلقت هذه الصحوة من حركة الإصلاح الكونية ، وظلت هذه الحركة في نمو حتى تمخضت عن الحروب الصليبية في القرن الحادى عشر الميلادى. ولقد توحد ملوك وأمراء شمال أسبانيا وتكتلوا ضد الخطر الذي تمثله الدولة العامرية ، فالأمر مع هذه الدولة لم يعد مجرد إثبات الهيبة عن طريق أجراء حملات تأديبية كما كان يفعل الناصر والحكم ، وإنما الدولة العامرية تحيى قيمة الجهاد وتكاد بعدها أن تقطع الأمل في بقاء المسيحيين في أسبانيا ، وذلك لأول مرة منذ أن تكونت تلك الممالك في غفلة من مسلمى الأندلس ونتيجة تهاون فاتحيها. وهكذا تحالف أمراء الشمال المسيحيون لمواجهة المنصور بل وحملوا مواجعتهم له بالمعاني الدينية اللازمة للتصدي لمعنى الجهاد الذي رمى إليه ، فكانوا يأتون بالأساقفة والقساوسة ويسيرونها في مقدمة الجيش التى كانوا يجرونها عليه. (٨٢)

وعلى نقيض هذه السياسة الهجومية التى أتبعها المنصور مع الممالك المسيحية في الشمال ، فإنه كان يحتفظ بعلاقات ودية مع الإمبراطورية البيزنطية ، وهو تقليد حفظه عن أمراء وخلفاء الأندلس الأمويين ولم يغير منه رغم تغير الظروف في عصره عن

٨٠ - المرجع السابق ، ص ٢١١.

٨١ - المرجع السابق ، ص .

- بيشون ، الدولة العربية في اسبانيا ، ص ٢٢٢ ومابعدها

٨٢ - المرجع السابق ، ص ٢٢٦ - ٢٢٨.

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢١٢ - ٢١٣ .

عصرهم . فأسلافه كانوا يهادنون الأمبراطور البيزنطى احتسابا للخطر الفاطمى ومن قبله الخطر العباسى ، ولكن فى عصر المنصور كان الخطران قد حيدا الأول نتيجة الوهن والثانى نتيجة البعد ، وربما يرجع حرصه على استمرار العلاقات الودية أنه قد تولى عرش الأمبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت امبراطور من أقوى أباطرة الروم وهو باسيلي الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥) والذي يعد عصره من أزهى عصور الأسرة المقدونية فلم يكن من الحكمة أستعداؤه دون داع ، كما أن الحاجب المنصور احتفظ بعلاقات سلمية أيضا مع الأمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكذلك مع ملوك الشمال الأسباني المسيحيين الذين رضخوا لنفوذه وارتبطوا معه بمعاهدات وحافظوا على بنودها (٨٣)

ولقد حرص أمراء الشمال المسيحيين على خطب ود الدولة العامرية طالما كان المنصور حيا ، فلما توفى فى الميدان عام ٣٩٢ / ١٠٠٢ ظنوا أن الفرصة قد حانت للقضاء على الخصم الإسلامى القوي فى الجنوب فأحيوا تحالفهم الذى لم ينجح أيام المنصور عله أن ينجز الهدف فى ظل حكم ابنه عبد الملك المظفر ، ولكن المظفر أثبت أنه ماض على درب أبيه ، وإثباتا لهيبة الدولة وعلوها سارع هو بمبادأة ممالك الشمال بالقتال قبل أن يزحفوا عليه هم ، ولقد ظل هذا دأبه طوال فترة حكمه يبادر بالزحف للتأديب تارة والفتح أيضا تارة أخرى ، فما كان من الممالك المسيحية فى الشمال إلا أن حملوا عليه حملة واحدة أملا فى القضاء عليه عام ٣٩٧ ولكنه هزمهم مجتمعين واستمر فى تقليد القزو السنوى بعد ذلك فأنهكهم بالتصدي له وشغلهم بالذود عن أراضيهم عن غزو أراضيهم . (٨٤)

ولكن مما يؤخذ على المظفر أنه اقترب من منطقة خطر شديدة ربما لم يحيد مثالها إلا شخصيته القوية وإخلاصه ، فلقد دخل فى محالفات مع بعض الممالك المسيحية فى الشمال وصلت إلى حد خروجهما معا فى حروب ضد ممالك مسيحية أخرى كما حدث فى حملة عام ٣٩٥ التى أقتحم فيها مملكة قليقية وخرج معه فيها ملك جارسيا "سانشو" رغم أنه كان قد نقض عهده مع المظفر فى العام السابق لهذه الحملة (٨٥). وليس أدل على زيف مثل هذه التحالفات من أن سانشو هذا قد ترأس بعد حملته المشتركة تلك مع المظفر بعامين فقط تحالف ممالك الشمال المسيحية الذى خرج لمحاربة المظفر والتى سبقت الإشارة إليه ، وكان من المتوقع من المظفر أن يكون أبعد نظرا

٨٣ - المرجع السابق ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .

٨٤ - المرجع السابق ، ص ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦ .

- بيضون ، الدولة العربية فى اسبانيا ، ص ٢٣٥ - ٢٣٨ .

٨٥ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢١٥ .

وأكثر حرصا في إجراء مثل هذا النوع من التحالفات مع أطراف غير اسلامية، ولكن على كل حال فإن فترة حكم المظفر (٣٩٢ - ٣٩٩ / ١٠٠٢ - ١٠٠٩) كانت آخر حلقة في سلسلة المد الإسلامي الأسباني، فبعد وفاته سيبدأ المد العكسي الذي اتخذ شكل حركة استرداد مسيحي قوية أستهدف أسبانيا بالأساس مستفيدة من الصراعات الطائفية التي ستتخطبها والتي ستمنعها حتى من تقديم يد العون للقوى الاسلامية في أوروبا وهي تتساقط .

فبداية النهاية للوجود الإسلامي في جنوب أوروبا ، في فرنسا وإيطاليا وسويسرا كانت قد بدأت حول ذات الوقت تقريبا ، فحول منتصف القرن العاشر الميلادي تكونت جبهة قوية لمقاومة الوجود الإسلامي في أوروبا من النبلاء الأوروبيين كان من وراء تشكيلها أحد الأساقفة الذي أغرى هؤلاء النبلاء بوعده تملكهم الأراضي الخصبة التي كانت تحت يد المسلمين في المناطق التي يسيطرون عليها ، وكانت المواجهة في معركة عنيفة جرت عام ٣٤٣ / ٩٥٦، وترجع أهمية هذه المواجهة إلى أنها انتهت ليس فقط بهزيمة المسلمين ولكن باجلائهم عن مناطق عدة في جنوب فرنسا وتقسيم أملاكهم هناك بين النبلاء الذين شاركوا في القتال تأكيدا لمعنى أن استرداد هذه الممالك المسيحية لهذه المناطق هو استرداد نهائي لاربعة فيه^(٨٦)، وبالفعل كانت هذه المعركة هي أولى خطوات الاسترداد المسيحي لمناطق النفوذ في أوروبا ، فبعد أحداث هذه المعركة باثني عشر عاما - أي في ٣٥٨ / ٩٦٨ - أعلن إمبراطور الأبراطورية الرومانية المقدسة عزمه على استئصال شأفة المسلمين من جنوب أوروبا كله ، وموته قبل أن يحقق ما اعتزمه لم يؤد إلى موت مشروعه حيث تلقفه أحد نبلاء أوروبا مستغلا مشاعر الحماس الديني التي أثارها لدى المسيحيين عند أسر المسلمين لأحد الأساقفة فاستنفر قوة ضخمة وأقتحم أحد الحصون الاسلامية مستفيدا أيضا بعنصر خيانة من جانب أحد المسلمين والذي كان قائما على الحصن فكان الانتصار الذي أشعل فورة حماس ضخمة في مناطق عدة ثارت كلها على المسلمين الحاكمين وأجبروهم على الجلاء، وكان آخر هذه الثورات ثورة أقليم بروفانس عام ٩٧٥ ونجاح أهله في إسقاط الحكم الإسلامي هناك بعد ثمانين عاما من السيادة . ولما كان هذا الأقليم هو القاعدة الرئيسية للمسلمين المنتشرين في فرنسا وإيطاليا فإن طرد المسلمين منه يعتبره المؤرخون علامة على نهاية الوجود الإسلامي الفعلي في هذه المنطقة رغم استمرار وجود جيوب متفرقة لهم في الجبال حتى عام ١٠٠٠ م^(٨٧)

وفي ذلك الحين كانت الأندلس تدخل طورا من أضعف أطوارها وأكثرها اضطرابا بتولى أمرها سلسلة من الخلفاء الأقزام بدأهم محمد بن هشام بن عبد الجبار بن

٨٦ - المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

٨٧ - المرجع السابق .

عبدالرحمن الناصر حول عام ٤٠٠ / ١٠١٠ يعاونهم سلسلة من الحجاب الفاسدين بدأهم عبدالرحمن شنجول أبن الحاجب المنصور وأخو عبدالملك المظفر^(٨٨) . ولقد أدى ضعف أصحاب السلطتين الدينية والزمنية إلى انفجار الصراع الطائفي في الأندلس بين العرب والبربر والذي كان موجودا دائما يغلى تحت السطح ينتهز أى نقطة ضعف لينفجر بركانا يحرق ويدمر وهكذا بدأ صراع في الأندلس على الخلافة كل فريق يولى خليفة يستعين بالممالك المسيحية في شمال أسبانيا لتغليب كفته على الآخر ، وهكذا انقلبت موازين القوى في علاقات القوى الاسلامية - المسيحية في أسبانيا فبعد أن كان ملوك الممالك المسيحية في الشمال الإسلامى يطلبون مساعدة الحكام الأمويين في نزاعاتهم أضحي الأخيرون هم الذين يطلبون مساعدة الأسبان المسيحيين في قتالهم ضد بعضهم البعض فأتاحوا بذلك لهم فرصة التدخل في الشؤون الداخلية للأندلس الاسلامية . بل والأخطر من هذا أن تنافس هؤلاء الخلفاء الأقزام ورغبة كل منهم في تغليب كفته جعلهم يتبارون ويتفنون في كيفية أغراء الملوك المسيحيين لتقديم العون لهم ووصل بهم الأمر إلى حد عرضهم المدن الاسلامية على هؤلاء الملوك بل وتركهم يختارون منها ما يحبون^(٨٩) . فتنازل الخليفة المخلوع المهدي مثالا عن مدينة سالم قاعدة قرطبة لعاهل برشلونة المسيحي مقابل مساعدته ضد الخليفة المستعين وتقدمت الجيوش الأسبانية مع حلفائها الأسبان المسيحيين في الأراضي التابعة للخليفة المستعين فساموا أهلها المسلمين سوء العذاب^(٩٠) ولقد أستمّر هذا النمط وتكرر مع خلفاء يقومون وآخرين يسقطون وأسر تتولى وتزول وتظهر أسر جديدة تأخذ محلهم حتى انتهى الأمر بثورة العامة على هذه الفوضى وهذا التناحر ، فلم يعودوا يعرفون لهم خليفة من كثرة تغيرهم عليهم وتناحروا فيما بينهم فكان قرار شيوخ قرطبة ووزرائها برئاسة ابي حزم بن جهور بإبطال الخلافة فانتهى ملك بني أمية من الأندلس عام ٤٢٢^(٩١) .

ولم يكد يعلن ابن جهور أنتهاء الخلافة حتى استقل كثير من الأمراء بمدنهم ومقاطعاتهم حتى أصبح بالأندلس نحو من عشرين اسرة حاكمة ، وأستمّر هذه الوضع حتى عام ٤٨٤ وصلت الأندلس فيه إلى أقصى درجات التفرق والضعف في الوقت الذي كانت فيه الممالك المسيحية في الشمال تتوحد تحت حكم الفونسو السادس ، وبدلا من أن يدرك ملوك الطوائف مدى عمق الخطر الذي يهددهم جميعا على البوابة الشمالية

٨٨ - المرجع السابق ، ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

- بيشون ، الدولة العربية في اسبانيا ، ص ٣٣٩ - ٣٤٢ .

٨٩ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٦٦ .

٩٠ - المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

٩١ - المرجع السابق ، ص ٢٦٧ ، ٢٧١ .

- بيشون ، الدولة العربية في أسبانيا ، ص ٢٤٦ .

فيتوحدوا ضده كما فعل أمراء الشمال المسيحيون عندما نسوا خلافاتهم أمام الخطر الذي مثله الحاجب المنصور وابنه فتكتلوا ضدهما بل واصبغا على مواجهتهما معان دينية تضمن حماس الشعب للانضمام في الحملات ، نقول بدلا من هذا كان ملوك الطوائف هؤلاء كلهم يخطبون ود الفونسو ويتقربون له بالأتاوات يستجدون معونته ضد أخوانهم المسلمين، فكان يزيد في مطالبة عاما بعد عام ويستولى على حصونهم وقلاعهم برضاهم حتى تمكن ، فوثب وثبته الكبرى على طليطلة وانتزعها عام ٤٧٨ (٩٢) وهكذا بدأت الممالك المسيحية في الشمال بقيادة الفونسو حركة مد ناجحة دفعت بالحدود بينهم وبين الأندلس الإسلامية إلى الجنوب لصالح المسيحيين وعلى حساب المسلمين ، فكانه قاد حركة استرداد مسيحي تعمل على استرجاع الأندلس بلغت من الخطورة حدا أنها استنفرت مساعدة البابا لها فأكسبها الصيغة الدينية، بل ومساعدة دول أوروبية أخرى فاكسبت الصفة الدولية أيضا ولم يوقفها الا ظهور المرابطين في المغرب وعبورهم إلى الأندلس كما سنرى .

خاتمة :

كانت السمة الأساسية للعصر العباسي الثاني إذن في تميزه عن عصر الدولة الأموية وحتى عن العصر العباسي الأول هو اللامركزية السياسية الشديدة ثم التعددية الفعلية والتي تكرست أكثر بتزامن ثلاثة مراكز للخلافة الإسلامية بحيث اقتضت السلطة الفعلية التي يمارسها الخليفة العباسي - أو من يمثله - عمليا على بغداد وما يحيطها، وكان من الممكن لهذه السمة أن تكون مصدر قوة للعالم الإسلامي اذا ما اعتبرنا ما حدث في العصر العباسي الأول عندما نهضت الدويلات القليلة التي أستقلت عن المركز بدور إيجابي مكمل لدوره على الساحة الدولية في معظم الأحيان ، ولكن الذي حدث في العصر العباسي الثاني ، هو زيادة حركات الانفصال والاستقلال بالولايات دون تنسيق أو فلنقل رغما عن الخلافة العباسية الواهنة ومن هنا بدلا من أن يحدث تعاون وتكامل بين الأطراف الإسلامية الفرعية بعضها وبعض وبينها وبين المركز الخلافي حدث العكس تماما حيث سادت علاقات التنافس والصراع والعداء بل والقتال بين الأطراف الإسلامية بما فيها المركز (ويمكن استثناء الدولتين السامانية والغزنوية على الأقل في بعض مراحلها) وبدأت المؤامرات - كل طرف إسلامي يريد أن يستولى على أملاك الطرف الإسلامي الآخر - وبدأت بالتآلى التحالفات ليس بين الأطراف

٩٢ - انظر تفاصيل هذا الحدث في :

- عنان ، مراقف حاسمة من ص ٢٦٥ - ٢٨٠ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا من ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

الاسلامية ضد القوى غير الاسلامية ولكن بين الأطراف الاسلامية من جانب والأطراف غير الاسلامية من جانب آخر ضد أطراف إسلامية ساعد على ذلك ظهور الامبراطورية الرومانية المقدسة وعدائها للدولة البيزنطية .

وهكذا انتقل النظام الدولي بصورة حادة إلى كونه نظاماً متعدد الأقطاب فزادت التحالفات وتعقدت المصالح وتوازنت القوى وأضحت المصالح الدنيوية هي المحرك لكل الأطراف على السواء عند اختيار القوة التي يتحالفون معها وعند تحديد القوة التي يعادونها. ولكن اذا كان التناصر قد انكمش بين أطراف على الجانب غير الإسلامي فإن الجانب الإسلامي قد أفترقه تماماً ولم يعد حتى الخطر المشترك الذي تواجهه أطراف إسلامية دافعاً لتخطي مشاعر الشك وعدم الثقة ولو إلى حين والسعى إلى التحالف والتناصر للقضاء على هذا الخطر . فروح الانفصالية وفقدان الشعور بوحدة الأمة الاسلامية وبوحدة الأراضي الاسلامية وتغليب المصالح الاقليمية الضيقة غطى على كل احساس لدى الأطراف الاسلامية بالخطر المشترك القادم من الساحة الدولية ، وسوف يتأكد هذا بصورة أوضح في العصر العباسي الثالث في مواجهة الهجمة الصليبية على المشرق وحروب الاسترداد لمسيحي في الغرب .

الفصل الثالث

العصر العباسي الثالث (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨ م) :
من الهجمة الصليبية إلى الهجمة المغولية : سقوط الدولة العباسية

الفصل الثالث

العصر العباسي الثالث (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨ م) :
من الهجمة الصليبية إلى الهجمة المغولية : سقوط الدولة العباسية

مقدمة :

خبر العصر العباسي الثالث تغيرات جذرية في خريطة القوى الدولية على الجانبين الإسلامي والمسيحي على حد سواء ، فعلى الجانب الإسلامي اختفت الدولة الأموية من على مسرح الأحداث في المغرب وحلت محلها دولة المرابطين وتلاها دولة الموحدين ليحفظا للمغرب والأندلس اسلامهما في مواجهة حركة استرداد مسيحية قوية .

أما في المشرق الإسلامي فلقد بلغت الدولة العباسية أحط درجات الضعف والانحلال وأضحت أقرب إلى كونها أسما يتردد من كونها كيانا دوليا له وجود محسوس على الساحة ، أما الدولة الفاطمية فلقد بدأت تتفكك وتضعف بالتالي لتفقد أي دور مؤثر كقوة دولية وظهر على المسرح دولة السلاجقة بديلا عنهما معا . وكذا على الجانب المسيحي دخلت الدولة البيزنطية دور الاحتضار وبدأت تتأهب لتترك مسرح الأحداث الذي أصبح مهيئا في هذه الفترة لظهور قوى أوروبا المسيحية التي كان دخولها على مسرح الأحداث الدولية دخولا قويا للغاية ممثلا في الحركة الصليبية التي اجتاحت المشرق الإسلامي لمدة قرنين من الزمان . ففي الوقت الذي كان العالم الإسلامي بضعفتيه الشرقية والغربية يعاني أقصى درجات الضعف والتحلل عندما كان الستار ينزل معلنا نهاية فصل قاتم من فصول التاريخ الإسلامي وهو ما أصطلح على تسميته العصر العباسي الثاني ، وكان الستار يوشك أن يرتفع مرة أخرى مؤذنا بميلاد قوتين اسلاميتين جديدتين على مسرح الأحداث إحداهما في المشرق وهي دولة السلاجقة والأخرى في المغرب وهي دولة المرابطين ليتجدد بهما شباب الأمة الاسلامية وليبدأ فصلا جديدا مجيدا في علاقات القوى الاسلامية مع القوى غير الاسلامية .

ولكن هذا الفصل على فعاليته كان قصيرا خاصة في المشرق الإسلامي ، حيث سرعان ما دب الضعف في الدولة السلاجقة الفتية وعمرها لم يكمل الأربعين عاما فتوقف عطاؤها وتدفقها في وقت من أخطر ما شهدته البيئة الدولية وهو وقت اندلاع الهجمة الصليبية التي أجتاحت في المشرق الإسلامي وكونت دويلات مسيحية في قلب العالم الإسلامي هناك ، ورغم القوة الكبيرة والكامنة في الدول الاسلامية الموجودة في ذلك الوقت اذا ما نظرنا إلى امكاناتها الاقتصادية والبشرية والعسكرية بالمقارنة بالامكانات المتاحة للحملة الصليبية ، هذا فضلا عن أن الحروب كانت تدور على

أراضى اسلامية وهى ميزة لايمكن أنكارها إذا ما تذكرنا المسافات التى كان على الحملات الصليبية أن تقطعها لتصل إلى أرض الممالك ، إلا أن الحقيقة المؤلمة هى أن عوامل القوة الكامنة هذه حيد معظمها انقسام القوى الاسلامية وتنازعها وتناحرها مما أفقدها الثقة فى بعضها البعض وقضى على مشاعر الوحدة والنصرة ومكن لنوازع الانفصالية والذاتية والمصلحة الخاصة على حساب المصلحة العامة ، فسوف نرى الفاطميين بدلا من وضع يدهم فى يد السلاجقة لمواجهة هذا الخطر المالح يحاولون على العكس الاستفادة منه وأستخدامه فى القضاء على خصومهم السلاجقة المسلمين، وسوف نجد الدويلات الناهضة فى الشام رغبة منها فى تحقيق استقلالها ابتعادا عن السلاجقة يهادنون الخطر الصليبي بل ويتحالفون مع قواده لأفشال الهجمات السلجوقية التى كاد بعضها أن يكون نقاط تحول تدمر الحملات الصليبية اذا ما قدر لها النجاح ، ولكن النجاح الممكن يتحول إلى فشل أكيد بسبب خيانة "المسلمين" ، أما الخلافة العباسية فلقد ظهر عجزها عن تسيير الجيوش فى أكثر صوره فجاجة فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ المواجهة بين القوى الاسلامية والقوى غير الاسلامية والتى كانت بحق معركة حياة أو موت ولم تكن مجرد مواجهات لكسب قطعة أرض أو للحصول على بعض الغنائم والأسرى والسبائب ، ولقد ظهر ضعف المركز الخلافي مركبا عندما أضاف إلى عجزه عن التحرك المادى تراخيا فى التحرك المعنوى ايضا، ففشل فى توحيد المسلمين وجمع كلمتهم وأثارة حماسهم ونخوتهم الدينية للذود عن أراضيه فى حين نجح البابا فى القيام بهذا الدور بين الأوروبيين رغم أنه كان يدفعهم لركوب المجهول .

وهكذا رغم أن خطب البابا الدينية التى كانت سببا مباشرا فى أن تندفع الحملات وراء حماس دينى فوار كانت تتحدث عن قوة المسلمين وبغيهم الذى طال فى الأماكن المسيحية المقدسة فى المشرق وكذا فى مواجهة المسيحيين الحاجين اليها ، إلا أن الواقع يؤكد أن هذه الحملات الصليبية لم تأت إلى المشرق الإسلامى بسبب قوته وإنما جاءت متشجعة بضعفه، ولقد كان تقدير مخططي الحملات الصليبية المشتركين فيها صحيحا ، فلقد مكن الضعف على الجانب الإسلامى وكذا التخاؤل والخيانة والتراخى للخطر الصليبي من أن يزرع اقدامه فى أرض الإسلام وأن يكون منها كيانات سياسية مسيحية .

وعندما تنبه المسلمون لأخطائهم كان الخطر قد أستفحل وكان عليهم أن يواجهوا دولاً قائمة بالفعل وليس مجرد غارات تتوافد متعبة منهكة فأستغرقت عمليات استرداد أرض الإسلام من القوى الأوروبية المسيحية قرابة قرنين من الزمان .

ولكن والمسلمون يصلون إلى هذه النتيجة بعد سلسلة طويلة من الهزائم والانتصارات والكر والفر والتضحيات والشهداء كانت قوة كاسحة أخرى تهبط عليهم كالسيل الجارف هذه المرة من الشرق من آسيا وليس من الغرب من أوروبا وهي قوة المغول التي وصلت إلى قلب العالم الإسلامي وجسده مازال مثخنا بجراح المعركة الطويلة مع الصليبيين فترنح بشدة تحت الضربات الهائلة لقوة المغول الحربية وسقطت بغداد حاضرة الخلافة العباسية لهم عام ١٢٥٨ فسقطت بذلك دولة الخلافة العباسية بعد خمسمائة وأربعة وعشرين عاما متواصلة بقدر ما شهدت من أنجازات حضارية وعطاءات ثقافية بقدر ما عانت من التمزق والضعف والانحلال السياسي الذي أكلها من الداخل فتركها خواء هيكلاً مشأ تعصف به النسمة تطوف فما بالسيل الويح العاصي تزمجر .

المبحث الأول

بعث إسلامي جديد (٤٤٧ - ٤٩٧ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٩٧ م)

شهدت الفترة محل الدراسة في هذا المبحث تطورات خطيرة في مشرق العالم الإسلامي ومغربه ، فلقد خبر الجزء الغربي من العالم الإسلامي تدهورا خطيرا في مسار علاقاته مع القوى الدولية غير الإسلامية في الجانب الأعظم من فترة الدراسة نتيجة الضعف الذي حل بالدولة الفاطمية وأدى إلى اختفاء كل دور فعال لها في الصراع مع القوى المسيحية الأوروبية خاصة مع انفصال المغرب الأوسط عنها وتغريه من ثم من حمايتها في مواجهة القوى الدولية على الجانب الآخر من البحر المتوسط ، ثم سقوط صقلية وجزر عديدة مرة أخرى في يد دول أوروبا المسيحية وضياع السيادة الإسلامية على البحر المتوسط بالتالي واهتزاز الأندلس بشدة تحت حكم ملوك الطوائف للمرة الثانية في تاريخها وتعرضها لخطر السقوط التام في يد الممالك المسيحية في الشمال الأسباني .

وإذا كان المغرب الإسلامي قد ابتعث ابتعاثا جديدا قرب نهاية فترة الدراسة بظهور قوة المرابطين وعبروهم إلى الأندلس عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م فإن حركة بعث المشرق الإسلامي التي جددت شباب الدولة العباسية في المشرق بعد أن بلغت الدرك الأسفل في نهايات حكم بني بويه جاءت مبكرة حوالى ثلاثين عاما عن قيام دولة المرابطين في المغرب ، فالمشرق الإسلامي شهد ميلاد دولة السلاجقة ودخولها بغداد عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ التبدأ دورا جديدا وربما أخيرا من أدوار المد الإسلامي في مواجهة القوى غير الإسلامية .

المطلب الأول : صعود دولة السلاجقة والمد الإسلامي في مواجهة الدولة البيزنطية المتهاكمة . . . بداية فكرة الحروب الصليبية :

في الوقت الذي كان المشرق الإسلامي يعاني فيه من فراغ قوى هائل كانت منطقة وسط آسيا تستعد لتدفع بأبناء أحد قبائلها إلى مناطق القلب الإسلامي كما كان دأبها دائما ، أحيانا لصالح أمة الإسلام وأحيانا لسوء طالعها ، ولكن الدفعة هذه المرة دفعت بدم جديد في عروق المشرق الإسلامي فجذدت شبابيه . فالسلاجقة من قبائل الغز التركية في أواسط آسيا هاجروا إلى بخارى حول عام ٣٨٩هـ / ٩٩٨م واعتنقوا الإسلام على المذهب السني ثم دخلوا في خدمة الدولة الغزنوية في إيران وأفغانستان والهند ولكن ما لبثوا أن تمردوا عليها وبدأوا في الاستيلاء على أملاكها حتى أسقطوها ودخلوا عاصمتها خراسان عام ١٠٣٧م فتأسست الدولة السلجوقية هناك بقيادة طغرل بك (١) ثم بدأ السلاجقة مرحلة مد وتوسع داخل الأراضي الإسلامية أوصلتهم عام ٤٤٧ / ١٠٥٥ إلى الموصل حيث أظهروا ولاهم للخليفة العباسي القائم بأمر الله فثبتهم الأخير على ما ملكوه من بلاد ثم زوج ابنته لطغرل بك عندما نجح عام ٤٥١ / ١٠٥٩م في القضاء على البساسيري الداعي الفاطمي الذي عزل الخليفة العباسي ودعا للخليفة الفاطمي المستنصر بالله على منابر بغداد. فقد كانت الخلافة العباسية في أشد الحاجة إلى قوة السلاجقة السنية للوقوف أمام الخطر الشيعي المتمثل في البويهية من جهة وفي ثورة البساسيري من جهة أخرى ، مما جعل المصاهرة بين السلاجقة والعباسيين حدثا هاما ، بحدوث هذا التصاهر اعتبر السلاطين أنفسهم وارثين للخلافة العباسية فانعكس هذا على علاقاتهم مع القوى الإسلامية الأخرى ومع القوى غير الإسلامية حيث بدأوا مرحلة نشطة عملوا فيها على استعادة ما فقدته الدولة العباسية ، ودار هذا النشاط على محورين : الأول محور الدولة الفاطمية ، والثاني محور الدولة البيزنطية (٢) .

فإذا نظرنا إلى محور الدولة البيزنطية لكان علينا أن نتذكر أن هذه الدولة قد زامنت بأزهى عصورها أحط عصور الدولة العباسية في عصرها الثاني، فانتقلت على يد الأسيرة المقدونية من وضع الدفاع إلى وضع الهجوم فكرت على دار الإسلام واستخلصت لنفسها على مدار هذا العصر ما كانت قد فقدته أثناء حركة الفتوحات الكبرى في آسيا الصغرى بل وعادت إلى الشام واستردت أنطاكية وأضحي أمراء

١ - راجع في تفاصيل ظهور قوة السلاجقة :

رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، م س ذ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، م س ذ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١١٨ - ١١٩ .

٢ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٥٧ .

السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٠٥ - ٢٠٧ .

المسلمين فى شمال أقليم الجزيرة وكذا أقليم الشام يدفعون لها الجزية ، وإذا كنا قد رأينا أيضا أن الدولة الفاطمية أستطاعت أن تقف للبيزنطيين بالمرصاد وتوقف تقدمهم، إلا أنها بدأت بعد وفاة الحاكم بأمر الله عام ٤١١ / ١٠٢١ فى الدخول فى دور الضعف والشيخوخة والدولة البيزنطية مازالت قوية فكاد أن يختفى الأمل فى زحزحتها من شمال الشام (٢).

ولكن كان ظهور الدولة السلجوقية سبباً فى قلب موازين القوى مرة أخرى لصالح الإسلام حيث عاد الصراع بين الدولة البيزنطية ودولة الإسلام ممثلة فى السلاجقة على أشده من جديد . فما أن وطد طغرل بك ملكه فى فارس بحيث أتصلت حدوده بالأرض البيزنطية فى أرمينيا حتى دفع بفتوحاته غرباً فأغار عام ٤٤٠ / ١٠٤٩ على أرمينية وديار بكر حيث كان حاكمها المسلم يدفع الجزية للروم البيزنطيين ثم زحف عام ١٠٥٠ على مانزكورت فى حملة كانت تدريجياً وتمهيداً للاستيلاء عليها والذي سيتم عام ١٠٧٥ وسيكون له صدى كبير - كما سنرى - ثم استولى على ملطية عام ١٠٥٧ واستكمل الب أرسلان ما بدأه عمه من حركة مد وفتح فى الأراضى البيزنطية ففتح عام ٤٥٦ / ١٠٦٦ أذربيجان وأرمينية وبلاد الكرج وأحتل مدينتى أنى وقارص وتمثلان الخط الدفاعى الأول عن الامبراطورية البيزنطية فى هذه الجهات ووسط هذا المد الجارف لحقت الهزيمة بالسلاجقة عام ١٠٧٠ فظن الروم البيزنطيون أنهم انكسروا، أدى سوء التقدير هذا لقوة السلاجقة بالبيزنطيين الى ارتكاب غلطة فادحة حيث قرروا الكر سريعا على الدولة السلجوقية أملين فى القضاء عليها وكانت موقعة مانزكورت (ملاذكرد) الشهيرة عام ١٠٧١ التى أنتصر فيها المسلمون السلاجقة أنتصاراً باهراً. ويذكر ابن الأثير فى حوادث عام ٤٦٢ هـ / ١٠٧١م أن الامبراطور البيزنطى بدأ بالهجوم على مانزكورت وعندما طلب منه ألب أرسلان عقد هدنة رد عليه الامبراطور قائلاً "لاهدنة إلا بالرى" أى أنه يعتزم دخول الرى عاصمة السلاجقة . فكانت الهزيمة من نصيب البيزنطيين (٤) .

وأهمية موقعة مانزكورت الحقيقية ليست فى الجانب المادى والمعنوى للموس لاننتصار المسلمين من مثل أسر الامبراطور البيزنطى ذاته ، والأعداد العظيمة من القتلى والأسرى وسطوع براعة السلاجقة فى القتال لكن أهميتها الحقيقية تكمن فى

٢ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٥٠ - ٢٥٧ .

- ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١١٩ .

٤ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٥٧ - ١٦٠ .

- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

- عنان ، مواقف حاسمة ، ص ١٠٤ - ١١٠ .

الآثار البعيدة التي تركتها على مسار العلاقات الدولية بين القوى الإسلامية والقوى غير الإسلامية . فمعركة مانزكرت تعتبر نقطة تحول ضخمة في موازين القوى ليس فقط بين الشرق الإسلامي والشرق المسيحي (الدولة البيزنطية) ولكن أيضا بين الشرق المسيحي والغرب المسيحي ، فإذا كانت هذه المعركة قد أعادت للشرق مناعته وقوته في صراعه مع الدولة البيزنطية ومهدت لعودة مد الفتوحات الإسلامية مرة أخرى إلى داخل آسيا الصغرى حيث قامت الدولة السلجوقية باتخاذ نيقية - في قلب آسيا الصغرى - عاصمة لها فجعلت منها نقطة انطلاق وتوسع شمالا في جهة البحر الاسود وجنوبا في جهة البحر المتوسط، بل واستطاعت تحرير التخوم الشامية وإعادتها مرة أخرى أرضا إسلامية ، فإن هذه المعركة ونتيجة هذا الانقلاب في موازين القوى لصالح الشرق الإسلامي على حساب الدولة البيزنطية قد أدت إلى انقلاب الموازين أيضا لصالح الغرب المسيحي على حساب الدولة البيزنطية .

فالدولة البيزنطية كانت تمثل للغرب المسيحي السد الذي يحميها من الخطر الإسلامي من أن ينتال عليها من جهة الشرق، ولكن هذه الكارثة الحربية التي منيت بها في مانزكرت أقنعت الغرب المسيحي بأن الدولة البيزنطية لم تعد قادرة على لعب دور حارس هذا الباب الشرقي بكفاءة فكان على الغرب أما أن يدعم هذا الحارس أو أن يزيحه ليقوم بدوره .

وهكذا ولدت فكرة الحروب الصليبية التي ظهرت في بدايتها وكأنتها ما جاءت إلا لتمد يد العون لهذا الحارس ولكنها سرعان ما فضلت الحل الآخر وهو العمل على إزاحته والحلول محله ، وهكذا أضحت معركة مانزكرت في نظر العديد من المحللين هي نقطة التحول التي أرخت لبداية سقوط الدولة البيزنطية وانتهاء دورها كقوة دولية كبرى ، كما أنها أرخت لبداية فكرة الحروب الصليبية بكل ما ستحملة من آثار على مستقبل العالم الإسلامي كقوة دولية (٥) .

ومن الآثار المباشرة لهذه المعركة والتي ساعدت السلاجقة على الميل أكثر بميزان القوى ناحية دار الإسلام ، أنها فجرت داخل الدولة البيزنطية حروبا أهلية وثورات داخلية وصراعات على العرش أستغلها كلها السلاجقة بمهارة للتقدم وكسب مناطق جديدة في آسيا الصغرى من أهمها نيقية التي جعلوها عاصمة لسلطنة سلاجقة الروم في الأناضول ، وكذا مدينة أزمير على بحر أيجه ، وهكذا بحلول عام ١٠٨١ أصبح السلاجقة هم سادة آسيا الصغرى الحقيقيين من الفرات شرقا إلى بحر مرمرة غربا (٦)

٥ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٦٠ - ٢١٦ .

٦ - الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

ولقد اتسمت حركة التوسع السلجوقي في آسيا الصغرى بسمة هامة كان لها آثار خطيرة عند مجيء الحملات الصليبية ، فالسلاجقة كانوا يتوسعون في خطوط أفقية من الشرق إلى الغرب ، ورغم أن حركة التوسع هذه أكسبتهم مدناً هامة جداً إلا أنها حرمتهم أيضاً من أقاليم غاية في الأهمية تقع في الجزء الجنوبي من آسيا الصغرى مثل طوروس والرها وأنطاكية ، والهام في هذا الأمر أن وجود السلاجقة في وسط آسيا الصغرى على امتدادها من الشرق إلى الغرب فصل هذه المناطق في الجنوب عن الدولة البيزنطية في الشمال ، فأدى هذا إلى حدوث حركة إحياء أرمينية كبرى في هذه المناطق وتكونت دولة أرمينية في طوروس دخل في حمايتها المسيحيون في أنطاكية والرها وغيرها من أقاليم الجنوب والشرق مكونين إمارات صغيرة مستقلة تحت حماية أرمن طوروس ، ويرجع بعض المؤرخين السهولة التي تمكن بها الصليبيون من الوصول إلى الجزيرة والشام وغزو الرها وأنطاكية وإقامة إمارات هناك إلى وجود هذه الإمارات المسيحية الصغيرة هناك وابتعادها عن سيطرة الدولة البيزنطية لا يغير من هذه الحقيقة أن السلاجقة قد نجحوا في استرداد أنطاكية عام ١٠٨٧ فلقد ظلت كل المدن الأخرى في يد الأرمن المسيحيين الذين مكّنوا لحكم الصليبيين في هذه المناطق (٧) .

والواقع أن هذا لم يكن السبب الوحيد المساعد على نجاح الصليبيين ولكن ساعد على ذلك أيضاً أن عهد قوة السلاجقة انجسر سريعاً حيث أخذت السلطنة في التفكك بعد موت ملكشاه فانقسمت بحلول عام ١٠٦٩ إلى خمس ممالك مستقلة ومتنافسة أيضاً مما أدى إلى انحسار السيادة السلجوقية عن الشام وظهور وحدات سياسية صغيرة بها عرفت باسم الاتابكيات لم يكن أى منهم من القوة بحيث يستطيع أن يقف منفرداً للمد الصليبي الجارف خاصة أنهم كانوا متنافسين يشكون في بعضهم البعض وغير مقدرين لدى الخطر الصليبي فظن كل منهم أن الخطر الحقيقي يكمن في جيرانه المسلمين (٨) . ولقد امتد تفكك السلاجقة إلى مملكتهم في الأناضول أيضاً، حيث استغل الأمراء المحليون ضعفهم بعد موت ملكشاه وبدأوا يستقلون عملياً فاستقل أمراء نيقية وأزمير وكبادوكيا، فتقدمت الدولة البيزنطية تحاول استرداد سيادتها في الأناضول فنجحت في استرداد بعض الجهات الساحلية ولكنها لم تتمكن من طرد السلاجقة نهائياً خاصة من منطقة القلب في آسيا الصغرى (٩) .

وهكذا تفتت بلاد الشام بين القوى المحلية الإسلامية الصغيرة ، وتفتت بلاد الأناضول بين الأمراء الطامعين التابعين للسلاجقة ، وضعفت الدولة السلجوقية نتيجة

٧ - المرجع السابق ، ص ٣١٧ .

٨ - المرجع السابق ، ص ٣١٧ .

السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٤٢ وما بعدها

٩ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢١٨ .

هذا، وفي ذات الوقت ورغم ضعف الدولة السلجوقية كانت الدولة البيزنطية قد انكسرت هي أيضا خاصة بعد هزيمة مانزكرت وماتبعها من أحداث داخلية مما أعجزها عن القضاء على السلاجقة أو حتى طردهم من آسيا الصغرى رغم ما وصلوا اليه من تفكك، وهكذا أرسل الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع إلى البابا يدعوهُ إلى اقناع أمراء أوروبا لتكوين فرق عسكرية بالأجر تشد أزر الامبراطورية البيزنطية لمقاومة السلاجقة، ولقد وصلت هذه الدعوة البيزنطية إلى البابوية وأوروبا تعاني من ظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية ودينية ولدتها عهد الأقطاع الطويلة هناك جعلت من مسألة تعبئة حشود غفيرة بالتلويح بالدين والدنيا معا أمرا يسيرا للغاية (١٠).

وهكذا كان المسرح في أوروبا مهيا لخروجها في هذه المغامرة، وليس أدل على أن العامل الديني لم يكن هو وحده الدافع للحروب الصليبية بل كانت العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية هي الدافع الأهم، من أن أول حملة خرجت على المشرق كانت حملة العامة والرعاع الجوعى والمحرومين والهاربين من الأحكام، أما حملة الأمراء التي تبعتها فلم تكن تضم أيًا من الملوك الكبار ولكنها اقتصرت على الأمراء الصغار والفرسان الذين خرجوا سعيا وراء أطماع سياسية وأحلام بتكوين إمارات خاصة بهم في المشرق، ولم يأت اشتراك الملوك العظام إلا مؤخرًا أما تحت تهديد البابا لهم بالحرمان وأما لقناعتهم الشخصية من متابعة أحداث الحملات - أن هناك أسبابا دينية تدعوهم إلى الخروج (١١).

وإذا كان المسرح الأوروبي قد تهيأ نتيجة لظروفه لتجهيز هذه الحملات فإن المسرح في المشرق الإسلامي زاد من اقتناع الغرب بضرورة اقتناص الفرصة، فالساحة في المشرق الإسلامي في ذلك الوقت كانت خالية من أي قوة يمكن أن تناهضهم، ولو كان هناك قوة يمكن أن تردعهم لما خرجت هذه الحملات، وليس أدل على ذلك من أن البابا كان قد وجه دعوة لمثل هذه الحملات بعد استغاثة امبراطور بيزنطة به في أعقاب هزيمة مانزكرت، لكن هذه الدعوة لم تجد أي صدى لها في ذلك الوقت، ولكن تكرار الدعوة

١٠ - المرجع السابق، ص ٣٢٠.

انظر في آراء متعددة في تفسير ظروف ونوافع الحروب الصليبية.

قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية: الأيدلوجية - الدوافع - النتائج (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - مايو ١٩٩٠ سلسلة عالم المعرفة عدد ١٤٩، ص ٥٧ - ١٠٩).

رمضان، الصراع بين العرب وأوروبا ص ٣١٨ - ٣١٩.

السامرائي، تاريخ الدولة العربية، ص ٢٥٤ - ٢٦١.

محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (بيروت: دار الغرب الإسلامي - ١٩٨٣)، ص ٢٩ - ٣٥.

١١ - انظر تفاصيل حملتي الجياع والأمراء.

رمضان، الصراع بين العرب وأوروبا، ص ٣٢٦ - ٣٢٤.

بعد هذه المعركة بربع قرن تقريبا وعندما كانت القوة الاسلامية الرئيسية فى المشرق قد تفتت لاقت استجابة سريعة (١٢) .

وهكذا بدأ فى صفحة الصراع الإسلامى - المسيحى مرحلة شديدة الخطورة ، وتمثلت خطورتها فى أن الطرف غير الإسلامى فيه لم يكن هو الخصم الذى اعتاد المسلمون منازلته على مدار القرون الخمسة الماضية، والذى أصابه الكبر والوهن كما أصابهم ، ولكنه الآن خصم جديد له مطامع وحدت أركانه وجمعت شتاته تحت علم الصليب فجاء ليواجه خصما منفصلة أعضاؤه ومنقسمة على بعضها البعض . ويكفى للدلالة على مدى الخطورة التى شكلها الزحف الصليبي أن نعمن التفكير فى معنى أعفاء البابا الأسبان المسيحيين من الاشتراك فى الحملة الصليبية ، لأنهم - كما قرر - يقومون بدورهم فى الحرب الصليبية ولكن من الجهة الغربية (١٣). فالمد الصليبي على المشرق سبقه وزامنه حركة استرداد مسيحي فى المغرب وهكذا توحدت أوروبا المسيحية على العالم الإسلامى المفكك وهو فى غفلة .

وإذا كان السلاجقة قد نجحوا فى هزيمة حملة الجياع وهى فئة فى أول حملة صليبية على المشرق عام ١٠٩٦ تكونت من عشرات الآلاف من الجياع والفقراء والمغامرين والصوص وكانت حملة شعبية غير منظمة فسهلت هزيمتها، فإن الأمر لم يكن بهذه السهولة مع الحملة الثانية، وهى حملة الأمراء أو الحملة النظامية التى شرعت فى الزحف نحو المشرق فى نفس الشهر التى هزمت فيه حملة الجياع (١٤) . وأهمية هذه الحملة أنها وضعت أسس التحالف والتعاون البيزنطى الصليبي ضد الطرف الإسلامى ، فحملة الجياع أثناء مرورها بأراضى الامبراطورية البيزنطية قامت بأعمال سلب ونهب جعلت الامبراطور البيزنطى يندم على الدعوة التى وجهها لأوروبا لطلب المساعدة ، ولم يكن جنود الحملة النظامية أفضل حالا من الجوعى فى الحملة الأولى، ولكن كان يمكن على الأقل بالنسبة للامبراطور البيزنطى أن يتفاهم مع أمرائهم على صيغة للتعاون فكان أن تم الاتفاق بينهم على أن أى أراضى يستعيدوها الصليبيون مما فقدتها الامبراطورية البيزنطية لصالح الدولة السلجوقية قبل معركة مانزكرت فإنها تعاد إلى الامبراطورية البيزنطية أما فيما عدا ذلك فهو ملك لهم يقيمون عليه إمارتهم (١٥) .

١٢ - المرجع السابق ، ص ٢٢١.

١٣ - المرجع السابق ، ص ٢٢٢.

عنان ، مواقف حاسمة ، ص ١١٥ - ١١٦.

١٤ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٢٠ - ٢٢٢.

١٥ - المرجع السابق ، ص ٢٢٤ - ٢٢٦.

وكان إتمام هذا الاتفاق بين البيزنطيين والصليبيين بمثابة توحيد لأوروبا الكاثوليكية مع أوروبا الأرثوذكسية للهجوم على العالم الإسلامي، ولقد أثمر هذا الاتفاق آثاره حيث ضمنت الدولة البيزنطية استعادة الأراضي التي فقدتها لصالح السلاجقة، وضمن أمراء أوروبا إقامة دويلات خاصة بهم فاندفع الجانبان بحماس واتفقا على الهجوم على نيقية عاصمة السلاجقة، وأساء قلع ارسلان تقدير الموقف - خاصة بعد نجاحه في هزيمة حملة الجياع - فانهزم السلاجقة هزيمة نكراء وسقطت عاصمتهم وأعيدت إلى البيزنطيين بعد ستة عشر عاما من وقوعها لصالح السلاجقة (١٦) ومن أهم الآثار غير المباشرة المترتبة على سقوط نيقية أنها ستساهم في تحطيم أسطورة قوة السلاجقة التي لا تقهر لدى الأوروبيين وسيسهم هذا في تدفق المتطوعين للحملة الصليبية خاصة من المدن الإيطالية الساحلية والتي سيكون لأساطيلها دور واضح في الحملات الصليبية التالية (١٧).

ولقد ساهمت هذه الهزيمة في توجيه ضربة حاسمة للسلاجقة جعلتهم يقدر وزن حجم الخطر الصليبي - البيزنطي، فسعوا هم الآخرون لعقد تحالف مع قوى أخرى، ولكن الفاطميين كانوا خارج نطاق تفكيرهم - لأنهم كما سنرى - كانوا قد اختاروا التحالف مع الصليبيين ولم يجد السلاجقة غير قوة محلية إسلامية في آسيا الصغرى تحالفوا معها وتقدموا بعد أن وحدوا القوى الإسلامية في آسيا الصغرى لضرب الصليبيين، ولكن الآخرين قدروا حجم الخطر فأرسلوا في طلب المدد من القوى الصليبية الأخرى ودارت معركة ١٠٩٧ أنهت بهزيمة السلاجقة مرة أخرى الذين قرروا بعدها الانسحاب إلى الداخل ف وقعت المدن واحدة تلو الأخرى للصليبيين دون مقاومة (١٨). وبدأ الصليبيون، بنجاحهم في اكتساب مدن وأراضي، في تكوين إمارات لهم هناك كان أولها إمارة الرها في شمال أقليم الجزيرة التي ساعدهم على دخولها سكانها وحاكمها من الأرمن - كما سبق بيانه - فقامت عام ١٠٩٨ في هذا الموقع الهام من شمال الجزيرة لتضحي سدايحمى ممتلكات الصليبيين التي ستتكون بعد ذلك في الشام ضد أي هجوم إسلامي "سلجوقي" من الشرق (١٩).

ولقد بدأ غزو الصليبيين للشام بوصولهم إلى أنطاكية عام ١٠٩٧ ولقد عبروا إليها على جسر من المدن فتحوها على طول الطريق بعضها بتسليم من حكامها المسلمين

١٦ - المرجع السابق، ص ٢٤١ - ٢٤٢.

١٧ - المرجع السابق، ص ٢٤٢ - ٢٨١.

السامرائي، تاريخ الدولة العربية، ص ٢٦٢.

١٨ - رمضان، الصراع بين العرب وأوروبا، ص ٢٤٢.

١٩ - المرجع السابق، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

مقابل بعض المال وبعضها بترحيب من سكانها الأرمن بالأخوة في الدين (٢٠) ، ولقد أُرِخ وصول الصليبيين إلى أبواب الشام عام ١٠٩٧م بداية مرحلة خطيرة في تاريخ الصراع الإسلامي المسيحي استمر سنوات طويلة وتمثلت خطورته في أن الشام كان دائما بمنأى عن الصراع الإسلامي - غير الإسلامي منذ فتحه وذلك نتيجة سيطرة المسلمين على حوض البحر المتوسط . ولم يبدأ الشام في الدخول إلى ساحة الصراع إلا بمجيء الأسرة المقدونية إلى عرش الإمبراطورية البيزنطية ولكن سرعان ما أستخدمت السلاجقة الشام للعالم الإسلامي ، ولكن بوصول الصليبيين إلى أبوابه سيصبح الشام المسرح الأساسي لأحداث الصراع بين المسيحيين والمسلمين ، وسيكون محل الأطماع بعيدة المدى لمسيحيي أوروبا ، ورغم هذا فإن الدولة الفاطمية لم تقدر حجم هذا الخطر ولا طبيعته وستظل أطماعه محدودة وستسعى إلى التحالف معه ضد العدو "القائم " نعتى السلاجقة .

المطلب الثاني : تراجع الدولة الفاطمية عن مركز القوة الدولية المناوئة في المشرق والمغرب على السواء :

رأينا كيف أن قيام الدولة الفاطمية ومجيئها إلى الشرق قد أوقف حركة الاسترداد البيزنطي حيث أوقفت تقدمهم في الشام عند أنطاكية ، صحيح أنها لم تستطع أن تسترد لدار الإسلام أيًا من الأراضي التي كان البيزنطيون قد نجحوا في استردادها أثناء حكم الأسرة المقدونية واستغلالها تدهور أحوال الخلافة العباسية في الشرق إلا أنها وقفت مع البيزنطيين على قدم المساواة وكانت لهم بالمرصاد واستمر هذا الوضع حتى وفاة الحاكم بأمر الله عام ٤١١هـ / ١٠٢١م حين بدأ ميزان القوى يختل مرة أخرى لصالح البيزنطيين نتيجة بؤادر الضعف التي بدأت تدب في أوصال الدولة الفاطمية (٢١).

فلقد أرخت وفاة الحاكم بأمر الله بداية ظهور الفرق والانقسامات الدينية والسياسية بالتالي داخل الدولة الفاطمية والتي أدت إلى أنقسام الدولة الفاطمية بالفعل إلى أكثر من دولة تعبر كل منها عن عقيدة مذهبية معينة داخل إطار المذهب الشيعي وذلك بعد وفاة المستنصر عام ٤٨٧ . وهكذا بدأت الدولة الفاطمية تفقد مكانتها كقوة دولية مناوئة في المشرق والمغرب على السواء ، ففي المغرب بدأ نفوذها يضمحل على يد

٢٠ - انظر التفاصيل في :

عنان ، مواقف حاسمة ، ص ١١٨ .

السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٦٥ .

رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

٢١ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٢٤٩ ، ٢٥٧ .

ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١١٦ .

آل زيرى ولاتها على أفريقية، والذين أدى تمردهم عليها ورغبتهم فى الاستقلال عنها إلى بداية تطور من الصراع المحلى شاعت بسببه الفوضى فى المغرب واستنزف الصراع قوى الفريقين فلم ينتبها للخطر القادم من الشمال على يد قوى النورمانديين المناهضة وكذلك على يد الايطاليين خاصة من مدينتى بيزا وجنوة (٢٢) .

وعلىنا أن نتذكر هنا أن الامبراطوية البيزنطية خاضت صراعا فى العصر العباسى الثانى لاستعادة ممتلكاتها فى شرق البحر المتوسط ونجحت فى ذلك وبسطت سيطرتها أيضا أثناء ذلك الصراع على مدن إيطاليا الساحلية ، ولكن سرعان ما سعت هذه المدن لتأكيد سيطرتها واستقلالها وبدأت ثورة المدن الساحلية على حكامها البيزنطيين والذين استعانوا فيها بالمرتزقة النورمانديين الذين دخلوا كعنصر فى الصراع سرعان ما اكتسبت قوة هائلة استطاعت تحقيق انتصارات على القوات البيزنطية (٢٣)، وسرعان ما حملت أطماع النورمانديين إلى صقلية حيث كانت الأوضاع بها تمهد لسقوطها فمدوا أيديهم ليلتقطوها هم ، وصقلية كانت تابعة لسلطة الدولة الفاطمية فى مصر مع تمتعها باستقلال داخلى، ولقد قامت فتن داخلية فى الولاية دفعت حكامها إلى الاستعانة بحاكم أفريقية عام ٤٣٧ مؤكدين له أنه إذا لم يعمل على إنهاء النزاع فسوف يسلمون الجزيرة للبيزنطيين .

وفشل حاكم أفريقية فى تحقيق النظام فدخلت الجزيرة فى فترة أشبه بعهد ملوك الطوائف فى الأندلس فذهب الأمراء المتنازعون يستعينون بقوة النورمانديين عام ٤٤٤ / ١٠٥٤ وتقدم النورمانديون يفتنمون الفرصة فدخلوا صقلية بمساعدة الخونة من المسلمين وبدأوا يستولون على مدنها الواحدة بعد الأخرى، وفشل المدد الذى أرسله والى أفريقية فى تغيير الوضع هناك لصالح المسلمين ، واستمر فتح النورمانديين لصقلية مدة ثلاثين عاما وأنتهت بسقوطها كلها لهم عام ١٠٩١، وقبل سقوط صقلية للنورمانديين بأربع سنوات كان الآخرون يشتركون مع الايطاليين فى الهجوم على المهديّة عاصمة آل زيرى فى ولاية أفريقية عام ١٠٨٧ .

واستطاعوا أن يتغلبوا عليها نتيجة ضعف المدينة من جراء صراع حكامها مع الفاطميين ، ويعتبر كثير من المؤرخين هذه الحملة على المهديّة بمثابة تمرين للإيطاليين

٢٢ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١١٧ - ١١٨ .

حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٥ .

فايد حماد محمد عاشور ، جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية (بيروت - مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٥) ط ٢ ، ص

ص ٦٨ - ٦٩ .

٢٣ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٥٢ .

ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ص ١١٩ - ١٢١ .

والنورمانديين على الحملات الصليبية التي سيقومون بها بعد ذلك على سواحل الشام^(٢٤). وعلى هذا النحو فقدت الدولة الفاطمية سيطرتها على المغرب الأوسط وكذا ضاعت صقلية تمازت من يدها لتتأسس بها دولة النورمانديين .

وكما كان الدور الفاطمي كقوة دولية مناوئة للأطراف غير الاسلامية ينتهى من المغرب فإنه كان ينتهى من المشرق أيضا حول نفس الفترة حيث بدأ الفاطميون يوجهون اهتمامهم مرة أخرى إلى صراعهم مع القوى الاسلامية متمثلة فى الدولة السلجوقية على حساب صراعهم مع الدول غير الاسلامية رغم الخطر الصليبي الزاحف الذى يقترب من المنطقة فى هذه الفترة ، فنجد الفاطميين ينتهزون فرصة اقتراب الخطر الصليبي ليتقدموا الى بيت المقدس يحاصرونها ويستولون عليها ثم على بقية فلسطين ثم يتقدمون مستغلين تفوقهم البحري على السلاجقة ليسيظروا على مدن سواحل الشام كلها عدا طرابلس ، وهكذا بدلا من أن يوحدا جهودهم مع السلاجقة فى الشام لمواجهة الخطر الصليبي القادم فإنهم يساهمون فى تفتيت بلاد الشام ويضعافون من أثر سقوطها فى يد الأمراء المحليين على ضعف مقاومتها للغزو الصليبي^(٢٥) .

ومن الواضح أن الدولة الفاطمية لم تقدر حجم أو طبيعة أو هدف الزحف الصليبي وقدرت أنها يمكنها الإفادة منه بالتحالف معه لتحقيق انتصارات على السلاجقة المسلمين فى جنوب الشام ، وكان مشروع التحالف الذى فكروا فيه هو أن يسهلوا للصليبيين الحصول على أنطاكية على أن يكون بيت المقدس للفاطميين . ومن أستقراء الفاطميين للسوابق التاريخية أدركوا أن الدولة البيزنطية فى أزهى عصورها لم تستطع أن تتعدى بأمالها حدود أنطاكية ، ولم يقدروا أن الصليبيين ممكن أن يكونوا أشد خطورة من البيزنطيين ، ولم يتصوروا أن تتعدى أحلامهم أبعد من حدود أنطاكية ، وكان سوء التقدير هذا لحجم الخطر الصليبي هو الذى مهد لهم احتلال الشام^(٢٦) .

فلقد رأينا كيف أن الصليبيين وصلوا إلى أبواب أنطاكية عام ١٠٩٧ ظانين أنهم سيواجهون مهمة سهلة ، ولكن أنطاكية كانت من أقوى المدن تحصينا من ناحية التضاريس الطبيعية ، كما أن أهلها أستبسلوا فى الدفاع عنها ، ومن المؤكد أن مصير الحروب الصليبية كان سينقلب رأسا على عقب لو لم تقع لهم هذه المدينة، ولكن تمزق

٢٤ - الصراع بين العرب واوربيا ، من ص ٢٥٢ - ٢٥٤ .

- ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ، من ص ١٢٢ - ١٢٥ .

- حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١١١ ، ٢٥٥ - ٢٥٧ .

- عويس ، دراسة فى سقوط ثلاثين دولة اسلامية ، من ص ١٥١ - ١٥٢ .

٢٥ - رمضان ، الصراع بين العرب واوربيا ، من ص ٢٥٢ - ٢٥٤ .

- الطوى ، الحروب الصليبية ، من ص ٢٥ - ٢٦ .

٢٦ - رمضان ، الصراع بين العرب واوربيا ، من ٢٥٠ .

القوى الاسلامية - خاصة السلجوقية والفاطمية - وعدم قدرتهم على أدراك الخطر وتوحيد صفوفهم وعجزهم عن الارتفاع فوق خلافاتهم وتقديم المعونة لأهلها المحاصرين كان سببا في سقوطها بعد تسعة أشهر من المقاومة وبعد بعض الانتصارات غير الحاسمة التي حققها تحالف ولاة دمشق وحمص (٢٧) .

وفي تلك الظروف العصيبة التي كانت تمر بها أنطاكية لعبت الانقسامات الفاطمية السلجوقية دورا خطيرا في ترجيح كفة الصليبيين . ذلك أن الفاطميين أنتهزوا فرصة انشغال السلجقة بالصراع مع الصليبيين فحركوا جيشا تمكن من فتح بيت المقدس لصالحهم عام ١٠٩٨ - كما سبق بيانه - وكانت قد وفدت إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية قبل ذلك بعثة فاطمية للتفاوض على عقد تحالف مع الصليبيين ضد خصومهم من "أهل السنة" (٢٨) .

ولقد أدى نجاح الصليبيين في فتح أنطاكية والذي مهدت له الانقسامات الاسلامية والموقف الفاطمي غير الواعي إلى انفتاح الطريق أمامهم إلى الشام كله لأنها مفتاحه ، وكانت المحطة التالية التي أختاروها هي بيت المقدس، التي ما أراد الفاطميون أن يتحالفوا معهم إلا بفرض السيطرة الفاطمية عليه، وهنا تبدل الموقف الفاطمي تماما - كما سنرى - .

المطلب الثالث : صعود دولة المرابطين في المغرب والأندلس وتصديها لحركة الاسترداد المسيحي :

رأينا كيف دخلت الأندلس في دور اضطراب وفوضى مهد لظهور الفترة الثانية من حكم ملوك الطوائف بعد وفاة عبد الملك المظفر ، وسمعا البابا يحث الأسبان المسيحيين على عدم الاشتراك في الحملات الصليبية على المشرق ليستكملوا دور الاسترداد المسيحي للأندلس الاسلامية ، والواقع أن حركة الاسترداد المسيحية بقيادة فرناندو والد الفونسو السادس كانت قد اتخذت صفة دولية ودينية بدءاً من عام ١٠٦٣ عندما وافق البابا على شدة أزره في قتاله للمسلمين بأن نظم حملة اشترك فيها فرسان وأمراء فرنسيون وإيطاليون ونورمانديون ساعدت فرناندو في حروبه ضد المسلمين فأصبح أمراء طليطلة وأشبيلية وإبليموس وسرقسطة يدفعون له الجزية كسباً لوده

٢٧ - المرجع السابق ، من ص ٢٥٠ - ٢٥٥ .

- المطوى ، الحروب الصليبية من ص ٤٩ - ٥١ .

٢٨ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٣٥٤ .

- عنان ، مواقف حاسمة ص ١١٨ .

- عاشور ، جهاد المسلمين من ص ١٠٩ - ١١٠ .

- حامد زيان غانم زيان ، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الاسلامية زمن الحروب الصليبية (القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٣) ، من ص ٤٥ - ٤٦ .

واتقاء لشبهه، ولم يستطع المسلمون لتفرقهم أن يستفيدوا من اضطراب أحوال الممالك المسيحية الذي أعقب وفاة فرناندو والصراع على السلطة حتى مجيء الفونسو السادس ، والذي بدأت على يديه حركة استرداد مسيحية سقطت فيها مدن عظام كان من أهمها طليطلة التي كان لوقوعها للمسيحيين عام ١٠٨٥ دوى عظيم وأثر نفسى هائل حيث هي عاصمة القوط القديمة وكان فتحها ارهاصة لطرد المسلمين من الأندلس وعودة ملك القوط ، وهكذا سما مركز الفونسو وأكتسب ثقة قوية فى تعامله مع ملوك الطوائف وبدأ أن حركة الاسترداد المسيحية ماضية فى طريقها إلى النهاية (٢٩) .

ولكن فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الأندلس كان المسرح يتهى فى المغرب لظهور قوة اسلامية ضاربة ستقلب ميزان التعامل الدولى بين المسلمين وغير المسلمين فى المغرب لصالح القوى الاسلامية وهذه هى دولة المرابطين (الملمين) والتي ظهرت أول ما ظهرت فى الصحراء الكبرى وتوسعت أولا جنوبا فى بعض المناطق الأفريقية مثل غانا ثم بدأت تتجه شمالا حتى ظهرت فى المغرب عام ٤٥٢ فى نفس الفترة تقريبا التى ظهر فيها السلاجقة فى المشرق، وتوسعوا وامتدوا على طول ساحلى البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى ، وفى ذات الوقت الذى كان المرابطون يتوسعون فيه من قلب أفريقيا شمالا صوب الساحل ، كان الفونسو السادس يتوسع جنوبا صوب الساحل أيضا ولكن على ضفته الأخرى، وهكذا بدأ وكأن فى المغرب يستعد لتواجه الخصمين وجها لوجه. وفى الوقت الذى سقطت فيه طليطلة للفونسو عام ٤٧٨ كان يوسف بن تاشفين أمير المرابطين يستكمل توسعه فى الجزائر ويضمها عام ٤٧٤ ، وهكذا جذبت تلك القوة المسلمة الصاعدة فى المغرب أنظار ملوك الطوائف فى اسبانيا فأرسلوا يستجدون بها ويستصرونها على مسيحي الشمال، ولا كانت دولة المرابطين نشأت فى "رباط" دينى وكان توجهها دينياً كله، كان الجهاد سياسة أساسية لها ونصرة المسلمين ركنا من أركانها فكانت استجابتهم لطلب الذهاب إلى الأندلس "لأن" مجاهدة الأفرنج فريضة" ولأن "واجب المسلم أغائة أخيه المسلم" فكان عبور المرابطين للأندلس رغم توجس بعض ملوك الطوائف هناك من قوتهم بل وتفضيلهم مداراة الفونسو ومصانعتة على استقدام هؤلاء "المسلمين الأقوياء" (٣٠) .

-
- ٢٩ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، من ص ٢٧٤ - ٢٧٦ .
 - السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٦٢ .
 - عنان ، مواقف حاسمة من ص ٢٦٥ - ٢٨١ .
 - عويس ، دراسة سقوط ثلاثين دولة اسلامية من ص ٣٠ - ٣١ .
 ٣٠ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، من ص ٢٨٢ - ٢٨٢ .
 فى نشأة دولة المرابطين وطبيعتها انظر :
 - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، من ص ٢٨٧ - ٢٨٢ .
 - السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، من ص ٢٤٤ - ٢٦١ .
 - ابراهيم على طرخان ، امبراطورية غانا الاسلامية (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٧٠) ص ٤٦ وما بعدها .

ويعتبر المؤرخون عبور المرابطين للأندلس حدثاً من أحداث التاريخ الكبرى وعلامة بارزة في تاريخ المواجهة الإسلامية / غير الإسلامية ، ذلك أن المرابطين لما عبروا الأندلس وجدوا ما عليه حال المسلمين من تخاذل وتقاعس أستفتوا فقهاءهم فأفتوهم بضرورة البقاء والقضاء على ملوك الطوائف وتوحيد الأندلس باعتبار هذا واجباً دينياً، وهكذا حدث التحول الكبير في الأندلس من التمزق والضعف إلى الوحدة والقوة، وكان هذا نذيراً بأن تتبوأ الأندلس مرة أخرى مكانتها كقوة دولية كبرى تردع القوى الأخرى بقوتها وتقف لهم موقف الند. وهكذا فقد أنقذوا بوابة العالم الإسلامي الغربية من السقوط في وقت كان فيه المشرق يواجه خطر الحملات الصليبية ، ويتعاضم الدور الذي لعبه المرابطون عندما ندرك طبيعة الخصم الذي كانوا يواجهونه، فإذا كان السلاجقة قد بثوا روحاً جديدة في المشرق الإسلامي فإنهم قد قاموا بهذا في مواجهة امبراطورية عجوز كانت تحيا وقتها فورة مؤقتة لاتخفى حقيقة هرمها، ثم أن هذا الانبعاث لم يتم للسلاجقة أكثر من أربعين عاماً ، أما المرابطون في الأندلس فكانوا يواجهون قوة بازغة ودولة فتية هي قشتالة، ثم تصدت من ورائهم لممالك مسيحية أخرى لاتقل شباباً وظلت مدافعة عن راية الإسلام في المغرب الإسلامي قرابة قرن من الزمان (٣١) .

ولقد كانت أول خطوة للمرابطين على أرض الأندلس نصراً حاسماً عندما استطاعوا أن يهزموا قوات المعسكر الصليبي في معركة الزلاقة عام ٤٧٩ / ١٠٨٦ . ولقد ساهم النصر في استرداد الأندلس ثقته بنفسه حيث استعاد ذكريات الحاجب المنصور بن عامر كما أن النصر أورث هيبة المرابطين في نفوس الممالك المسيحية ، ثم الأهم من ذلك أن يوسف بن تاشفين متجراً بهذا النصر أرسل إلى الخليفة العباسي يطلب الشرعية لإمارته، فحصل عليها بفتوى من الإمام الغزالي وكان هذا أول اتصال بين الأندلس والخلافة العباسية منذ قيام الدولة الأموية في الأندلس قبل أكثر من ثلاثة قرون عام ٧٥٦/١٢٨ (٣٢) .

ولقد حافظ يوسف بن تاشفين على طبيعة مهمته في الأندلس كما فهمها، فبعد أن نصر ملوك الطوائف هناك قفل راجعاً إلى المغرب، ولكن ما لبث الأمر في الأندلس أن عاد إلى ما كان عليه من تناحر ملوك الطوائف الذي أتاح الفرصة للوك الشمال المسيحي لأن يستفيقوا من صدمة الزلاقة، وإدراك مدى الخطر الذي يشكله المرابطون عليهم، بدأوا ينظمون قواهم تمهيداً لضرب المرابطين ، ولما أدرك يوسف بن تاشفين أن

٣١ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص من ٢٨٦ - ٢٨٧ .

٣٢ - المرجع السابق ، ص من ٢٨٨ - ٢٩٠ .

- السامرائي ، تاريخ المغرب العرب ، ص ٢٦٢ .

- عنان ، مواقف حاسمة ، ص من ٢٨١ - ٢٩٢ .

- عويس ، دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ، ص من ٢٢ ، ٣٥ - ٣٦ .

وصيته للوك الطوائف بأن يتحدوا لأن تجرؤ المسيحيين على المسلمين جاء نتيجة "تشتتنا واستعانة البعض بهم على البعض" قرر ضرورة الرجوع فعادوا مرة أخرى عام ١٨٤ ولكن هذه المرة لقتال ملوك الطوائف الذين سارعوا بالاستعانة بملوك الممالك المسيحية ضد المرابطين مكررين نفس أخطاء الماضي وعلى رأسها تسليم المدن الإسلامية مقابل معاونة المسيحيين لكل منهم على الاحتفاظ بما تحت يده أو بجزء منه (٢٣).

ولقد دار هذا الصراع بين المرابطين في جانب وملوك الطوائف ومسيحي الشمال الأسباني في جانب آخر في نفس وقت تهيق المسرح لخروج الحملات الصليبية وهنا نستطيع أن نفهم دعوة البابا للأسبان المسيحيين بعدم الخروج مع الحملات الصليبية وحثهم على البقاء لجهاد المسلمين في الأندلس ، ولقد تكالب الأعداء على المرابطين حتى سقطت بلنسية للوك الأسبان عام ١٠٩٤ وكان لسقوطها شجن وذلك أن أهلها كانوا قد أعلنوا الطاعة للمرابطين ولكنهم اضطروا للتسليم للمسيحيين تحت وطأة المجاعة وبسبب انشغال المرابطين في حروبهم ضد ملوك الطوائف ، وكان سقوط بلنسية على هذا النحو نقطة تحول في الصراع الإسلامي / المسيحي في الأندلس حيث أدى سقوطها إلى الصراع بين يوسف بن تاشفين والأمير المسيحي الذي سقطت له بوصفه صراع حياة أو موت حتى أستعادها المرابطون عام ١١٠٢ لتبدأ مرحلة مد مرابطين في الأندلس أضفى عليه أهمية أنه زامن اشتعال الحروب الصليبية في المشرق وتقدمها مستفيدة من تناحر القوى الإسلامية هناك . (٢٤)

المبحث الثاني

المد الصليبي في المشرق يوازنه المد المرابطي في المغرب

من ٤٩١ - ٥٢٢ هـ / ١٠٩٧ - ١١٢٨ م

المطلب الأول : من وصول الصليبيين إلى أبواب الشام وحتى ظهور عماد الدين زنكي وتمهيده لعهد صلاح الدين :

بلغت العلاقات الفاطمية / السلجوقية والفاطمية / الصليبية والسلجوقية / الصليبية حداً من التشابك والتداخل في هذه الفترة بحيث يفضل عدم الفصل في دراستها بل تناولها متشابكة ومتداخلة كما حدثت على مسرح الأحداث بالفعل .

٢٣ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، من ص ٢٩١ - ٢٩٤ .

- السامرائي ، تاريخ المغرب العربي ، من ص ٢٦٤ - ٢٦٦ .

٢٤ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، من ص ٢٩٦ - ٣٠٤ .

وكنا قد رأينا في المبحث السابق كيف أن الفاطميين نظروا إلى مقدم الصليبيين على أنه فرصة لتخليصهم من منافسة السلاجقة القوة الإسلامية المناوئة لهم، ولم ينتبهوا إلى أن الشعار الذي خرج وراءه الصليبيون كان يستدعي توحد القوى الإسلامية كلها تحت شعار واحد أيضا .

ولما استفاقوا لهذه الحقيقة كان الصليبيون يدهمون بيت المقدس، وكان أول رد فعل فاطمي لهذا الحدث هو محاولتهم التفاهم مع الصليبيين فأرسلوا سفارة لهم تعرض تعهد الفاطميين بتسهيل مهمة الحج لهم في شكل جماعات من مائتي إلى ثلاثمائة حاج بشرط ألا يكونوا مسلحين وذلك مقابل احتفاظ الفاطميين ببيت المقدس ويظهر من هذا العرض أن الفاطميين كانوا مازالوا يعتقدون أن الدافع الديني هو الكامن وراء الحملات الصليبية فرأوا أن يوفره لهم درءا للقتال وتحقيقا لما يريدون من تسيد .

ولكن رفض الصليبيون العرض الفاطمي فأضحى لامفر من وقوع الصدام بينهما، ولقد استعد الفاطميون للزحف الصليبي مستفيدين من سيطرتهم في ذلك الوقت على فلسطين وساحل الشام ، وهنا ظهرت فكرة في مجلس الحرب الصليبي وهي الهجوم على مصر على أساس أن مفاتيح بيت المقدس الحقيقية هي في القاهرة، وذلك في إشارة واضحة إلى أدراكهم مدى الارتباط الأمني بين جبهتي مصر والشام وهو ما يعد صدى للتفكير الاستراتيجي اذ رأيناه ونراه دائما لدى كبار القادة المسلمين، رغم أن هذه الفكرة لم توضع موضع التنفيذ في حينها إلا أنها ستظل مهيمنة على التوجه الاستراتيجي للحملات الصليبية وسيحاولون وضعها موضع التنفيذ أكثر من مرة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، أما في حينه فقد ركز الصليبيون على بيت المقدس ذاته وبالفعل تقدموا لحصاره فلم تصمد المدينة أكثر من أربعين يوما لعدم تلقى الفاطميين بها أي مساعدة من جهات أخرى فسقطت بيت المقدس عام ١٠٩٩ . (٣٥)

وبعد أن أسس الصليبيون أمارة لهم في القدس واستقروا على حكمها واصلوا تقدمهم بسهولة في أملاك الفاطميين في فلسطين فوقعت مدنها تحت قبضتها الواحدة تلو الأخرى، وكثيرا ما كان أهل المدينة يسلمونها لهم لايمانهم بعدم جدوى المقاومة لانعدام وسائل الدفاع فيها (٣٦)، وعند هذا الحد كان الفاطميون قد بدأوا يستفيقون من صدمة الهجمة الصليبية على أملاكهم فبدأوا يعدون العدة لمواجهة فعمسكروا في عسقلان استعدادا لملاقاة الصليبيين للزود على أملاكهم في الشام ولكن بلغ تجرؤ

٣٥ - المرجع السابق ، ص ٢٥٧ - ٢٥٩ .

- عنان ، مواقف حاسمة ، ص ١١٩ .

- المطري ، الحروب الصليبية ص ٥٢ - ٥٥ .

- السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

٣٦ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٦٢ .

الصلبيين أن بدأوا هم بالهجوم فأوقعوا بهم هزيمة نكراء عام ١٠٩٩ ردتهم إلى مصر، ولم يفتأ الفاطميون يرسلون الحملات من مصر على الصليبيين ابتداء من ١١٠٢ حتى عام ١١١٥ كل عام تقريبا لكن دون جدوى تذكر لأن أوضاع الصليبيين في بيت المقدس كانت على خير حال، وفي الفترة القصيرة التي سادت فيها الفوضى هناك بعد انتصارهم في عسقلان بسبب تنازع أمرائهم على الغنيمة لم تتقدم أى قوة اسلامية للاستفادة من الوضع، ولما جهز الفاطميون أول حملة لهم على بيت المقدس عام ١١٠٢ كانت أوضاع الصليبيين هناك قد أستقرت (٢٧)، وسرعان ما استقل الصليبيون مواقعهم التي احتلوها كقواعد ينطلقون منها لاحتلال مدن الشام كلها ، وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيون يتلقون المساعدات من الأساطيل الإيطالية من بيزا وجنوة والبندقية، وأنعدمت المساعدات الفاطمية لتلك المدن التابعة لها، وعندما كانت ترسل المدد كان ضئيلا بالمقارنة بالمتوفر للصليبيين ، وهكذا سقطت المدن الساحلية في الشام المدينة تلو الأخرى أما بعد نضال ضعيف مثل أرسوف أو بالتسليم بالتبعية للصليبيين مثل عسقلان وقيسارية وعكا (٢٨) .

ولقد شجعت إقامة الصليبيين أمانة لهم في بيت المقدس البابا على الدعوة لحملة صليبية ثانية ، وشجع نجاح الصليبيين هناك وأنكسار السلاجقة على انضمام الكثيرين لهذه الحملة طمعا في المكاسب، فخرجت هذه الحملة عام ١١٠٠ ولكن لتواجه موقفا اسلاميا غير الذي واجهته الحملة الأولى فالتشرذم والصراع بين القوى الاسلامية والذي أدى إلى الهزيمة في المرة الأولى، حل محله في المرة الثانية تحالف بين السلاجقة الروم وملك حلب فخر الدين رضوان بن تتشى والملك غازي كمشتكين فكان أنتصار الجانب الإسلامي حازما مما أعاد للسلاجقة ثقتهم بأنفسهم .

وكان من آثار هذا الانتصار الهام أنه سد طريق أسيا الصغرى في وجه الصليبيين لعشرات قادمة من السنين حتى أواخر القرن الثاني عشر تقريبا مما أدى إلى تزايد اعتماد الصليبيين على أساطيل مدن إيطاليا لجلب المزيد من الصليبيين إلى مملكة بيت المقدس عن طريق البحر مما ضاعف من مكاسب البندقية وجنوة وبيزا وزاد من أزدهارها (٢٩) .

وبدلا من أن يستخلص المسلمون العبرة مما جنوا بفضل توحيد قواهم فيستثمرون في هذا لأقامة تحالف بين السلاجقة والفاطميين لتستعيد دار الإسلام فلسطين وبيت المقدس، فإنهم أداروا ظهورهم عنها مما أضطر الفاطميين أن يخوضوا معركتهم

٢٧ - المرجع السابق ، ص من ٢٦٤ - ٢٦٧ .

٢٨ - المرجع السابق ، ص ٣٦٨ .

٢٩ - المرجع السابق ، ص من ٣٧٠ ، ٣٧٤ - ٣٧٥ .

- السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٣٦٧ .

وحدثهم فكان نصيبهم الهزيمة فى كل الحملات التى أرسلوها برية أو بحرية فأدى فشل المسلمين فى تجاوز خلافتهم إلى بقاء القدس فى يد الصليبيين (٤٠) .

والواقع أن الفاطميين لم يتوانوا عن محاربة الصليبيين منذ أن تكشفت لهم نواياهم، ولكن تأخر ادراكهم لهذا الخطر فاستفحل بالإضافة إلى أن عملهم وحدهم ضد الصليبيين المتحدين أفشل كل خملاتهم وذهب جهدهم أدراج الرياح وسقطت ممتلكاتهم الواحدة وراء الأخرى، وكان أهمها المدن الساحلية فى الشام مثل عكا التى سقطت بفضل مساعدة الأساطيل الإيطالية للصليبيين كما ذكرنا دون تلقيها مساعدات من الدولة الفاطمية فى حينه، فالتحرك الفاطمى كان يأتى دائما متأخرا، وفى عقب سقوط كل إمارة كانوا يجهزون حملة تذهب للنجدة بعد أن يكون الأمر قد استتب للصليبيين، ومن المؤكد أيضا أن أحد أسباب فشل الجهود الفاطمية هو التدفق المستمر للحملات الصليبية محمولة فى الأساطيل الإيطالية لتكون قوة بشرية معاونة على الزحف المستمر للتوسع فى ساحة المشرق الإسلامى (٤١) .

مع التأكيد على ما ذكرناه من ضعف المساعدات الفاطمية لأقاليم الشام وانعدام التناصر الإسلامى لمنع سقوطها مما دفع العديد من هذه المدن إلى التسليم للصليبيين لما ظهر من قصور المسلمين فى حمايتها، فنحن نؤكد هنا أن بعض هذه المدن سقطت للصليبيين بسبب الخيانة المباشرة للأمراء المسلمين المحليين ، كما كان الحال فى سقوط طرابلس لهم عام ١١٠٢ نتيجة لمهادنة بنى عمار أمراء انطرسوس لهم مقابل تركهم طرسوس لهم ، ولكن لما ظهر غدر الصليبيين واحتلوا المدينتين أرتقى بنو عمار فى أحضان القوى الإسلامية واستنقذوا المدينة بصعوبة ولكن لتعود محاولات الصليبيين لاحتلالها مرة أخرى ، ولما استنصر أهل طرابلس الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى لنجدتهم لم يجدوا إلا الكلمات المعسولة فتوجهوا بطلبهم هذا إلى الفاطميين الذين تقدموا بالفعل ودخلوها برضاء أهلها مقابل الدفاع عنها ولكنها سقطت للصليبيين بعد ذلك بست سنوات فى فترة من فترات توحدتهم ، وأعقب سقوطها سقوط بانياس عام ١١٠٩ ثم حصن الأكراد عام ١١١٠ ورفينه ١١١٥ وهكذا انكشف مدى انحلال وضعف الخلافة العباسية ، كما ظهر أثر التنافس بين القوى الإسلامية واضحا ، كل منها يسرع لدخول المدينة الإسلامية منتهاظ ظروف ضعفها وهوانها (٤٢)

والواقع أن التهاون والتخاذل لم يكن فى الجانب الإسلامى وحسب، ولكن كان أيضا للصليبيين نقاط ضعفهم الكثيرة وتخاذلهم ، ولأن الصليبيين لم يأتوا استجابة لدعوة

٤٠ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٧٦ .

٤١ - المرجع السابق ، ص ص ٢٧٦ - ٢٨٢ .

٤٢ - المرجع السابق ، ص ص ٢٨٩ - ٢٩١ .

- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ص ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

الجهاد الدينى فحسب فإنهم كانوا يتصارعون فى المشرق مع بعضهم البعض ، وكذا مع البيزنطيين ، صراعات مطامع ومصالح شخصية وكانت تؤدى هذه الصراعات إلى ضعفهم ، ولكن المشكلة أن المسلمين كانوا هم الآخرون متشرذمين فلم يستطيعوا الإفادة من هذا الوضع الصليبي المتخاذل ، وعلى الرغم من ذلك أضحى من الملاحظ أن المسلمين بعد امتصاصهم للصدمة الأولى للحملات الصليبية، أصبحوا قادرين على نسيان خلافاتهم وتحقيق نوع من التحالف فى فترات قوة الصليبيين وذلك مثلما حدث عام ١١٠٣ عندما حاول الصليبيون فى الرها التوسع بالاستيلاء على حران لقطع الصلة بين المسلمين فى العراق وفارس فى جانب وبين أخوانهم فى الشام فى الجانب الآخر ثم الاستيلاء على الموصل نفسها وتأمين مركز الصليبيين فى الجزيرة والشام . ولكن هذه الخطة الطموحة استنفرت القوى الإسلامية فى شمال إقليم الجزيرة لتتحد، فتتآسى أمراء هذه المنطقة المسلمون خلافاتهم ووجدوا جهودهم فائتصروا على الصليبيين وأوقفوا من ثم توسعهم من جهة الشرق على حساب المسلمين بل وأتاح لهم ذلك فرصة الانقضاض فى الشام لاسترداد ما ضاع لولا ضعف وتخاذل أمير حلب وانفراط عقد التحالف الإسلامى من جديد الأمر الذى مكن أمير أنطاكية من التقدم للاستيلاء على مناطق جديدة (٤٣) .

وهكذا دارت العلاقات بين المسلمين والصليبيين يتحالفون معهم أحيانا ضد بعضهم البعض ويتحالفون مع بعضهم البعض أحيانا أخرى ضد الصليبيين عندما يظهر لهم خطرهم مستشريا ، وأحيانا ينصرون بعضهم البعض وأحيانا أخرى يفلقون فى وجوه بعضهم البعض أبواب التعاون . وبدأت المعارك تدور سجالا أحيانا ينتصر المسلمون وأحيانا يهزمون ، وكانوا عادة ما ينتصرون بتوحيدهم فى حلف جزئى وأما هزيمتهم فكانت فى معظم الأحيان لتفرقهم ، ورغم بعض النجاحات الإسلامية التى كان بعضها محدود الآثار وبعضها الآخر ذا آثار عميقة ولكن لم يقدر لها أن تثمر لأن كل نشاط المسلمين اتخذ شكل الغارات والحملات المحدودة ولم يقدر له أن يتوحد ليشكل حركة تحرير كبرى للغزو الصليبي (٤٤)، ولذلك ظلت موازين القوى بين المسلمين والصليبيين دون تغير كبير ، فالصليبيون يحتلون أجزاء متفرقة من الأقاليم تفصل بينها إمارات ومدن إسلامية ، والمسلمون يشنون على الصليبيين الغارات من أن لآخر يهزمون أحيانا وينتصرون أحيانا أخرى ويحررون بعض المدن ليستردها الصليبيون مرة أخرى عندما تتغير علاقات التحالف بين المسلمين إلى التنازع والتناحر، ولن تتغير هذه الأوضاع إلا عندما تظهر قوة إسلامية تؤمن بأن الخطوة الأولى نحو طرد الصليبيين هى فى توحيد المسلمين، وستكون هذه القوى هى الأتابكية الزنكية .

٤٣ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، من ص ٣٩٩ - ٤٠٠ .

٤٤ - المرجع السابق ، من ص ٣٠٢ - ٣١١ .

المطلب الثاني : دولة المرابطين في المغرب الإسلامي تعيد توازن القوى الذي
أختل لصالح الصليبيين في المشرق الإسلامي :

رأينا كيف أن المرابطين عبروا من المغرب إلى الأندلس لنصرة ملوك الطوائف هناك
كأخوة في الدين، ورأينا أنهم أدركوا مدى تخاذل ملوك الطوائف وأن هذا يشكل خطراً
حقيقياً على سلامة أملاك المرابطين في المغرب لأن هذا يمثل ضعف خط دفاعهم
الشمال في الأندلس أمام مسيحي الشمال وأن هذا جعلهم يتخذون قرار العبور إلى
الأندلس مرة أخرى ولكن هذه المرة لا كأصدقاء ولكن كفاتحين لأراضي الأندلس
الإسلامية ، ولقد استطاعت جيوش المرابطين بالفعل في فترة لا تتجاوز عشرين عاماً
فيما بين ٤٨٣ - ٥٠٢ / ١٠٩٠ - ١١٠٩ أن تستولي تباعاً على دول ملوك الطوائف .
ولكن جهاد المرابطين في الأندلس لم يكن مقصوراً على مجابهتهم للوك الطوائف
وإنما هم خاضوا أيضاً صراعاً قوياً مبريراً مع الممالك الإسبانية المسيحية حيث لجأ
كثير من ملوك الطوائف إلى الاستعانة بالأسبان المسيحيين .

وكان من أشهر هذه الشخصيات الإسبانية المسيحية التي تردد اسمها في ملاحم
الصراع بين المسلمين والمسيحيين في أسبانيا في هذه الفترة هو السيد القمبيطور
الذي استعان به بنو هود في سرقسطة والذي استطاع أن يوقع بالمرابطين هزيمة
عسكرية تعتبر سقطة في تاريخهم وهي دخوله بلنسية واحتلالها عام ١٠٩٤ ، ولكن
اضطرار المرابطين بروح جهاد خالصة مخلصه كان الدافع الذي مكثهم من الصمود
ومن استرجاع بلنسية عام ١١٠٢ ، وبانتهاء المرابطين من أمر السيد القمبيطور، كان
عليهم أن يتفرغوا لملك قشتالة الفونسو السادس بطل حركة الاسترداد المسيحي والذي
ظل رغم هزيمتهم المذكورة له في الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م قائماً متحدياً . ولقد أوقع
المرابطون الهزيمة بالفونسو أكثر من مرة أثناء أنشغالهم بأمر السيد القمبيطور في
المشرق ، وكذا بعد القضاء عليه . ولقد هزم المرابطون قوات الفونسو السادس عام
٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ومرة أخرى عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م . (٤٥)

وبعد وفاة يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين في المغرب عام ٥٠٠ هـ /
١١٠٧ م كانت الأندلس قد خضعت كلها لحكم المرابطين المباشر، باستثناء سرقسطة
التي احتفظ بالسلطة فيها بنو هود بالاتفاق مع ابن تاشفين .

وهكذا ثبت يوسف بن تاشفين لواء الإسلام في الأندلس وأعاد لها وحدتها
الإسلامية بعد طول تمزق ثم أجهج حرب جهاد ضد الممالك الإسبانية المسيحية بعد أن

٤٥ - المرجع السابق ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

- السامرائي ، تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٧ وما بعدها .

كانت قد خبت جذوتها اثناء عصر ملوك الطوائف لتخاذلهم وأستعانتهم بالمسيحيين ضد بعضهم البعض، واستطاع من ثم أن يكسر المد الاستردادى الذى قادته قشتالة تحت حكم ملكها الفونسو السادس فأعاد الأندلس إلى وضع القوة مرة أخرى فى تعاملها مع أوروبا المسيحية (٤٦)

ولقد ظن الفونسو السادس أن الفرصة قد واثته بموت يوسف بن تاشفين للإيفال مرة أخرى فى أرض الأندلس الاسلامية فأخذ يتجراً على الحدود ولكنه أصطدم بعلى بن يوسف بن تاشفين الذى تولى بعد أبيه ولم يقل عنه درجة فى الحماسة للجهاد وسرعان ما انتقل على بن يوسف بن تاشفين من المغرب إلى أرض المواجهة فى الأندلس ليشعر العدو أنه قائم فى الميدان بجوار أخيه الذى ولاه أمرا الأندلس وكلفه بالغزو فيها، وسرعان ما كان الانتصار الباهر الذى لا يقبل عن انتصار الزلافة وذلك فى أقليم عام ٥٠١هـ / ١١٠٨م والتى أدت إلى انقسام القوات المسيحية وفقدان حركة الاسترداد المسيحى دفعتها لفترة بعد ذلك خاصة لوفاة الفونسو السادس غما وكما بعد هزيمة بعام واحد ١٢١٠م أقليم (٤٧)

وتمثلت الأهمية الكبرى لأنتصارات المرابطين فى الأندلس فى أنها زامنت مناخ الحروب الصليبية فى المشرق فى وقت كانت فيه الدولة السلجوقية فى المشرق قد تفككت بصورة لم تمكنها من المواجهة الحاسمة لهذا الخطر المسيحى الزاحف من أوروبا، وهكذا أعاد المرابطون فى الغرب التوازن إلى ميزان القوى الإسلامى / المسيحى الذى أختل فى المشرق ولو إلى حين (٤٨).

فالعقد التنازلى للمرابطين سرعان ما بدأ وذلك تحت وطأة الخطر الأسباني المسيحى مع انفجار مشكلات داخلية فى المغرب والأندلس الاسلامية فى ذات الوقت ثقلت على عاتق المرابطين وأضعفت قدراتهم على ضرب الخطر الأسباني أو تحجيمه، فبعد موت الفونسو السادس واهتزاز صفوف الأسبان المسيحية لفترة ما لبثوا أن وحدوا موقفهم مرة أخرى فاستأنفوا غزواتهم ضد المدن الاسلامية ، وكان هدفهم المحورى هو سرقسطة التى تركها يوسف بن تاشفين لحكم بنى هود وما لبثت أن وقعت سرقسطة فى يد الأسبان المسيحيين عام ٥١٢ دون أن تجدى حملات المرابطين المتوالية لاستعادة

٤٦ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٠٣.

- بيخون ، الدولة العربية فى اسبانيا ، ص ٢٨٠.

٤٧ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

- السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٧١.

٤٨ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٢٠٤.

المدينة وكان سقوط سرقسطة هو الفاتح لسلسلة أخرى من عمليات الاسترداد المسيحي التي نجحت في استعادة عدة مواقع ومدن هامة في شرق البلاد وجنوبها (٤٩)

ولم يتمكن المرابطون هذه المرة من ضرب الخطر الأسباني المسيحي واستعادة زمام الأمور في أيديهم كما حدث في معركة الزلاقة، ذلك أن المرابطين شغلوا بالثورات عليهم في الأندلس والتي اضطرت أولها وأخطرها في قرطبة عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م وكانت فاتحة لثورات مماثلة اضطرت بها الأندلس كلها في أواخر عهد المرابطين كنتيجة لشدتهم وخشونتهم وأخذهم بأساليب عنيفة في الحكم ، زامن هذا بدء ظهور حركة معارضة قوية للمرابطين في المغرب ذاتها بقيادة المهدي بن تومرت والذي سينجح بعد أعوام قليلة في تأسيس دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين (٥٠)

وهكذا بدأ ميزان القوى يختل مرة أخرى في المغرب ، كما كان مختلا في المشرق، وبدأت أوروبا المسيحية حركة مد قوية على العالم الإسلامي بصفتيه، الشرقية في شكل زحف صليبي ، والغربية في شكل حركة استرداد مسيحي بدأت تنشط مرة أخرى مستغلة أحوال الاضطراب والصراع الداخلي في صفوف المرابطين ، والسد المنيع الذي أستطاع أن ينقذ الأندلس الإسلامية في وقت كان سقوطها للشمال المسيحي أضحى أمرا مسلما به، ويظهر مرة أخرى - درس التاريخ واضحاً - وهو أن ما كان يكسبه المسلمون بتوحيدهم كانوا يفقدونه بتشرذمهم وأنهم كانوا يهزمون من الداخل قبل أن يهزموا من الخارج .

المبحث الثالث

من افتتاح عهد صلاح الدين إلى موته
٥٢٢ - ٥٨٩ هـ / ١١٢٨ - ١١٩٣ م

المطلب الأول : توحيد جبهتي مصر والشام وبداية التراجع الصليبي :

عجلة التاريخ تدور دائما ولا تتوقف أبدا والملوك العظام لابد راحلون بعد أن يؤدوا مهامهم التاريخية ، وهكذا بداية من عام ١١٣١ شهد المشرق الإسلامي موت معظم ملوك الإمارات الصليبية الكبار وخلفهم على عروشهم ولادة لعهودهم لم يكونوا على نفس قدر حنكتهم وشجاعتهم ، وفي ذات الوقت كان يبرز في الشام عصر عماد الدين زنكي

٤٩ - بيبسون ، الدولة امربية في اسبانيا ، ص ٢٨٦.

- محمد عبدالله منان ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس : القسم الاول (القاهرة : لجنة التأليف والنشر : ط ١ ، ١٩٦٤) ص ٢٧.

٥٠ - منان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٢٧ - ٢٨.

- السامرائي ، تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٧٣.

الذي جمع حكم الموصل والشام وتأهب لتوحيدهما مع مصر فأخذ المسرح في المنطقة يتهيا لعصر صلاح الدين الذي سينجح في تحقيق ما خاف منه الصليبيون دائما وحاولوا منعه وهو توحيد جبهتي مصر والشام والعراق ضدهم^(٥١)، ولقد هيات الفوضى في إمارة حلب وتصارع أمراء الصليبيين كل يريد ضمها اليه إلى استنجد أهلها بعماد الدين زنكي أتابك الموصل الذي أستجاب للدعوة لأنه آمن أن الطريق الوحيد لطرد الصليبيين لا يكون إلا بتوحيد القوى الإسلامية، وأمن أيضا وهو الأهم من ذلك أن استقراء خبرة التاريخ الإسلامي توضح أن هذه الوحدة لن تتحقق إلا إذا فرضت فرضا وبالقوة ، وكانت هذه هي المهمة التي نذر نفسه لتحقيقها فنشط لتوحيد القوى الإسلامية في العراق والشام بالسيف فاستولى في طريقه إلى حلب ، استجابة لدعوة الأهالي ، على حران ونصيبين ودخل حلب وبعدها أتجه إلى الاستيلاء على كل الشام ، ولم يصرفه جهده لتحقيق خطته تلك عن جهده في مقاومة الصليبيين ومحاربتهم بل سار نشاطه في الخطين متوازيا لم يوقفه لفترة إلا حروب الوراثة السلجوقية بعد وفاة السلطان محمود السلجوقي عام ١١٢١ وأنقسام الدولة بين أولاده وأشقائه وهي الحروب التي زج زنكي بنفسه فيها فانشغل عن الصرح الذي كان قد بدأ في بنائه فكاد يسقط تحت هجمات الصليبيين في حلب لولا أن انتهت حروب الوراثة وعاد يتفرغ لبيدان الشام مرة أخرى خاصة أنه أصلح علاقته مع الخليفة العباسي فعاد الاستيلاء على القلاع الصليبية ونجحت حركة مده بصورة أثارت قلق القوى الصليبية مما دفع الصليبيين والبيزنطيين إلى التحالف رغم العداء الذي كان مستعرا بينهما في ذلك الحين^(٥٢). ولكن ادراكا من زنكي للتفوق العددي لقوى المسيحية المتحالفة لجأ إلى شن حرب نفسية عليهم يخوفهم من بعضهم البعض ويثير الشكوك في نواياهم من وراء هذا الحلف ، ولقد وصلت مهارته حدا كبيرا في انجاح الخطة فأنفرد عقد التحالف بل وانقلب إلى عداء وخصومة فأنسحبت القوات البيزنطية واستأنف زنكي الجهاد ضد الصليبيين والاستيلاء على مواقع جديدة .^(٥٣)

ثم إنه سرعان ما عاود أيضا محاولات تحقيق مشروعه لتوحيد قوى المسلمين ، وأدرك أن دمشق هي العقبة الكؤود التي تقف في سبيل هذه الوحدة لتمسك حاكمها باستقلاله الذاتي ضاربا عرض الحائط بكل اعتبارات المصلحة الإسلامية العامة . ولقد حاول زنكي ضمها بكل الأساليب الدبلوماسية والعسكرية ففشل بل أحدثت محاولاته

٥١ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .

- السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٦٨ .

٥٢ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٤٢٢ - ٤٢٥ .

- السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٣١٢ - ٣١٥ .

٥٣ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

نتيجة عكسية عندما تحالف واليها المسلم مع أمير بيت المقدس المسيحي لدرء خطر زنكى المشترك فتعطلت إلى حين مشروعاته الوحشية^(٥٤)، ولكنه أستمّر قدما فى مشروعاته الجهادية ضد الصليبيين حتى كان أول نجاح باهر على الطريق باستعادة إمارة الرها عام ١١٤٤ وهى أول إمارة صليبية أنشئت فى المشرق مستقلا الخلافات بين أميرها والأمراء الصليبيين الآخرين حتى أنهم لم يستطيعوا التوحد وتكوين حلف ضده عندما حاصر الإمارة فسقطت وكان لسقوطها آثار عميقة، فمن جانب رفعت من معنويات المسلمين إلى درجة أن صوروا ذلك النصر فى قصائدهم على أنه فتح الفتوحات، وهى التى ألقت هيبة زنكى فى قلوب الصليبيين حتى أنهم باتوا يعتقدون عدم قدرتهم على مجابهته ، والأهم من هذا أنها أستنفرت المسيحيين فى أوروبا لأرسال حملة صليبية عام ١١٤٧ ايمانا منهم بأن الصليبيين فى المشرق فى حاجة إلى دعم عاجل^(٥٥)

وترجع أهمية هذه الحملة إلى دلالتها على أن المد الصليبي لم يكن قد أنتهى من أوروبا وأنها كانت مازالت بزعامتها المسيحية وشعبها بل وملوكها وراء هذا المشروع ومصريين على أنجاحه، ذلك أن هذه الحملة تعتبر أول حملة تتألف من بعض أكبر ملوك أوروبا وهما ملك فرنسا وأمبراطور المانيا^(٥٦). ثم إن هذه الحملة خرجت على المشرق فى وقت من أصعب الأوقات ، فكان عماد الدين قد قتل فجأة على يد أحد غلمانه فى العام السابق على خروجهم فأنقسم العراق والشام مرة أخرى وهب الصليبيون فى الشرق لأستغلال الفرصة لاستعادة ما كانوا قد فقدوه لزنى^(٥٧). ولكن هذه الحملة فشلت فشلا ذريعا فلقد لاقى السلاجقة الجيش الألمانى وهزموه لتوغله فى أرضهم بعد أن تركهم الدليل البيزنطى لخلاف معهم ثم لاقى نور الدين زنكى الجيش الفرنسى وهزمه .

ويعتبر العديد من المؤرخين فشل الحملة الصليبية الثانية تلك نقطة تحول فى تاريخ الصراع الإسلامى - المسيحى، فبالإضافة إلى أنها أدت إلى انحطاط هيبة الصليبيين فى الشام مما شجع القوى الإسلامية على الغارة بجرأة على الإمارات الصليبية، ثم إنها كانت المناسبة التى ظهر فيها نجم آخر من نجوم الجهاد الصليبي هو نور الدين محمود زنكى بن عماد الدين زنكى الذى أحيا مشروع أبيه لتوحيد الجبهة الإسلامية

٥٤ - المرجع السابق ، ص ٤٢٧ - ٤٤٠ .

-حسين احمد امين ، العرب الصليبية فى كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية

، ١٩٨٣) ص ٧٥ - ٨٠ ، ٥٥ - انظر التفاصيل فى عنان ، مواقف حاسمة ص ١١٩ - ١٢٠ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٤٤٠ - ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦ .

- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .

٥٦ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٤٤٦ - ٤٤٧ .

٥٧ - المرجع السابق ، ص ٤٤٣ .

ضد الصليبيين وهو المشروع الذى سيستكملة صلاح الدين فينجح فى التمهيد لإنهاء الحروب الصليبية^(٥٨). ولقد نجح نور الدين فى استغلال الظروف التى أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية فى توحيد الشام تحت قيادته هذه المرة على حساب حاكم دمشق ، ثم استأنف جهاده للصليبيين بنجاح مما شجع القوى الإسلامية الأخرى مثل سلاجقة الروم والأرتقة والتركمان على التقدم لمواجهة الصليبيين خاصة فى الرها وأنطاكية بل وتحالفوا أيضا فى جهودهم حتى أستطاع نور الدين زنكى أن يوحد بلاد الشام كلها تحت قيادته من الرها شمالا حتى حوران جنوبا فقامت دولة إسلامية واحدة مركزها دمشق، وكانت هذه هى الخطوة الأولى نحو تكوين الجبهة التى ستمتد من الفرات إلى النيل للتصدي بحق لهذا الخطر الصليبي^(٥٩).

فسرعان ما بدا الصراع بين الزنكيين والصليبيين على مصر بعد أن بدأت قوة الفاطميين تتدهور سريعا، فإدراك كلا القوتين أن القوة الفاطمية تحتضر وأن فراغ قوة هائل سيحدث فى الجنوب جعلهما يتسابقان لشغله، الزنكيون لأنهم يريدون توحيد الجبهة الإسلامية للوثوب على الصليبيين وطردهم ، والصليبيون لأنهم يريدون توسيع دولتهم بما يثبت أقدامهم فى المنطقة. ولقد أدرك الصليبيون أن الصراع على مصر هو صراع حياة أو موت ولما كانوا عالمين بقوة زنكى فأنهم لجأوا إلى التحالف مع البيزنطيين ليضيفوا إلى قوتهم ما يستطيعون به إسقاط نور الدين فتناسوا خلافاتهم الأبدية وحدث التحالف الخطير وتكونت حملة بيزنطية صليبية كبرى توجهت إلى حلب عم ١١٥٩ لانتزاعها من نور الدين محمود فوضعت الدولة الموحدة فى الشام على حافة الخطر وهددت كل مشروعات نور الدين محمود لتوحيد مصر والشام لطرد الصليبيين من الشرق^(٦٠).

ولقد أدى تهديد هذا التحالف البيزنطى الصليبي لمشروعات نور الدين زنكى إلى اتخاذ خطوة يصعب تقييمها إلا بوصفها من قبيل القرارات الصعبة المصيرية ، فلعلم نور الدين محمود بعداء البيزنطيين والروم السلاجقة ولتقديره أن معركته الأساسية هى ضد الصليبيين وليست ضد البيزنطيين فإنه وازن بين الإطاحة بمشروعاته على يد الحملة

٥٨ - المرجع السابق ، ص ٤٤٧ - ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ - المرجع السابق ، ص ٤٥٢ - ٤٥٤ .

- السامرائى ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

- عادل عبدالحافظ عثمان حمزه شحاتة ، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامى

٥٤٧ - ٦٤٨ هـ / ١١٥٢ - ١٢٥٠ م (القاهرة مكتبة مدبولى ، ١٩٨٩) ص ٦٢ - ٦٨ .

٦٠ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

- حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٨٢ - ١٨٧ .

- المطوى ، الحروب الصليبية ص ٧٢ - ٧٦ .

- شحاتة ، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية والشرق الإسلامى ، ص ٦٨ وما بعدها

الصليبية البيزنطية وبين اعتبارات الأخوة الإسلامية ، فأختار الخيار الأول وتفاهم مع
الأمبراطور البيزنطى على الهدنة وأطلق سراح الأسرى على أن يتحالف مع
الأمبراطور البيزنطى ضد السلاجقة فقبل الأمبراطور وأنسحب من الحلف الصليبي
فأوقفت الحملة وزال الخطر. ولكن من أعظم النتائج التى ترتبت على هذه الخطوة أن تم
استبعاد السلاجقة الروم من الصراع الدائر فى المشرق ذلك أن الأمبراطور البيزنطى
سرعان ما قام بحملة عام ١١٦٠ بمعاونة نور الدين زنكى ضد السلاجقة فانهزم قلعج
أرسلان الذى اضطر إلى الذهاب بنفسه إلى القسطنطينية ليعلن ولاءه وتبعيته
للأمبراطور البيزنطى وذلك قبل أن ينقضى نصف قرن على أنتصار السلاجقة الساحق
على البيزنطيين فى موقعة مانزكرت . (٦١)

أما النتائج الأخرى الأيجابية لهذا الحلف الزنكى البيزنطى فهي :- (٦٢)

- ١ - أنها أنهت التحالف البيزنطى الصليبي وكان على الصليبيين أن يعتمدوا على
أنفسهم أو مساعدات أوروبا فى صراعهم مع الزنكيين .
- ٢ - أنها حفظت وحدة الشام والتى تعد الأساس الهام لأى وحدة بينها وبين مصر .
- ٣ - أنها أعادت التوازن بين الصليبيين والزنكيين بخروج البيزنطيين من الساحة ومن ثم
عاد النزاع بينهما على مصر متوازنا مرة أخرى .

وفى هذه الموجة الثانية من الصراع الزنكى الصليبي على مصر ظهر اسم صلاح
الدين لأول مرة عندما أضحجه عمه أسد الدين شيركوه نائب نور الدين زنكى على
دمشق عام ١١٦٤ ، ولقد بدت قوة الزنكيين أثناء هذه الحملة أكبر من قوة الصليبيين فى
عين الفاطميين فخافوا من ذلك الخطر على وجودهم وفضلوا بالطبع الجانب الذى يمثل
خطرا أقل حتى يمكنهم مجابهته فى ظل ظروف تدهورهم فما كان منهم إلا أن
أستدعوا الصليبيين للوقوف ضد الزنكيين ولكن الأخيرين هزمهم وهزموا الفاطميين
كذلك وإن لم يمكنوا لأنفسهم هذه المرة من البقاء فى مصر ولكنهم قد خبروا مواقعها
ومهدوا بذلك لحملة ثانية عليها عام ١١٦٧ (٦٣) .

وهكذا بدأ طور من تبادل الحملات النورية والصليبية على مصر والتى كان دائما ما
يطلب الفاطميون فيها من الصليبيين المعونة ضد النوريين وهو ما وصل إلى حد عرض
المال عليهم لإنجاز مهامهم فى درء خطر العدو "المسلم" ، حتى كان أن ظهرت شراسة
وضراوة العدو الصليبي فى حملاته على مصر عام ١١٦٨م فأرسل الخليفة الفاطمى
يستنجد بنور الدين زنكى الذى سرعان ما لبى فتوحد الجيش الشامى والمصرى فى

٦١ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٤٥٨ .

٦٢ - المرجع السابق ، ص ٤٥٨ - ٤٥٩ .

٦٣ - المرجع السابق ، ص ٤٥٩ - ٤٦٠ .

مواجهة الصليبيين ودحروهم عام ١١٦٩ فقلد الخليفة الفاطمي شيركوه الوزارة ولكنه سرعان ما مات فتولى الوزارة الفاطمية بعده صلاح الدين الأيوبي فوضعت بذلك اللبنة الأولى في صرح الوحدة بين مصر والشام وبعد أن كانت مصر تكاد أن تدخل في درك النسيان مع الفاطميين المتهاككين بدأت تستعد لتكون مركز الجهاد الإسلامي في الشرق ضد الصليبيين . (٦٤)

وموت نور الدين محمود كان إيذانا بانتقال مركز الجهاد ضد الصليبيين من الدولة الزنكية في الشام إلى الدولة الأيوبية في مصر ذلك أن أولاد زنكي تنافسوا على الخلافة فانقسمت دولتهم في حين بقيت مصر موحدة تحت حكم صلاح الدين ، ولما طالب صلاح الدين بحقه في الولاية على السلطان القاصر شن عليه الزنكيون حملة عام ١١٧٥ انتصر فيها وقرر بعدها اعلان عدم تبعيته للإمارة الزنكية وتوجه بطلب الشرعية من الخليفة العباسي فمنحها له، وهذا ظهر مرة أخرى النمط الإسلامي المعتاد من التحالف مع قوى غير اسلامية لتحقيق مصالح خاصة، ولكن الوضع هنا كان في غاية الأيلام فالطرف الإسلامي الذي طلب محالفة الصليبيين كانوا أحفاد نور الدين وعماد الدين زنكي المناضلين ضد الصليبيين أما الطرف الإسلامي المستهدف فهو صلاح الدين الأيوبي البطل الناهض لمجاهدة الصليبيين، ولكن صلاح الدين استطاع هزيمتهم وعاد إلى الشام ونجح في توحيدها وضمها من ثم إلى مصر فأمد سلطته على جبهة واحدة ممتدة من النيل إلى الفرات وبذلك بدأ مرحلة مد كبرى وجهاد أعظم ضد الصليبيين^(٦٥) تخللتها فترات هدنة كان يحتاجها لتنظيم بيته من الداخل^(٦٦)، ولكن أثناء فترة من فترات الهدنة تلك هاجم الصليبيون قافلة حجاج للمسلمين عام ١١٨٦ فما كان من صلاح الدين إلا أن أستنفذ المسلمين للجهاد من جميع بلاد الإسلام وحمل على الصليبيين في موقعة حطين ١١٨٧ التي أنتصر فيها انتصارا باهرا أعقبه سقوط عكا له واجتياحه للمدن والمعازل الصليبية ثم توج هذا بدخوله بيت المقدس عام ١١٨٧ بعد تسعين عاما من بدء أول حملة صليبية على المشرق . (٦٧)

٦٤ - المرجع السابق ، ص ٤٦٦ - ٤٧٢ .

- حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٨٩ - ١٩٦ .

- السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

٦٥ - زيان ، الصراع السياسي والعسكري زمن العرب الصليبية ، ص ٧٨ - ٨٢ .

- رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٤٨٢ - ٤٨٤ .

- حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٩٦ - ١٩٨ ، رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٤٨٦ - ٤٨٨ .

- السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

٦٧ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٤٩٠ - ٤٩٥ .

- السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

وإذا كان إسترجاع المسلمين لبيت المقدس علامة هامة على طريق النضال الإسلامى لاجراج الصليبيين إلا أنه لم يكن نهاية المطاف، بل على العكس من ذلك فلقد أدى هذا النجاح الإسلامى إلى بداية مد صليبي جديد عندما استتفر سقوط بيت المقدس تكوين حملة صليبية ثالثة عام ١١٨٩، ولقد أوقف الملوك فى أوروبا صراعاتهم وتجهزت حملة من أهم الحملات الصليبية على المشرق الإسلامى سواء من حيث عدد المشاركين فيها أو من حيث نوعيتهم حيث ضمت ملوك إنجلترا والمانيا وفرنسا، ولقد نجحت هذه الحملة بالفعل فى إسترجاع عكا عام ١١٩١ ولكنهم أخفقوا فى جميع محاولاتهم لاسترداد القدس، وأنتهت هذه الحملة بعقد صلح الرملة عام ١١٩٢ الذى يقضى بترك المدن الساحلية للصليبيين من صور إلى يافا على أن تبقى القدس مع المسلمين مع السماح للحجاج المسيحيين بدخولها بشرط عدم قدومهم من عكا على أن تبقى عسقلان منزوعة السلاح بين الطرفين (٦٨)

وهكذا على الرغم من قوة الحملة الصليبية الثالثة فإنها فشلت فى استرداد بيت المقدس للعالم المسيحى، ورحل الملوك عن المشرق وفى ذهنهم فكرة واحدة وهى أن الطريق إلى استرداد القدس هو بالاستيلاء على مصر، ولكن قوة صلاح الدين منعتهم من تنفيذ هذا المشروع أثناء الحملة الثالثة على الشرق ولكن سرعان ما مات صلاح الدين بعد إبحارهم عام ١١٩٣، وأدى موته إلى ابتعاث هذا المشروع من جديد فحاول الصليبيون تنفيذ احتلال مصر (٦٩)

المطلب الثانى : صعود الموحدين وتصديهم للمد المسيحى فى الأندلس :

رأينا كيف بدأت الأندلس تنتفض على المرابطين حوالى عام ٥١٥ / ١١٢١ فى أوائل عهد على بن يوسف عندما ثارت قرطبة على خشونتهم وعنفهم، ويرى بعض المؤرخين أن ثورة أهل قرطبة لم تكن من الخطورة بمكان إذا ما قورنت بما أعقبتها من ثورات ذلك أنها لم تعد كونها محاولة للتنفيس ضد حكم المرابطين المتزمت المرهق، ولكن سرعان ما تطورت هذه الثورات لتعبر عن روح انفصالية أندلسية ضد حكم "الفاطحين" المرابطين فانفجرت الثورات فى غرب الأندلس عام ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م فى أكثر من مدينة فى وقت واحد، ثم ثارت قرطبة مرة أخرى فى نفس العام، وفى نفس الوقت أنتفض شرق الأندلس بثورات متوالية أخرجته تماما من يد المرابطين ولم يبق لهم إلا بعض قواعد فى وسط الأندلس وغربه . (٧٠)

٦٨ - رمضان، الصراع بين العرب وأوروبا، ص ٤٩٨ - ٥٠٤.

- السامرائى، تاريخ الدولة العربية، ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

٦٩ - رمضان، الصراع بين العرب وأوروبا، ص ٥٠٤ - ٥٠٦.

٧٠ - السامرائى، تاريخ المغرب العربى، ص ٢٧٢ - ٢٨١.

- عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص ٢٠.

والأمر الخطير فى هذه الثورات أن قوادها المحليين لم يتورعوا كما كان يحدث وقت ملوك الطوائف - عن الاستعانة بمسيحي الشمال لتحقيق مآربهم الانفصالية كما كان ملوك ممالك الشمال المسيحي يلبون طلبات ملوك الطوائف فإنهم لبوا نداء الانفصاليين هذه المرة أيضا وربما بحماس أكبر، ليس فقط لأنهم وجدوا فى هذا فرصة ذهبية لضرب وتفريق مسلمى الأسبان واستنزاف قواهم وانتزاع ما يقدرون عليه من أراضيهم ، ولكن أيضا - وهو الأهم - لأنهم وجدوا فى هذا فرصة للقضاء على المرابطين الذين قوضوا مشاريعهم فى ضم الأندلس الأسبانية إلى الممالك المسيحية بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هذا الهدف (٧١)

ويؤكد بعض المحللين أن الأندلس إنما كانت هى الأتون الذى أحترق فيه المرابطون ذلك أن انشغالهم بأمر ملوك الطوائف أولا ثم حركة الاسترداد المسيحي ثانيا ثم الثورات على حكمهم هناك، ثالثا شغلهم عن قاعدتهم الأساسية فى المغرب . وجاء ذلك على حساب استقرار حكمهم هناك فلم ينتبهوا إلى خطورة حركة المعارضة القوية التى ظهرت بها وحاولت الاستيلاء على مراكش بقيادة المهدي بن تومرت وما لبثت أن دخلت مراكش بالفعل بعد وفاة على بن يوسف بسنوات قليلة وأسست دولة الموحدين عام ٥٤١ هـ / ١١٤٧ فورثوا بذلك الدور المرابطى فى المغرب والأندلس . (٧٢)

وبعد عملية أنتشار سياسى وعسكرى للموحدين فى المغرب الأوسط والأدنى ، كان من الطبيعى أن يتوجه الموحدون بأنظارهم إلى الأندلس، خاصة وأن ثورات المتمردين بها والتى تداخلت وتشابكت وتزامنت مع تحركات الأسبان المسيحيين، وكانت قد أفقدت المرابطين هيبتهم هناك خاصة بعد ثورة قرطبة عام ٥٣٩ هـ وما تلاها من ثورات ثم تمكن المسيحيون القشتاليون من دخول قرطبة ذاتها . (٧٣)

ولقد أعد الموحدون عدتهم ولم يترددوا فى الدخول إلى الأندلس حيث أشرف حاكمهم عبدالمؤمن على بعض العمليات العسكرية بنفسه خاصة فى الجهات الغربية التى كانت مهددة بقيام مملكة مسيحية مستقلة فيها ، ولكن موت عبدالمؤمن عام ٥٨٨ هـ عطل هذه الجهود لفترة استفحل فيها خطر المسيحيين هناك حيث أستفاد الفونسو السابع من حالة الاضطراب وأستولى على عدة ثغور هامة كما هدد بطليموس، وفى ذات الوقت كانت هناك حركة تمرد محلية فى شرق الأندلس بقيادة ابن مرديش بدأت

٧١ - عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ٣١.

٧٢ - بيضون ، الدولة العربية فى أسبانيا ، ص ٢٨١.

- السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٨٤.

٧٣ - بيضون ، الدولة العربية فى أسبانيا ص ٢٨٤.

منذ عام ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ مع تأسيس الموحدين للحكم في المغرب واستطاعت أن تبسط سلطانها على سائر المدن الشرقية في الأندلس من بلنسية إلى قرطاجة . (٧٤)

وأمام هذا الخطر المزدوج قرر الخليفة أبو يعقوب يوسف أن يعبر إلى الأندلس مستخدماً القوة التي أعدها سلفه ومعلنًا بدء جهاد حقيقي في هذه البلاد عام ٥٦٦ هـ ، وكانت خطوته الطبيعية الأولى هي أن يقضى على التمرد المحلي الخطير لابن مرديش ونجح في ذلك عام ٥٦٧ هـ / ١١٧٢ واستولى الموحدون على مملكة مرسيية ثم تفرغوا للجهاد ضد الملوك الأسبان فاستولوا على قرطبة وأشبيلية واتخذوا من الأخيرة عاصمة لهم وقاعدة للانطلاق في الأراضي الأسبانية لاسترداد ما سقط للملوك المسيحيين في أواخر عهد المرابطين ودار الصراع بين الجانبين سجالاً وأثبت كل منهم للآخر أنه خصم قوى ، وبرز في هذا الصراع مملكة لشبونة (البرتغال) خاصة والتي كانت تضغط بخطورة في هذه المرحلة، ويكفي أن نعلم أن الخليفة ذاته سقط صريعاً في معركة معهم عام ٥٨٠ هـ ليتولى بعدها ابنه يعقوب المنصور والذي كان معاصراً لصلاح الدين الأيوبي في وقت كانت فيه المعارك مع الصليبيين على أشدها في المشرق .

ولقد افتتح يعقوب المنصور عهده في الأندلس بحرب انتقامية ضد الممالك المسيحية هناك فاستعاد شنترين وشلب عام ٥٨٦ هـ وأغار على لشبونة ذاتها وضرب وغنم مما دفعهم إلى طلب الصلح معه لمدة خمس سنوات (٧٥)

هذا وفي الوقت الذي كان فيه صلاح الدين الأيوبي يوحّد الجبهة في المشرق ضد الصليبيين كان الموحدون يقومون بنفس الشيء في المغرب فيقضون على الثورات المحلية ليوحّدوا الأندلس في حركة جهاد كبرى ضد الممالك المسيحية .

المبحث الرابع

مراكز جديدة للصمود الإسلامي علي الساحة الدولية

من ٥٨٩ هـ - ٦٥٦ هـ / ١١٩٣ م - ١٢٥٨ م

المطلب الأول : انتقال مركز الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين إلى مصر وتحول اهتمامهم إليها :

يعتبر موت صلاح الدين نقطة تحول رئيسية في تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي ، ذلك أن موته - كما رأينا - سيشجع الصليبيين على تنفيذ مشروعهم لغزو

٧٤ - - عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ص ٢١ - ٢٢ .

- السامرائي ، تاريخ المغرب العربي ، ص ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

٧٥ - بيضون ، الدولة العربية في أسبانيا ، ص ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

مصر والاستيلاء عليها حتى يحرموا جبهة الشام من مددها وبذلك يمكنوا لأنفسهم في المنطقة ، ولقد شجعهم تفكك دولة صلاح الدين بعد موته نتيجة وصيته بتقسيم ملكه بين أولاده وأخوته وبنى عمومته على التقدم لتنفيذ هذا المشروع، فلقد امتلأت السنوات التي تلت وفاة صلاح الدين بالحروب الداخلية ولكن الصليبيين لم يتحركوا سريعا أثناء فترة الاضطرابات تلك، فهم على العكس لم يبدأوا في التحرك إلا عندما نجح أخوه العادل في توحيد الدولة مرة أخرى عام ١٢٠٠، فكان ذلك إيذانا ببدء فترة قوة وازدهار للدولة الأيوبية الخطيرة على الوجود لصليبي، فكان الأثر المباشر لتوحيد الدولة الأيوبية هو تجهيز حملة صليبية جديدة حيث وضع لأوروبا أن مصر سوف تتحول من جديد إلى مركز خطر يهدد إمارات عكا وأنطاكية وطرابلس فبات الاستيلاء عليها ضرورة حربية^(٧٦) .

وتكونت الحملة الصليبية الرابعة وخرجت إلى المشرق ولكن لظروف لاداعي التفصيل فيها فإنها أتجهت إلى القسطنطينية ونجحت في احتلالها واستمر الصليبيون هناك خمسين عاما ابتداء من عام ١٢٠٤، ويتضح مرة أخرى من مسار هذا الحملة أن الأحداث الدينية لم تكن هي دائما المحرك لكل من يخرجون في هذه الحملات الصليبية وإنما المكاسب الدنيوية، فعندما نجحوا في تحقيق مكسب لهم فإنهم نسوا الغرض الذي خرجوا من أجله وهو القضاء على قوة الدولة الأيوبية في مصر لحماية انجازات الصليبيين وإمارتهم في الشام^(٧٧) .

ولكن الحملة الصليبية الخامسة التي وصلت إلى عكا ١٢١٨ توجهت إلى مصر بالفعل رغم الهدنة المنعقدة في ذلك الوقت بين السلطان الأيوبي وأمير عكا ، ولقد بوغت السلطان العادل بهذا الهجوم فسارت الأمور في صف الصليبيين وحققوا انتصارات ودخلوا دمياط وحاصروها، وهنا كان تقدير العادل للموقف مرة أخرى بعقلية السياسي فقدر أن ضياع مصر يترتب عليه ضياع فلسطين بالتأكيد فعرض على الصليبيين التنازل لهم عن فلسطين بما فيها القدس ذاتها مقابل جلائهم عن مصر وفي ذهنه أن الاحتفاظ بمركز القوة الإسلامية الرئيسي في الشرق - نعى مصر - سوف يتيح الفرصة حتما في المستقبل لاستعادة فلسطين ، ولكن يبدو أن الصليبيين أدركوا ما وراء هذا التنازل فرفضوه، ودار القتال مرة أخرى وبدأ يظهر المسلمون فتم التفاوض على الهدنة ثمان سنوات فجلا الصليبيون عن مصر عام ١٢٢١ م^(٧٨) .

٧٦ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .

٧٧ - المرجع السابق ، ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .

٧٨ - المرجع السابق ، ص ٥٠٨ - ٥١٢ .

- السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٤٧ .

ولكن حدث بعد ذلك ما لم يكن في الحسبان حيث خرجت حملة صليبية سادسة عام ١٢٢٨ قاصدة مصر كان على رأسها الامبراطور فردريك الثانى امبراطور ألمانيا - الدولة الرومانية المقدسة - ولكن قائدها فاوض السلطان العادل على نفس الشروط التى كان قد عرضها قبلا فتم التوصل إلى عقد اتفاق دون وقوع قتال مؤداه أن يسلم المسلمون القدس وبيت لحم للصليبيين على أن تبقى قرى بيت المقدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة للمسلمين مقابل هدنة مدتها عشر سنوات يتم فيها التعهد بمنع أى حملة صليبية على السواحل المصرية والشامية . ولقد أثارت هذه المعاهدة سخط المسلمين وأستثارت عليه لعنات الفقهاء ^(٧٩)، ولم يجن السلطان العادل شيئا من جراء هذه الهدنة اذا كان قد قصد بها أن يقوى مصر خلال فترة العشر سنوات فما أن مات عام ١٢٣٩ حتى انفرط عقد الدولة الأيوبية مرة أخرى فى فترة من أخطر الفترات حيث كانت الهدنة تقارب من الانتهاء وكانت البابوية تتقرب انتهائها لأرسال حملة جديدة إلى المشرق وهى الحملة السابعة التى تكونت بالفعل عام ١٢٣٩ ونزلت عكا فى وقت بلغ فيه الصراع بين ملوك البيت الأيوبي أشده، ورغم هذا فقد فشلت الحملة فشلا ذريعا حيث اختلف قوادها فى كل شىء بدءاً من الوجهة التى يتجهون إليها إلى الخطوات التكتيكية فى المعارك. ^(٨٠)

وفى ظل الصراع داخل البيت الأيوبي - أرقى البيوتات الحاكمة فى ذلك الوقت - بدأت تظهر الأنماط العجيبة للتحالفات التى يجريها المسلمون والتى رأيناها على طول تاريخهم تهزمهم بأكثر مما يهزمهم أعداؤهم، فتكون حلف اسلامى صليبي عام ١٢٤٣ كان على جانبه الإسلامى أصحاب دمشق والكرك وحمص ضد الصالح أيوب على الجانب الآخر، وفى مقابل موافقة الصليبيين على معاونة هؤلاء المسلمين ضد الصالح أيوب تنازل صاحب دمشق لهم عن قبة الصخرة والمسجد الأقصى حتى تخلص لهم تماما، فما كان من الصالح أيوب ردا على هذا الحلف إلا أن بعث بجيش نجح فى استرداد القدس عام ١٢٤٤. ^(٨١)

وكان استرداد القدس مرة أخرى للمسلمين نقطة البداية فى مرحلة مد أيوبى جديد استطاع بفضل الصالح أيوب أن يسترد العديد من الإمارات الصليبية الهامة للمسلمين، ولقد كان بسبب هذه النجاحات، وأهمها استرداد بيت المقدس ، أن قررت أوروبا إرسال حملة صليبية جديدة وجهتها إلى مصر فى محاولة لتنفيذ المشروع الذى آمنوا به بشدة ولم ينجحوا فى تحقيقه حتى ذلك الوقت رغم محاولاتهم المتعددة منذ

٧٩ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٥١٤ - ٥١٥ .

- شحاتة ، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية والشرق الاسلامى ، ص ص ٢٨١ - ٢٩٥ .

٨٠ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص ص ٥١٥ - ٥١٦ .

٨١ - المرجع السابق ، ص ٥١٦ .

وفاة صلاح الدين وهو الاستيلاء على مصر للتمكين للوجود الصليبي في الشام فخرجت هذه الحملة من أوروبا عام ١٢٤٩ ووصلت مصر بالفعل وحقت بعض النجاحات بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع الذي قاد الحملة بنفسه ولكن الهزيمة لحقت به في النهاية عام ١٢٥٠ فخرج من مصر بعد أحد عشر شهرا من دخولها ، ومن أهم نتائج هذه الحملة أنها أظهرت على الجانب الإسلامي قوة فرقة المماليك البحرية التي قادت جانبا هاما من الصراع مع الصليبيين في مصر .

ومع نهاية هذه الحملة كان المماليك البحرية يثبتون أقدامهم في مصر لقبداً صفحة جديدة في الصراع مع أوروبا يضحى الطرف الإسلامي الأساسي فيها هو المماليك^(٨٢).

ولقد ظهرت قوة المماليك البحرية أثناء الحملة الصليبية الأخيرة على مصر عندما مات الملك الصالح أيوب أثناء الحملة فحملوا هم عبء إنقاذ المنصورة ومصر من خطر الصليبيين، ولما شعروا أن ابن الصالح أيوب - توران شاه سيقرب لهم ظهر المجن بسبب خوفه من قوتهم الصاعدة قتلوه وكان هذا هو البداية العملية لدولة المماليك التي كانت تثبت أقدامها في مصر كقوة كبرى في الوقت الذي كانت تظهر فيه قوة أخرى عاتية من الشرق لتهدد العالم الإسلامي كله بصورة لم تعصف به من قبل حتى على مدار الحروب الصليبية كلها وهذه هي قوة قبائل المغول .^(٨٣)

ولقد بدأ ظهور هذه القوة الحربية الهائلة حين استولى جنكيز خان على الصين بين الأعوام ١٢١٠ و ١٢١٦ ثم أخضع التركستان الشرقية ثم أترك خوارزم عام ١٢٢٠ ، وبانتصاف القرن الثالث عشر كانوا قد استولوا على فارس ومعظم جنوب روسيا وأطراف شرق أوروبا ، ولقد قدر لهذه القوة أن تهدد بلاد العراق والشام ومصر صبيحة مغادرة حملة لويس التاسع لمصر عام ١٢٥٠ حيث أنقسمت مصر والشام في ذلك الوقت بين قوتين متنازعتين هما قوة المماليك في مصر وقوة الأيوبيين في الشام . وفي الوقت الذي أستقر فيه الأمر المماليك كان خطر المغول يقترب من مصر بعد أن استولوا على العراق وزحفوا على بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية بها عام ١٢٥٨ وكانت الشام ومصر هي المحطة التالية في طريقهم لاجتياح الشرق كله ووقع عبء مواجهتهم على المماليك الذين كان عليهم أيضا مواجهة خطر الصليبيين الذي استمر في الشرق حتى عام ١٢٩١ خاصة مع ظهور مشاريع لإجراء تحالف بين الصليبيين والمغول .^(٨٤)

٨٢ - المرجع السابق ، من ص ٥١٧ - ٥٢٢ ، ٥٢٤ .

- السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، من ٢٤٩ .

٨٣ - رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، من ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

٨٤ - المرجع السابق ، من ص ٥٢٤ - ٥٢٦ .

- السامرائي ، تاريخ الدولة العربية ، من ص ٢٥٢ - ٣٦٣ .

- شاكر ، التاريخ الإسلامي : الدولة العباسية ، ج ٢ ، من ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

- مصطفى طه بدر ، مجلة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة الإسلامية من بغداد على أيدي المغول (الجيزة : مطبعة

المكتب الثقافي الدولي) ، من ص ٨٧ - ٨٨ .

- محمود إبراهيم شلبية ، علاقات المغول بسلطة المماليك في مصر والشام رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة

القاهرة - قسم التاريخ - ١٩٧٩ ، من ص ٤٧ - ٤٨ .

وبدأ بهذا طور جديد من أطوار الصراع الدولى بين القوى الاسلاميه والقوى غير الاسلاميه، حيث ستشكل خريطة جديدة للقوى الدوليه باختفاء أطراف وظهور أطراف جدد فظهر الممالك على الجانب الإسلامى واختفى الأيوبيون والعباسيون - وإن كانت قد قامت لهم خلافة صورية فى مصر - ظهر المفلول إلى جوار الصليبيين على الجانب غير الإسلامى وثورات الدولة البيزنطية ، ومع تشكل خريطة جديدة للقوى كان لابد أن تتشكل خريطة جديدة لموازن القوى تقوم على شبكة تحالفات جديدة ايضا، وهذا موضع البحث فى الباب الثالث .

المطلب الثانى : سقوط الأندلس أمام حركة الاسترداد المسيحى وصمود مملكة غرناطة :

لم يستقم الأمر للموحدين فى الأندلس أكثر من نصف قرن من الزمان، حيث سرعان ما بدأوا ينشغلون بنفس الخطرين اللذين حاقا بالمرابطين من قبلهم ، والثورات المحلية ثم خطر الاسترداد المسيحى الذى كان ينشط خاصة باستغلال فترات الاضطراب الداخلى تلك، وكان من أخطر حركات العصيان المحلية التى واجهها الموحدون حركة بنى غانية ، ورغم أن هذه الحركة ظهرت فى افريقية - وليس فى الأندلس - إلا أنها كانت من الخطورة بمكان بحيث اقتضت منهم أفدح الجهود لمواجهة حيث كادت تقوض ملكهم أكثر من مرة مما شغلهم عن كثير من أخطار مسيحي الشمال وتعدياتهم^(٨٥) .

ورغم هذا فإن خطر هذه الحركة على شدته لا يمكن مقارنته بالخطر الذى أضحت تمثله حركة الاسترداد المسيحى فى هذه الفترة حيث دخلت المواجهة بين الموحدين ومسيحي ممالك أسبانيا الشمالية فى هذه الفترة مرحلة خطيرة بإلباس البابا حركة الاسترداد المسيحى فى اسبانيا ثوبا دينيا واضحا جعلها أقرب إلى كونها حركة صليبية أخرى، بل فلنقل أنها أضحت تمثل الجناح الغربى للحركة الصليبية فى الشرق ولقد أدرك هذه الحقيقة المؤرخ المعاصر لها ابن الأثير والذى قال إن أول ما ظهرت هذه الحركة ظهرت فى الأندلس ثم امتدت إلى صقلية ثم إلى بلاد الشام . إنها حركة واحدة جاءت نتاجا لصحوة أوروبا .

كنا قد رأينا فى المبحث السابق كيف أن يعقوب المنصور الخليفة الموحدى (٥٨٠ هـ - ٥٩٥ هـ) قد استهل عهده بحركة تصدى قوية للممالك المسيحية أجبرتهم على توقيع صلح معه عام ٥٨٦ مدته خمس سنوات، ولكن سرعان ما نقض المسيحيون هذا الصلح عام

٨٥ - عنان ، عصر الموحدين والمرابطين ص ٢٢ .

- السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ص ٢٠٢ - ٢٠٨ .

٥٩١ مما دفع الموحدين إلى دخول الأندلس مرة أخرى لبدءوا مرحلة صراع كبرى توجت بانتصار باهر للموحدين على الفونسو التاسع ملك قشتالة فى معركة الأرك عام ١٩٥، ويعتبر المؤرخون معركة الأرك هذه زلافة أخرى خاصة أنها جاءت بعد فترة طويلة من التخاذل والإنهزامية، ولكن هذه المعركة كما كان وقعها على المسلمين فإن وقعها كان أقوى على ملوك الأسبان المسيحيين والأهم من ذلك على البابوية التى كانت قد نجحت فى تلك الفترة فى دفع الحملات الصليبية إلى المشرق وكانت - كما ذكرنا - قد أمرت ملوك الأسبان بعدم المشاركة فى هذه الحملات على الشرق لاستكمال حركة الاسترداد المسيحى للبوابة الغربية للعالم المسيحى. (٨٦)

وهكذا بدأت البابوية حملة تعبئة واسعة للقوى المسيحية فى أوروبا ضد مسلمى الأندلس، واستطاع ملوك اسبانيا المسيحية أن يتجاوزوا خلافاتهم التى نشبت بشدة فى أعقاب معركة الأرك تحت ضغط البابوية، وهكذا استنهض الخصوم المسيحيين المتنافرين تحت ضغط الخطر الإسمى للقيام بغزوة حاسمة على الأندلس الإسلامية، وكان الخليفة المنصور قد توفى عام ٥٩٥ ليرك لابنه محمد الناصر (٥٩٥ - ٦١٠هـ) مواجهة أمر هذا الخطر الاستردادى الشديد.

وهكذا وقعت المواجهة بين جيوش الأسبان المسيحيين الذين وحدهم خطر المد الإسلامى المشترك والذي دعم من قوتهم آلاف من المتطوعين الأوروبيين جندتهم البابوية لمساندة الجيش الأسباني وبين جيش الموحدين الذى مزقه الصراع بين الجنود المغاربة والأندلسيين والذي كبل قدراته الملل من طول المواجهة وبرد الشتاء، وكانت معركة حصن العقاب عام ٦٠٩هـ / ١٢١٢م التى انتهت بهزيمة قاسية للناصر وقواته. (٨٧)

وتعتبر هزيمة حصن العقاب نقطة تحول خطيرة فى موازين القوى العسكرية والسياسية فى الأندلس لصالح الممالك المسيحية لم يمكن أبدا للمسلمين هناك تجاوزها وتعديل الموازين لصالحهم مرة ثانية، فهذه الهزيمة كانت بداية النهاية ليس لدولة الموحدين فى ذاتها ولكن للوجود الإسلامى فى الأندلس، فلقد أدت هذه الهزيمة إلى بروز الخطرين المحلى الإسلامى والأسباني المسيحى مرة أخرى متزامنين وبأقصى درجة من القوة والمد، فبواكر الثورة داخل الأندلس تحركت متجراً بحكم وهنت دعائمه، وكان موطن هذه الثورة الجديدة هو شرق الأندلس وقادتها زعيمان ينتميان إلى بيتين

٨٦ - بيضون، الدولة العربية فى أسبانيا ص ٢٨٥.

- السامرائى، تاريخ المغرب العربى، ص ٢١٤ - ٢١٦.

٨٧ - بيضون، الدولة العربية فى أسبانيا، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

- عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص ٢٢.

- السامرائى، تاريخ المغرب العربى ص ٢١٦.

معروفين بتاريخهما التمردى فى الأندلس هما مردنيش وهود فتار زيان بن مردنيش فى بلنسية .

أما دعوة أبى عبدالله محمد بن يوسف بن هود فاجتاحت مرسية والمرية وغرناطة ومالقة (٨٨) .

وخلال تلك الأحداث المضطربة استطالت الممالك المسيحية أيضا وبدأت تضغط على مختلف نواحي الأندلس يحفزها نصرها فى حصن العقاب لافتح المدن الإسلامية . وفى غضون أقل من ربع قرن على هزيمة حصن العقاب كانت المدن الأندلسية المسلمة تتساقط الواحدة تلو الأخرى تحت وطأة موجة ضارية من الاسترداد المسيحي قادها بصورة خاصة ملكا ليون وقشتالة اللذين توخدا فى جبهة قوية متماسكة، فسقطت ماردة وبطليموس وغيرها عام ٦٢٧ ثم قرطبة عاصمة الخلافة الأموية عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦م ثم اشبيلية عاصمة الموحدين عام ١٢٤٤م بعد أن رفض ابن هود نجدها وأنشغل عنها بتوطيد سلطانه هو الانفصالي فى جنوب الأندلس (٨٩) ولتظهر مرة أخرى وبصورة محزنة روح الانفصالية وفقدان الشعور بالمصلحة العامة للمسلمين وافتقاد مشاعر النصر بينهم ، وهى الأسباب التى علمنا التاريخ أنها طالما أدت فى النهاية إلى ضياع الجميع لانعدام ادراكهم أنهم جميعا فى مركب واحدة وهو الدرس الذى كان يدركه الجانب المسيحي فى معظم الأحيان عند مواجهة الخطر ولذلك كانت تكتب له النجاة ، فلقد توفى ابن هود عام ٦٣٥ هـ وانهارت بوفاته مملكته الانفصالية حيث تقدم ملك أراجون يستولى على المدن الشرقية والوسطى استكمالا لما قد بدأه عام ٦٢٨ هـ وسقطت له كذلك بلنسية عام ٦٣٦ هـ، ولم يبق صامدا الا بنو الأحمر فى المدن الجنوبية للأندلس . (٩٠)

وهكذا فقدت الأندلس فى محنة معارك الاسترداد الطاحنة تلك كل قواعدها الكبرى شرقا وغربا: قرطبة وبلنسية ومرسية وشاطبة ودانية وجيان واشبيلية وبطليموس وماردة وشلب وغيرها، وباتت أشلاء متناثرة لاتحتاج إلا إلى ضربة أخيرة لينهار مابقى منها ، ولكن فى وسط هذه الانقراض نهضت مقاطعة إسلامية فى الجنوب الشرقى ظلت شامخة متحدية الحصار المسيحي الذى استرد الأندلس الأسبانية كلها وكان يمكن أن تقتصر عليه تلك القوة الفتية التى قاومت السقوط لهم حوالى القرنين من الزمان . . . هذه هى مملكة غرناطة .

٨٨ - عنان ، عصر المرابطين والموحدين ص ٢٢.

- السامرائى ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٢٧.

٨٩ - عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص ص ٢٢ - ٢٣.

- بيضون ، الدولة العربى فى الأندلس ، ص ٢٨٦.

٩٠ - عنان ، عصر المرابطين والموحدين ص ص ٢٢ - ٢٣ .

خاتمة :

رغم أن العصر العباسي الثاني شهد عند افتتاحه مولد قوتين اسلاميتين بعثتا العالم الاسلامي في المشرق والمغرب بعثا جديدا، إلا أنهما لم تستطيعا ان تحيدا عوامل الضعف التي كانت تنخر في هذا الجسد منذ أربعة قرون خاصة وأن العدو الذي كان عليهما صده في هذا العصر لم يكن هو - الدولة البيزنطية - العدو المألوف الذي دار عليه التاريخ وطحنه أحداثه كما دار على العالم الاسلامي - ولكن كان عدوا فتيا لم يخبروا عاداته ولا فنون قتاله وهو أوروبا المسيحية صاحبة الحروب الصليبية، ومعها حركة الاسترداد المسيحي في مغرب العالم الاسلامي والتي وصلت إلى مرحلة خطيرة جدا من المد في العصر العباسي الثالث رغم أنه كان لها ارهاصات وسوابق في العصور الأخرى، لايمكن فهمها إلا في ظل ظروف ميزان القوى بين القوى الاسلامية والقوى المسيحية والتي حكمت تاريخ الصراع بينهما منذ ظهور الاسلام، فلقد انطلق المد الاسلامي كاسحا لكل ما يملكه المسيحيون خارج قارة أوروبا ثم غزاهم في أوروبا ذاتها ، واستمر ميزان القوى مائلا لصالح العالم الاسلامي قرابة ثلاثة قرون من الزمان حتى حدث التوازن في القرن الرابع الهجري . فرغم التفكك الشديد في الدولة العباسية والذي زامنه ازدهار وقوة في الدولة البيزنطية نتيجة ظهور الأسرة المقدونية على عرشها، ظهرت قوى اسلامية حملت لواء التصدي للقوى المسيحية في المغرب بالأساس وفي المشرق أيضا استمر هذا التوازن بصورة أو بأخرى على مدار القرن الخامس الهجري لظهور السلاجقة والمرابطين بالأساس .

ولكن مع أوائل القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي كان ميزان القوى قد أخذ يميل بوضوح . فلقد أصاب الوهن التام دولة الاسلام خاصة بعد الانقسام السريع لدولة السلاجقة والذي تلاه مباشرة الاضطرابات الداخلية العنيفة في الاندلس التي أدت إلى القضاء على دولة المرابطين ولم تدع أوروبا الفرصة تضيق من يدها، فكان رد الفعل للفتوحات الاسلامية والمد الاسلامي الذي امتد قرونا عديدة، فبدأ المد الأوروبي في مواجهة التوقف والتراجع للمد الاسلامي منتهزين فرصة الضعف والوهن والانحلال، فالحروب الصليبية اشتعلت متشجعة بضعف العالم الاسلامي ولم تأت نتيجة قوته .

المراجع

أولاً : الكتب العربية

- (١) إبراهيم بيضون ، الدولة العربية في أسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة (بيروت : دار النهضة العربية ، ط٣ ، ١٩٨٦) .
- (٢) إبراهيم على طرفان ، امبراطورية غانا الاسلامية (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٧٠) .
- (٣) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، (بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧) ، ج ٨ .
- (٤) ابن القلائى ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، دار الفكر ، د.ت .
- (٥) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ط٣ ، ١٩٦٤) .
- (٦) ————— ، تاريخ الاسلام ، العصر العباسى الاول (القاهرة ، مكتبة النهضة العربية ، ١٩٦٤ - ط٧) ج ٢ .
- (٧) ————— ، تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى (الجزء الأول : الدولة العربية) (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٧ ، ١٩٦٤) .
- (٨) حسن أحمد محمود ، أحمد إبراهيم الشريف ، العالم الاسلامى فى العصر العباسى (القاهرة ، دار الفكر العربى ، ط٥ - ١٩٨٠) .
- (٩) حسين أحمد أمين ، الحروب الصليبية فى كتابات المؤرخين العرب المعاصرين (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٣) .
- (١٠) حسين محمد سليمان ، الدولة الإسلامية فى العصر العباسى والعلاقات السياسية مع الأمويين والفاطميين (الرياض : دار عالم الكتب للنشر والتوزيع ، ١٩٨٤) .
- (١١) خليل إبراهيم السامرائى وآخرون ، تاريخ المغرب العربى (الموصل : دار الكتب للطباعة والنشر ١٩٨٨) .
- (١٢) ————— ، تاريخ الدولة العربية الاسلامية فى العصر العباسى (الموصل : دار الكتب للطباعة والنشر - بجامعة الموصل ، ١٩٨٨) .
- (١٣) د. سعيد عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب (بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٢) .

- (١٤) عادل عبدالحافظ عثمان حمزة شحاته ، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الاسلامى ٥٤٧ - ٦٤٨ هـ / ١١٥٢ - ١٢٥٠ م (القاهرة : مكتبة مدبولى ، ١٩٨٩) .
- (١٥) د. عبدالحليم عويس ، دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية (جدة ، دار الشروق ، ط٢ ، ١٩٨٢) .
- (١٦) عبدالعظيم رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الاسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٣) .
- (١٧) عبدالمنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر - التاريخ السياسى (الاسكندرية : دار المعارف - ط٢ - ١٩٧٦) .
- (١٨) غازيليث فازيليف ، العرب والروم - ترجمة محمد عبدالهادى شعيرة (القاهرة ، دار الفكر العربى ، د.ت) .
- (١٩) فاروق عمر ، العباسيون الأوائل (بغداد : دار الارشاد ، ١٩٧٠) ج٢ .
- (٢٠) فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى (القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د.ت) .
- (٢١) قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، الايديولوجية - الدوافع - النتائج (الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - سلسلة عالم المعرفة ، عدد ١٤٩ ، مايو ١٩٩٠) .
- (٢٢) محمد أحمد زيور ، العلاقات بين الشام ومصر فى العهد الطولونى والاخشيدي من ٢٥٢ - إلى ٣٥٨ / ٨٦٨ - ٩٦٨ (دمشق : دار حسان للطباعة والنشر ، ١٩٨٩) .
- (٢٣) محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب (بيروت : دار الغرب الاسلامى ، ١٩٨٣) .
- (٢٤) محمد جمال الدين سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية (القاهرة : دار الفكر العربى ، ط٤ ، ١٩٧٧) .
- (٢٥) محمد عبدالله عنان ، مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام (القاهرة : مؤسسة الخانجى ، ١٩٦٢) ج١ .
- (٢٦) _____ ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس : القسم الأول (القاهرة : لجنة التأليف والنشر ، ط١ ، ١٩٦٤) .

(٢٧) محمد محمد عبدالقادر الخطيب ، دراسات تحليلية فى تاريخ الدويلات الاسلاميه (دم ، ط١ ، ١٩٨٥) .

(٢٨) محمود شاكر ، التاريخ الاسلامى ، الدولة العباسية ج١ (بيروت ، المكتب الاسلامى ، ١٩٨٥) .

(٢٩) مصطفى طه بدر ، محنة الاسلام الكبرى أو زوال الخلافة الاسلاميه من بغداد على أيدي المغول (الجيزة : مطبعة المكتب الثقافى الدولى ، د.ت) .

(٣٠) نادية حسنى صقر ، السلم فى العلاقات العباسية البيزنطيه فى العصر العباسى الاول (مكة المكرمة : المكتبة الفيصلية ، ١٩٨٥) .

ثانياً : رسائل علمية :

(١) محمود إبراهيم شلبية ، علاقات المغول بسلطة الممالك فى مصر والشام (رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة القاهرة - قسم التاريخ - ١٩٧٩) .

(٢) نايف عبدالجبار سهيل ، السياسة الخارجية للدولة العباسية فى العصر العباسى الاول ، رسالة ماجستير - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ، ١٩٨٥) .

ثالثاً : دوريات عربية :

- د. عبدالقادر يوسف ، العلاقات بين الشرق والغرب فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، سلسلة دراسات تاريخية رقم ٣ (بيروت : المكتبة العصرية ، د.ت) .

رابعاً : الكتب الأجنبية :

(1) Bernard lewis, The Arabs in History (New york : Harper, Row Publishers, 1960).

(2) Comen, A., The Atexiad Tran Dawas, Vol. 11, London 1964.

(3) Marshall G.S. Hodgson, The Venture of Islam, Vol 1 : The Classical Age of Islamic (Chicago, London : The Universty of Chicago Press, 1974).

(4) M.A. Shacban, Islamic History : A New Interpretation (London : Cambridge Universty'Press, 1971).

إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

أولاً — سلسلة إسلامية المعرفة

- إسلامية المعرفة: المبادئ وخطة العمل، الطبعة الثانية، الدار العالمية للكتاب الإسلامي/الرياض/١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- الرجز في إسلامية المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل مع أوراق عمل بعض مؤتمرات الفكر الإسلامي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. أعيد طبعه في المغرب والأردن والجزائر.
- نحو نظام نقدي عادل، للدكتور محمد عمر شايرا، ترجمه عن الإنجليزية سيد محمد سكر، وراجعه الدكتور رفيق المصري، الكتاب الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية لعام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، الطبعة الثالثة (منقحة ومزودة)، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- نحو علم الإنسان الإسلامي، للدكتور أكبر صلاح الدين أحمد، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد الغني خلف الله، (دار البشير/عمان الأردن) ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- منظمة المؤتمر الإسلامي، للدكتور عبد الله الأحسن، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد العزيز الفائر، الرياض، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- تراثنا الفكري، للشيخ محمد الغزالي، الطبعة الثانية، (منقحة ومزودة) ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- مدخل إلى إسلامية المعرفة: مع مخطط لإسلامية علم التاريخ، للدكتور عماد الدين خليل، الطبعة الثانية (منقحة ومزودة)، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- إصلاح الفكر الإسلامي، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثالثة، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- إسهام الفكر الإسلامي في الاقتصاد المعاصر، أبحاث الندوة المشتركة بين مركز صالح عبد الله كامل للأبحاث والدراسات/بجامعة الأزهر والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

ثانياً — سلسلة إسلامية الثقافة

- دليل مكتبة الأسرة المسلمة، خطة وإشراف الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الطبعة الثانية (منقحة ومزودة) الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، للدكتور يوسف القرضاوي (بإذن من رئاسة المحاكم الشرعية بقطر)، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

ثالثاً — سلسلة قضايا الفكر الإسلامي

- حجة السنة، للشيخ عبد الغني عبد الخالق، الطبعة الثانية، دار الوفاء، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- أدب الاختلاف في الإسلام، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الخامسة (منقحة ومزودة) ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- الإسلام والتنمية الاجتماعية، للدكتور محسن عبد الحميد، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- كيف نتعامل مع السنة النبوية: معالم وضوابط، للدكتور يوسف القرضاوي، الطبعة الخامسة، دار الوفاء، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- كيف نتعامل مع القرآن: مداورة مع الشيخ محمد الغزالي أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنة، الطبعة الثالثة، دار الوفاء، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

- مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، للأستاذ عمر عبيد حسنة، الطبعة الثانية، دار القارئ العربي، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- حول تشكيل العقل المسلم، للدكتور عماد الدين خليل، الطبعة الخامسة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- المسلمون والبدل الحضاري للأستاذ حيدر الغدير، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- مشكلتان وقراءة فيهما للأستاذ طارق البشري والدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثالثة، دار القارئ العربي، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- حقوق المواطنة: حقوق غير المسلم في المجتمع الإسلامي، للأستاذ راشد الغنوشي، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

رابعاً — سلسلة المنهجية الإسلامية

- أزمة العقل المسلم، للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الطبعة الثالثة، دار القارئ العربي، القاهرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية: أعمال المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي، الجزء الأول: المعرفة والمنهجية، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- الجزء الثاني: منهجية العلوم الإسلامية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- الجزء الثالث: منهجية العلوم التربوية والتفسيية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- معالم المنهج الإسلامي، للدكتور محمد عمارة، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- في المنهج الإسلامي: البحث الأصلي مع المناقشات والتعقيبات، للدكتور محمد عمارة، القاهرة، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- خلافة الإنسان بين الوعي والعقل، للدكتور عبد المجيد النجار، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- المسلمون وكتابة التاريخ: دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ، للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- في مصادر التراث السياسي الإسلامي: دراسة في إشكالية التعميم قبل التأصيل والاستقراء، للأستاذ نصر محمد عارف، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

خامساً — سلسلة أبحاث علمية

- أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة، للدكتور طه جابر العلواني، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- التفكير من المشاهدة إلى الشهود، للدكتور مالك بدري، الطبعة الثالثة، (منقحة) ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- العلم والإيمان: مدخل إلى نظرية المعرفة في الإسلام، للدكتور إبراهيم أحمد عمر، الطبعة الثانية (منقحة) ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- فلسفة التنمية: رؤية إسلامية، للدكتور إبراهيم أحمد عمر، الطبعة الثانية (منقحة) ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، للدكتور عبد المجيد النجار، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

سادساً — سلسلة المحاضرات

- الأزمة الفكرية المعاصرة: تشخيص ومقترحات علاج، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

سابعاً — سلسلة رسائل إسلامية المعرفة

- خراطير في الأزمة الفكرية والمآزق الحضاري للأمة الإسلامية، للدكتور طه جابر العلواني، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث، للأستاذ محمد المبارك، القاهرة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- الأسس الإسلامية للعلم، للدكتور محمد معين صدقي، القاهرة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

- قضية المنهجية في الفكر الإسلامي، للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- صياغة العلوم صياغة إسلامية، للدكتور اسماعيل الفاروقي، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية، للدكتور زغلول واغب النجار، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

ثامناً - سلسلة الرسائل الجامعية

- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، للأستاذ أحمد الريسوني، الطبعة الأولى، دار الأمان - المغرب، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، الطبعة الثانية، الدار العالمية للكتاب الإسلامي - الرياض ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، الطبعة الثالثة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- الخطاب العربي المعاصر: قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحدثة (١٩٧٨-١٩٨٧)، للأستاذ فادي إسماعيل، الطبعة الثانية (منقحة ومزودة)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، الطبعة الثالثة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، للأستاذ محمد محمد إمزيان، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- المقاصد العامة للشريعة: للدكتور يوسف العالم، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- نظريات التنمية السياسية المعاصرة: دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي، للأستاذ نصر محمد عارف، الطبعة الثالثة، دار القارئ العربي، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- القرآن والنظر العقلي، للأستاذة فاطمة إسماعيل، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، للدكتور راجح الكردي، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، للدكتور عبد الرحمن الزبيدي، دار المؤيد الرياض، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- الزكاة: الأسس الشرعية والدور الإنمائي والتوزيعي، للدكتورة نعمت عبد اللطيف مشهور، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر، للدكتور سليمان الخطيب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- الأمثال في القرآن الكريم، للدكتور محمد جابر الفياض، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

تاسعاً - سلسلة المعاجم والأدلة والكشافات

- الكشاف الاقتصادي لآيات القرآن الكريم، للأستاذ محي الدين عطية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- الكشاف الموضوعي لأحاديث صحيح البخاري، للأستاذ محي الدين عطية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- الفكر التربوي الإسلامي، للأستاذ محي الدين عطية، الطبعة الثالثة (منقحة ومزودة) ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- قائمة مختارة: حول المعرفة والفكر والمنهج والثقافة والحضارة، للأستاذ محي الدين عطية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء، للدكتور نزيه حماد، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

عاشراً - سلسلة تيسير التراث

- كتاب العلم، للإمام النسائي، دراسة وتحقيق الدكتور فاروق حمادة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

حادي عشر - سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير

- هكذا ظهر جيل صلاح الدين... وهكذا عادت القدس، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، الطبعة الثانية (منقحة ومزودة)، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

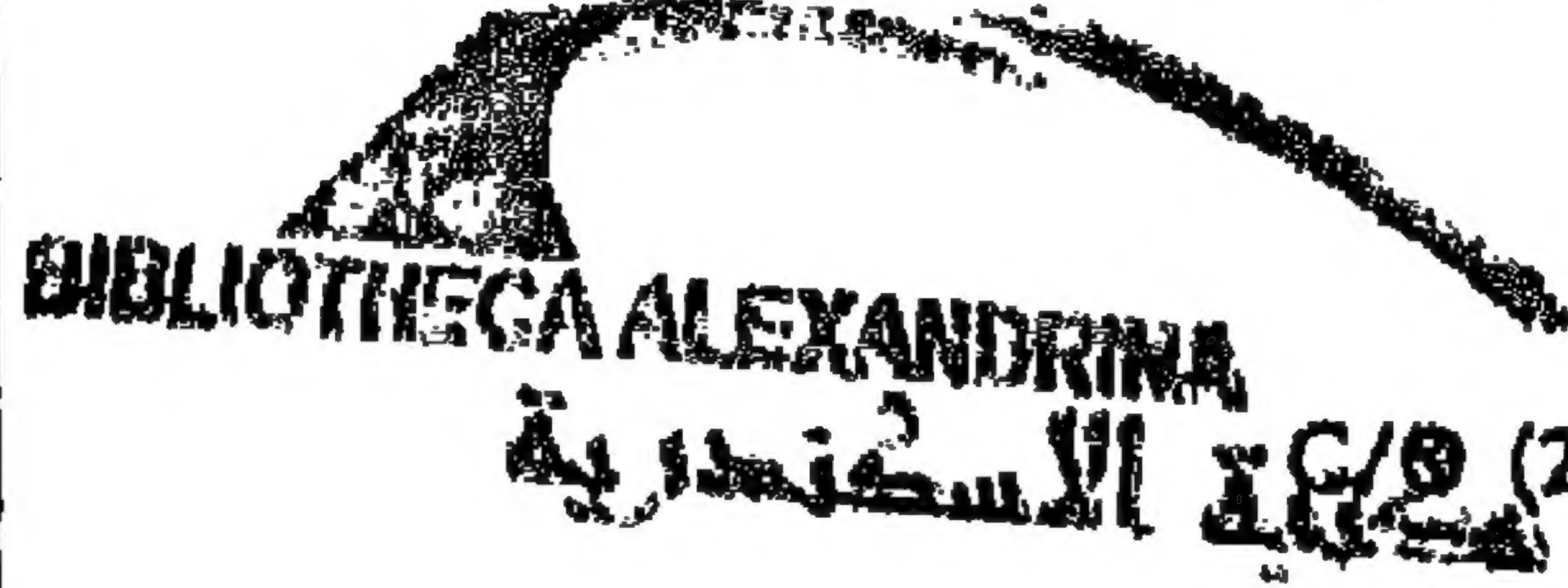
ثاني عشر - سلسلة المفاهيم والمصطلحات

- الحضارة - الثقافة - المدنية: دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، للأستاذ نصر محمد عارف، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

الموزعون المعتمدون لمنشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المملكة العربية السعودية: الدار العالمية للكتاب الإسلامي ص.ب 55195 الرياض 11534
تليفون: 1-465-0818 (966) فاكس: 1-463-3489 (966)

المملكة الأردنية الهاشمية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص.ب. 9489 - عمان
تليفون: 639-992 (962-6) فاكس: 611-420 (962-6)



لبنان: المكتب العربي المتحد ص.ب. 135788 بيروت.
تليفون 807-779 (961-1) 860-184 (961-1) فاكس: 478-1491 (212)

المغرب: دار الأمان للنشر والتوزيع، 4 زنقة المامونية الرباط
تليفون: 723-276 (212-7) فاكس: 200-055 (212-7)

مصر: دار النهار للطبع والنشر والتوزيع، 7 ش الجمهورية عابدين - القاهرة
هاتف 3406543 (20-2) فاكس 3409520 (20-2)

الإمارات العربية المتحدة: مكتبة القراءة للجميع ص.ب. 11032، دبي (سوق الحرية المركزي الجديد)
تليفون: 663-901 (971-4) فاكس 690-084 (971-4)

شمال أمريكا:

SA'DAWI PUBLICATIONS / UNITED ARAB BUREAU . المكتب العربي المتحد .
P.O. Box 4059, Alexandria, VA 22303 USA. Tel: (703) 329-6333 Fax: (703) 329-8052

ISLAMIC BOOK SERVICE

خدمات الكتاب الإسلامي

10900 W. Washington St. Indianapolis, IN 43231 USA
Tel: (317) 839-9248 Fax: (317) 839-2511

بريطانيا:

THE ISLAMIC FOUNDATION

المؤسسة الإسلامية

Markfield Da'wah Center, Ruby Lane Markfield, Leicester LE6 ORN, U.K.
Tel: (44-530) 244-944/45 Fax: (44-530) 244-946

MUSLIM INFORMATION CENTRE

خدمات الإعلام الإسلامي

233 Seven Sisters Rd. London N4 2DA, U.K.
Tel: (44-71) 272- 5170 Fax: (44-71) 272-3214

LIBRAIRE ESSALAM

فرنسا: مكتبة السلام

135 Bd. de Menilmontant. 75011 Paris Tel: (33-1) 43 38 19 56 Fax: (33-1) 43 57 44 31

SECOMPEX, Bd. Mourice Lemonnier; 152

بلجيكا: سيكومبيكس

1000 Bruxelles Tel (32-2) 512-4473 Fax (32-2) 512-8710

RACHAD EXPORT, Le Van Swinden Str. 108 11

هولندا: رشاد للتصدير

1093 Ck Amsterdam Tel: (31-20) 693-3735 Fax (31-20) 693-8827

GENUINE PUBLICATIONS & MEDIA (Pvt.) Ltd.

الهند:

P.O Box 9725 Jamia Nager New Delhi 100025 India
Tel: (91-11) 630-989 Fax: (91-11) 684-1104

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي مؤسسة فكرية إسلامية ثقافية مستقلة
أنشئت وسجلت في الولايات المتحدة الأمريكية في مطلع القرن الخامس
عشر الهجري (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م) لتعمل على:

- توفير الرؤية الإسلامية الشاملة، في تأصيل قضايا الإسلام الكلية وتوضيحها، وربط الجزئيات والفروع بالكلية والمقاصد والغايات الإسلامية العامة.
- استعادة الهوية الفكرية والثقافية والحضارية للأمة الإسلامية، من خلال جهود إسلامية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومعالجة قضايا الفكر الإسلامي.
- إصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر، لتمكين الأمة من استئناف حياتها الإسلامية ودورها في توجيه مسيرة الحضارة الإنسانية وترشيدها وربطها بقيم الإسلام وغاياته.
- ويستعين المعهد لتحقيق أهدافه بوسائل عديدة منها:
- عقد المؤتمرات والندوات العلمية والفكرية المتخصصة.
- دعم جهود العلماء والباحثين في الجامعات ومراكز البحث العلمي ونشر الإنتاج العلمي المتميز.
- توجيه الدراسات العلمية والأكاديمية لخدمة قضايا الفكر والمعرفة.
- وللمعهد عدد من المكاتب والفروع في كثير من العواصم العربية والإسلامية وغيرها يمارس من خلالها أنشطته المختلفة، كما أن له اتفاقات للتعاون العلمي المشترك مع عدد من الجامعات العربية الإسلامية والغربية وغيرها في مختلف أنحاء العالم.

The International Institute of Islamic Thought
555 Grove Street (P.O. Box 669)
Herndon, VA 22070-4705 U.S.A
Tel: (703) 471-1133
Fax: (703) 471-3922
Telex: 901153 IIIT WASH

هذا الكتاب

جزء من عمل ضخم استغرق إنجازه ما يزيد عن عشر سنوات وشارك فيه فريق مكون من سبعة وعشرين أستاذاً وباحثاً من المتخصصين فى العلاقات الدولية والقانون الدولى والتاريخ الإسلامى والعلوم السياسية ، يتحاورون ويتدارسون قضايا العلاقات الدولية فى الإسلام فى اجتماعات شهرية ونصف شهرية .

وقد أثمر هذا الجهد إنتاجاً أكاديمياً متميزاً فى أربعة مجالات هى :

- أصول وقواعد ومناهج التعامل مع المصادر الإسلامية عند التنظير للعلاقات الدولية فى الإسلام (الأجزاء : الأول والثانى والثالث) .

- العلاقات الدولية كما يمكن استباطها من الأصول الإسلامية : القرآن والسنة وخبرة الخلفاء الراشدين (الأجزاء : الرابع والخامس والسادس) .

- العلاقات الدولية فى التاريخ الإسلامى (من الجزء السابع وحتى الثانى عشر) .

- العلاقات الدولية فى الفكر السياسى الإسلامى (الأجزاء: الثالث عشر والرابع عشر)

- وسوف يتم اختصار هذا المشروع ، واستخلاص أفكاره فى صورة كتاب دراسى يكون صالحاً للتدريس فى الجامعات .

ويمكن القول - دون مبالغة - أن هذا الإنتاج هو الأول من نوعه فى هذا المجال العلوم الإجتماعية والإنسانية فى الدول العربية والإسلامية ، لذلك لا يجب الوقوف ينبغى أن يكون بداية لانطلاقة بحثية تسير على منهجه ، وتجاوزه وتبنى على قضائها ، وتعمق جزئياته ، وتستدرك عليها . بل أن خطته ومنهج تناوله ينبغى علوم وتخصصات إجتماعية أخرى .